الغاية والوسيلة

بقلم أديب اللجمي

ربما كان العدوان العسكري الذي بدأته اسرائيل في الخامس من شهر حزايرن (يونيو) الماضي على البلاد العربية المجاورة ، مفاجأة للرأي العام العربي والخارجي . فقد دأبت اسرائيل طوال السنوات الماضية ومنذ وجدت سنة ١٩٤٨ ، مثلما دأبت الصهيونية من قبلها، على أن تظهر غير ما تخفي . وكانت دعايتها الدائبة تسهر على إظهار اسرائيل بظهر « الدولة » الحريصة على السلام ، المهددة في أمنها من قبل جاراتها الدول العربية ، لا تريد اكثر من أن توفر ليهود العالم الذين اضطهدتهم النازية ومختلف حركات اللاسامية الأوروبية ، « وطناً قومياً » يأوون اليه ، ويعيشون فيه بسلام .

إلا أن المتتبعين لنشاط الصهيونية واسرائيل ، كانوا يعتقدون « اعتقاداً

جازماً بأن الحرب لا بد واقعة بين العرب واسرائيل [١] ، مرة، بل ومرات أخرى. فهناك أكثر من عامل يملي هذه الحتمية: طبيعة الحركة الصهيونية ونزعتها التوسعية ـ فقد اسرائيل بالعدوان ، ولا يمكن أن تبقى إلا باستمرارها في ممارسة العدوان ـ ، الاتجاهات المتناقضة للجاليات الاسرائيلية المختلفة ـ فهناك الجاليات الغربية والجاليات الشرقية ، والجاليات الغربية التي قدمت الى اسرائيل من اوروبا هي اكثر الجاليات صهيونية ، بل اكثرها ايماناً بالروح العسكرية العدوانية والأساليب الفاشية [٢] ـ ؛ وهناك سوء الوضع الاقتصادي في داخل اسرائيل .

يضاف الى هذه العوامل ، واقعان آخران يدفعان باسرائيل الى مواصلة اعتداءاتها على العرب وتهديدها لحقوقهم : أولهما تحريض الامبريالية العالمية ، اذ هي التي انشأت اسرائيل . وثانيهما واقع التجزئة الذي يعانيه شعبنا في جميع مجالات حياتنا العربية ، اذ يمكّن اسرائيل من ان تواجه قوى عربية متفرقة ، وبذلك يتاح لها ان تتغلب على كل واحدة منها على انفراد ، بدلاً من أن تواجه قوة عربية موحدة ، فتصبح احتمالات انتصار العدوان الاسرائيلي ضعيفة جداً ، ان لم نقل مستحيلة .

ولكن ثمة بالمقابل « حتمية » من نوع آخر ، تملي علينا نحن العرب أن نخوض المعركة في وجه اسرائيل . فلئن صح ان الواقع العربي الراهن ما زال مجزءاً ، فان الشعب العربي في مختلف اقطاره ، لا يستطيع أن يسكت على قيام دولة صهيونية فوق ارضه المغتصبة ، تهدد امنه في كل يوم ، وتبدد جهده وعمله

---

(١) راجع الكتاب القيم : أنيس القاسم ـ الاعداد الثوري لمعركة التحرير (سلسلة كتب فلسطينية ـ ٥) ـ منشورات منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٧ ص ـ ١١

(٢) يمكن الرجوع بهذا الصدد الى كتاب : ابراهيم العابد ـ العنف والسلام دراسة في الاستراتيجية الصهيونية ـ منشورات مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٧

في اتقاء الخطر الذي يتهدده من وجود هذه الدولة الدخيلة ، بدل ان ينصرف هذان الجهد والعمل الى تحقيق التقدم والرخاء للمجتمع العربي .

ان الرفض العربي للوجود الاسرائيلي لا يقبل المساومة ولا المهادنة . وعبثاً تستطيع أية قوة أن تزيل هذا الرفض من نفوس العرب الذين يتلخص مطلبهم في كلمات : استرداد فلسطين واعادتها الى أهلها الشرعيين . وكل ما عدا ذلك مكابرة ، او تزييف للارادة العربية . واذا كان لاصرار العرب على رفض الوجود الاسرائيلي من معنى ، فمعناه أن أنفاس الكرامة والحرية ما زال لها مكان في صدورنا .

* * *

على ان بين الباحثين من يردّ النزعة العدوانية الاسرائيلية الى عوامل اقتصادية بالدرجه الاولى . فالمشكلة الاقتصادية التي تواجه اسرائيل ، منذ ١٩٤٨ وحتى الآن ، تعتبر ، في نظر هؤلاء الباحثين ، الدافع الحقيقي لقيام هـذه بعدوان بين حين وآخر على البلاد العربية ، وهم يرون أن اسرائيل لم تستطع حتى الآن أن تقيم بنية اقتصادية ذاتية لاتعتمد على المعونة الخارجية والمساعدات التي تقدمها الجاليات الصهيونية ، بل ربما كان الأصح أن نقول ان اسرائيل تنظم اقتصادها على اساس استمرار تـدفق المساعدات اليها من الخارج . فالاقتصاد الاسرائيلي بحد ذاته ، هو في عجز دائم . واستقراء الوقائع ، كما فعل الدكتور يوسف عبد الله صايغ في كتابه : « الاقتصاد الاسرائيلي »(١) يرينا :

— ان اسرائيل لاتستطيع ضغط نفقاتها ، خاصة وان نفقات التسلح المترتبة عليهاتزداد ارتفاعاً

---

(١) الدكتور يوسف عبد الله صايغ : الاقتصاد الاسرائيلي — منشورات مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية — بيروت ١٩٦٦ .

– ان ميزان المدفوعات سيظل في حالة انخفاض ، مما يجعل حاجة اسرائيل الى العون الاجنبي مستمرة لسنوات عديدة مقبلة . ولا تستطيع اسرائيل ان تكتفي بعون في حدود /٢٥٠/ مليون دولار في السنة كما كانت تتوقع ، بل لابد لها من عون يتجاوز /٣٥٠/ مليون دولار سنوياً .

– ليست هناك دلائل تشير الى تزايد الهجرة اليهودية الى اسرائيل بنسبة كبيرة . ومعنى ذلك أن هذه لا تستطيع أن تساوم على هذه الورقة لتطلب مزيداً من المعونات المالية اليهودية الخارجية .

– ليس ميسوراً على اسرائيل ان تحصل على معونات ضخمة اذا لم يكن هناك تهديد عسكري لها ، تستطيع أن تستغله ؛ فاذا كان التهديد فعلياً لم تعد اسرائيل بحاجة الى جهود كبيرة للحصول على المعونة ، وهذا ما حدث مؤخراً ، علماً بأن اسرائيل ، لا العرب ، هي التي هددت وبدأت العدوان . واذا كان التهديد مفتعلاً ، توجب على اسرائيل أن تعبىء قواها الدعائية في العالم ، لتصور لمؤيديها من بلاد وشعوب الغرب ، أن الخطر يتهددها ، وأن المعونة لها باتت ضرورية . فالمشكلة الاقتصادية في اسرائيل قائمة ؛ وجميع الدلائل حسب رأي الخبراء الاقتصاديين تشير الى أنها ستظل قائمة ، إذ أن اسرائيل ترفض أن تخفض معدل التنمية من جهة ، كما ترفض أن تطبق التقشف الذي يمليه الحد من المعونات من جهة أخرى . اذن لا بد من أن تقوم « بعمل ما » يمكنها من ابقاء المعونات الخارجية على حجمها الأساسي . من هنـــا تحتم على اسرائيل أن تقوم « باصطناع الأزمات السياسية أو العسكرية أو تلك التي تتعلق بالجاليات اليهودية في الخارج ، بشكل يكاد يكون دورياً ، من أجل التغلب على الأزمة الاقتصادية ، إن لم تبد أمامها أزمات حقيقية يخلقها لها العرب [1] » .

(١) الاقتصاد الاسرائيلي – ص ٣٢٩ .

فللمشكلة الاقتصادية في اسرائيل دور كبير في تعريض سلام الشرق الأوسط للتهديد . وما دام هذا الاقتصاد مهدداً بشكله الراهن ، فيمكن اعتباره السبب الأول، أو على اقل تقدير، عاملاً أساسياً في اعتداءات اسرائيل العسكرية على العرب .

واذا كان لمثل هذا التفسير من قيمة ، فقيمته تكمن في ابرازه الوضع الاقتصادي القلق الذي تعيش فيه اسرائيل منذ تسعة عشر عاماً . ولكن هذا الوضع الاقتصادي ، يستمد قلقه من الوجود الاسرائيلي ذاته فوق الأرض العربية . ان غاية اسرائيل ليست في تأمين اقتصاد ثابت لها ، فمثل هذا وسيلة لا غاية . كما أن ادعاء اسرائيل بأنها تقوم في فلسطين بتوطين يهود العالم المضطهدين ليس هو غايتها أبداً ، بل أداة دعائية رخيصة ، من المؤسف أن يأخذها مأخذ الجد مثقفو أوروبا الغربية .

ان اسرائيل قد دخلت الى فلسطين بحراب بريطانيا والاستعمار الغربي كله ، لتبقى فيها ، ولتستمر في التمدد والتوسع على حساب العرب ، ولتواصل طرد أبناء البلاد الشرعيين من ديارهم ، لتوطن مكانهم يهوداً تأتي بهم — أحياناً رغم أنفهم ، وتحت التهديد الصهيوني لهم بالاغتيال — من انحاء متفرقة من العالم ، وتجعلهم يتخلون عن جنسياتهم السابقة ليصبحوا « مواطنين اسرائيليين » يزرعون أرض العرب ، ويسكنون في البيوت التي بناها العرب منذ مئات السنين .

في سبيل هذه الغاية ، لم توفر اسرائيل أية وسيلة . كل الوسائل كانت مشروعة بالنسبة اليها : العدوان المسلح ، تشريد العرب من بيوتهم ، استعداء الغرب على الشعب العربي ، التظاهر بالضعف والعجز ازاء قوة العرب ، تحويل اسرائيل الى مستودع رهيب للأسلحة من مختلف الانواع والجنسيات .

وفي اية من هذه الوسائل المتناقضة التي اتبعتها اسرائيل ، لم يكن ثمة ذرة من دفاع عن حق او أخلاق او كرامة ؛ بل كان هناك ذكاء ، وكانت هناك « شطارة » كل الشطارة في التزييف والتضليل ، وكانت جوقة الغرب المتحضر ، المثقف ، مهيأة مسبقاً للتنديد بالعرب ، والندب على اليهود « المسالمين » .

ولم يكن هناك في الواقع قصة يهود، ولا قصة اضطهاد عربي لليهود . فربما كان العرب هم الوحيدون او الأوائل من بين شعوب العالم الذين لم يضطهدوا اليهود اذ كان هؤلاء يعيشون معهم في مختلف البلاد العربية ، بل كان يعاملون معاملة المواطنين الطبيعيين . ومع ذلك يأبى مثقفو الغرب الا ان يصموا العرب بالعنصرية ويغدقوا السلام والوداعة على اسرائيل . وفي هذا يذهب بعض المثقفين العرب الى ان ضعف « دعايتنا » في الخارج هو الذي يكسب اسرائيل عطف مثقفي الغرب ، ويحجبه عنا ، كأنما القضية قضية دعاية محضة .

* * *

ان وجود اخطاء في واقعنا العربي ، في مختلف مستوياته الحكومية والشعبية والاعلامية والثقافية ، لا يكفي وحده لتفسير الموقف العدائي الذي يقفه مجموع مثقفي الغرب من العرب ، وبخاصة في صراعهم مع اسرائيل . ان ثمة رياء خاصاً بمثقفي الغرب انفسهم ، وارجو الا يفهم ذلك على انه انسياق « عاطفي » في الكتابة والحكم . فالعرب الذين قارعوا الاستعمار الفرنسي ، في الجزائر وتونس والمغرب ، وقارعوا الاستعمار البريطاني في مصر والعراق والاردن وفي مناطق عربية اخرى، هم ذاتهم العرب الذين يقارعون اليوم الغزو الصهيوني . وبالأمس انتصر العرب في معاركهم التحررية تلك ، لا لأن مثقفي الغرب كانوا وراءهم ، بل لأنهم كانوا اصحاب حق . فاذا ما وقفوا اليوم في وجه الغزو

الاسرائيلي الصهيوني ، وهم في هذه الحالة اصحاب حق أيضاً ، فقد تقمصوا في مفهوم « احرار الفكر » كل أشكال التشوه والمسخ ، وتحولوا الى جماعات « جامحة » تندفع قطعاناً لتحرق « الحضارة والعقل والنور » التي تحملها اسرائيل الى فلسطين . ولو انهم قبلوا بأن تغتصب أرضهم ، و تداس حقوقهم ، ويشرّد أهلوهم ويموتوا فوق التراب جوعاً أو مرضاً كما تموت البهائم في الغابات ، فان لهم محبة المثقفين ، وعطفهم . وسيقوم آنذاك مفكرو الغرب بكتابة العرائض والتوقيع على البيانات ، وعقد الندوات في هايد بارك بلندن ، وقاعة فاغرام بباريس ، ليبرهنوا على تأثرهم لضحايا دير ياسين ، وقبية ، والسموع ، والتشريد أبناء الضفة الغربية ، وغزة ، والقنيطرة . أيها الضعفاء والمظلومون ! موتوا بقنابل اسرائيل ، لتنالوا عطف مثقفي الغرب .

وكذلك الحال مع السود في افريقيا الجنوبية وفي روديسيا . ماداموا يجرّون من بيوتهم وأراضيهم ، فلهم عطف مثقفي العالم ومفكريه ، العطف فقط . أما حين يلجأ السود الى العمل المسلح لاسترداد أرضهم السليبة فقد تحولوا ، في أعين مثقفي الغرب انفسهم ، الى سفاحين ، الى مصاصي دماء ، الى برابرة .

لا العرب ، ولا السود ، ولا أي شعب في الدنيا ، جامحون أو مبالغون حين يطالبون باسترداد حقوقهم ، ويعملون على استعادتها بالأساليب العنيفة بعد ان تبور الوسائل « السلمية » . الجامحون في عاطفتهم فقط هم مفكرو الغرب ومثقفوه ، الذين لا تظهر فصاحتهم الا مع استمرار الاضطهاد والاستعمار والإذلال لقد نمت عندهم موهبة الرثاء على المذبوحين ؛ اما موهبة الانتصار للحق السليب - وهذا من مقتضيات الانسان المفكر ، حامل القيم ، الذي يمارس العقل المميز للحق من الباطل والخير من الشر - حين يكون هذا الحق بجانب العرب او بجانب شعوب العالم الثالث ، فتلك مسألة أخرى .

وسواء كنا ضعفاء أو بعيدين عن حضارة التكنيك ، فان لنا حقاً في أرضنا وفي وجودنا ، وفي أسلوب التعبير عن شخصيتنا ، لايجوز ان نسلمه او نقبل بتسليمه الى أية قوة خارجية مها كبرت . إننا لاندين هنا مثقفي الغرب ، ولا نريد أن نفتح حساباً معهم .بل نود أن نشير الى أن هذا الموقف الذي يقفونه منا – وخاصة من حقنا في فلسطين – ليس ناتجاً أبداً عن تقصيرنا في عرض هذا الحق ، بقدر ماهو ناتج عن تحيزهم الصارخ لاسرائيل . انهم لايبحثون عن الحقيقة ، بل عن اسرائيل . .ومن حسن الحظ ان يكون بينهم مفكرون شرفاء أمثال جاك بيرك ، وفنسان مونتي ، ومكسيم رودنسون ، وغيرهم ، بسببهم لم نيأس من امكان انتصار الفكر النزيه في الغرب ذات يوم. اننا نحمل لهؤلاء السادة كل مشاعر التقدير والاحترام ، لا لانتصارهم لقضيتنا ، بل لانتصارهم للحق المتمثل في قضيتنا .

* * *

« ان الفكرة الرئيسية للصهيونية وجدت قبل هرتسل ، وقبل زماننا ، وهي لازالت كما كانت : سعياً تاريخياً مثابراً للعودة الى فلسطين . ان ذلك هو الهدف وكل ماعداه وسيلة فقط [1] »

مامن انسان يجهل أن الحركة الصهيونية حركة عقائدية ، لها مبادؤها وأهدافها ، وأن انشاء اسرائيل أهم هذه الأهداف ، وأنها لن تكتفي بهذه الرقعة من الأرض التي استولت عليها بتواطؤ الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ، بل تريد ان تمتد من الفرات الى النيل . فالتوسع الاسرائيلي على

---

(١) مقتطفات من كتاب حاييم وايزمن – الطبعة الثانية – اصدار القسم الأميركي للوكالة اليهودية – نيويورك ١٩٦٢ – ص ١٩ .

حساب العرب ، وعن طريق ازاحة العرب من أوطانهم ، هو احدى غايات الصهيونية المكشوفة . ان هذا التوسع في مفهومهم لابد منه ، حتى في أدنى الشروط ، اذ بفضله تستطيع اسرائيل ان تحل إشكالاتها الاقتصادية الراهنة ، كما تستطيع أن تحمل يهوداً جدداً من العالم على التوطن في الأرض العربية المغتصبة ، فتصبح اسرائيل دولة يزيد عدد سكانها عن المليونين بل وعن الخمسة ملايين ، وتصبح بالتالي قادرة على مواصلة ازاحتها للشعب العربي عن أرضه ، تماماً مثلما فعل البيض مع السود في جنوب افريقيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

ولكن وراء العدوان الاسرائيلي على العرب ، ووراء حل تناقضات اسرائيل الاقتصادية ، ووراء زيادة توطين اليهود في فلسطين ، والتوسع الاسرائيلي « من النيل الى الفرات سيمتد ملكك يا إسرائيل » ، وراء هذا كله تثوي غاية تجمع كل تلك الغايات المتفرقة التي أشرنا اليها : غاية ابادة العرب . ولا يشترط في هذه الإبادة أن تكون افناء فعلياً للشعب العربي ، ففي ذلك استحالة مادية ، بل يكفي عن طريق التشريد والازاحة ، والاستيلاء المتواصل على مزيد من الأرض العربية خلق شعب عربي ، "نزعت" جذوره من أرضه ، فأصبح شبيهاً بالغجر ، اذ لا يعود له أمل في الاستقرار ، ولا في المقاومة ، ولا في استعادة الأرض السليبة . ان الغرض من الوجود الاسرائيلي فوق الأرض العربية ، كما هو مرسوم في عقل الاستعمار الغربي وعقل الصهيونية العالمية ، يستهدف بالنتيجة جعل العرب في وضع يماثل وضع السود بالنسبة للبيض في جنوب أفريقيا .

واذا كان ثمة بين العرب ، من يعتقد ، أو يظن عن حسن نية ، ان اسرائيل تنشد تعايشاً سلمياً مع الشعب العربي ، وتنشد اعترافاً عربياً شرعياً بها — عن طريق عقد الصلح معها والاعتراف بوجودها كدولة —

وأنها لا تريد اكثر من أن توفر لليهود المقيمين اليوم في اسرائيل شروط الحياة الانسانية البناءة في ظل السلام والطمأنينة ، اذا كان بين العرب من لا يزال يحلم بهذه الاحلام ، فاننا نحيلهم الى واقعتين كبيرتين حديثتين : الاولى هي العدوان الأخير على العرب ، واستيلاء اسرائيل على اراض تعادل ثلاثة اضعاف الاراضي التي كانت تحتلها ، وتهجيرها لجميع السكان في الضفة الغربية وقطاع غزة ومنطقة القنيطرة ، ثم هذه التصريحات والبيانات الرسمية التي تصدر عن كبار المسؤولين الاسرائيليين والتي تتلخص في ان الأراضي التي احتلها الجيش الاسرائيلي اثناء العدوان الأخير ، ليست اراض عربية ، بل هي جزء مكمل لاسرائيل . ولسنا الآن بصدد مناقشة هذه التصريحات وتفنيدها ، بل نود الاشارة فقط الى عملية تهجير العرب من مدن الضفة الغربية وقراها ومن قطاع غزة ، وعدم سماح اسرائيل بعودة احد منهم الى بيته ، اذ ليس في ذهن اسرائيل ان تنسحب من تلقاء ذاتها من هذه الاراضي ، كما انه ليس في ذهنها ان تستقدم يهوداً من الخارج – على افتراض ان العرب لم يتمكنوا من استعادة هذه الأراضي في الظروف الراهنة – وتوطنهم في هذه المناطق ، ليعيشوا مع العرب الذين هم السكان الأصليون ، بل هي تريد إزاحة العرب واحلال اليهود مكانهم .

اما الواقعة الثانية فهي حالة العرب الموجودين في اسرائيل ذاتها . ان السكان العرب الذين ظلوا في فلسطين اثر الاحتلال الصهيوني سنة ١٩٤٨ ، يعانون الآن كل الوان الاضطهاد والتمييز العنصري ، وعمليات الإبادة . وقد جاءتنا مؤخراً شهادة واحد منهم ، في مقال له ، نشرته مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » في العدد الخاص الذي اصدرته في شهر حزيران (يونيو) الماضي عن

« النزاع العربي الاسرائيلي »[١]. كاتب المقـال اسمه ابراهيم صابات ، مسيحي مولود في طبريا ، عمره ٣٨ سنة ، استاذ للغة العبرية في مدارس العرب ، ورئيس تحرير جريدة المرصاد العربية .

يقول ابراهيم صابات في مقاله :

« ثمانية عشر عاماً مرت على انشاء دولة اسرائيل ، ومازلنـا نشهد الواقع المؤسف ، وهو ان العرب مازالوا ، في نظر اليهود ، معتبرين أجانب . ان هؤلاء العرب يزداد شعورهم بأنهم لم يعودوا يعيشون في بلدهم . ومثل هذا الوضع يحتاج الى ايضاح .

« لقد أتيح لي مؤخراً ان ألتقي بن غوريون ، وهو الذي رسم سياسة الحكومة تجاه العرب في داخل البلاد وخارجها ، فقال لي :

— إعلم ان اسرائيل هي بلد اليهود ، اليهود وحدهم . وكل عربي يسكن فيها يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها أي مواطن من الاقليات في بلد ما . الا أنه ينبغي على العربي ايضاً ان يقبل بواقـع انه يعيش في بلد يهودي ، وأن ما يتمتع به اليهود لايتمتع به العرب[٢] » .

ويواصل صاحب المقال سرد ظاهرات التميز التي تمارسها اسرائيل بحق العرب فيقول :

« من بين الأطفال العرب الذين يذهبون الى المدرسة الابتدائية ، ينتقل

---

(١) مجلة الأزمنة الحديثة ـ مقال ابراهيم صابات ـ الغني والفقير والأفعى ص ٧٨٢
Ibrahim Shabat - Le riche, le pauvre et le Serpent.- In Les Temps Modernes- Le Conflit Israelo-Arabe № 253 Bis 1967 - p. 782

(٢) المرجع السابق — ص ٧٨٣ .

٣٪ فقط الى التعليم الثانوي ، ولا يكاد يصل منهم اكثر من ١٪ الى ماهو أعلى من التعليم الثانوي ... واذا كانت نسبة الطلاب العرب في الجامعات خلال ١٩٦٣ – ١٩٦٤ لم تتجاوز ٢٠٪ فان نسبة اليهود فيها قد تجاوزت ٧٠٪ ، ومعنى ذلك ان ٨٠٪ من العرب سيصبحون في المستقبل القريب دون المستوى الثقافي ، كما ان اكثر من ٨٠٪ من اليهود سيصبحون فوق المستوى الثقافي . . . اننا نشهد اليوم نتيجة ايقاف التنمية في القرى العربية ، ونتيجة فقدان التصنيع في القطاع العربي ، ان تحول البدو الرحل الى مقيمين ، والعمال الى رحل ، واصبح ٨٠٪ من العرب يعيشون من الاجور التي يدفعها لهم ارباب العمل اليهود[1] . »

اسرائيل لاتنشد اذن تعايشاً سلمياً مع العرب . وما مطالبتها بعقد الصلح مع الدول العربية الا حلقة من حلقات مخططها الرامي الى استمرار دحر الشعب العربي عن أرضه ، وإبادته على غرار ماتفعل الامبريالية البيضاء في أفريقيا السوداء .

* * *

إزاء هذا الواقع – والصورة التي حاولنا تقديمها له هنا هي أقل منه بكثير – ماذا نستطيع ، نحن العرب ، أن نفعل ؟

في اعتقادنا ان الغاية التي ينشدها شعبنا لم تتبدل ، ولا يمكن أن تتبدل : انها اعادة الحق العربي المغتصب الى أهله الشرعيين . فمنذ ١٩٤٨ واسرائيل تعتدي على العرب ، تساندها في عدوانها وتشجعها عليه ، جميع دول الاستعمار والامبريالية التي ما زالت تنهب ثروات وخيرات بلاد العالم الثالث ، ومن جملتها البلاد العربية .

فليس العرب هم الذين يعتدون على بلاد غير بلادهم ، وليس العرب هم الذين يغتصبون أرضاً غير ارضهم .

---

(١) المرجع السابق – ص ٧٨٥

ان غايتهم تتلخص في اعادة حقوقهم اليهم ، في اعادة الوجه العربي الى فلسطين .

ولكن الوسائل التي اتبعناها نحن العرب ، لم تجد حتى الآن في بلوغ الغاية التي ننشدها . وإذ أن من المستحيل علينا ان نتخلى عن هذه الغاية ، فقد اصبح لزاماً علينا ان نبحث عن وسائل اخرى لتحقيقها ، اكثر جدوى واكثر صحة من تلك التي اتبعناها حتى الآن .

من هنا نشأت ضرورة المراجعة الجذرية لكل ما قمنا به منذ ١٩٤٨ حتى الآن . فالعمل العربي لم يتمكن خلال السنوات العشرين الماضية من تحقيق خطوات في طريق عودة الحق العربي الى اهله . فيجب إذن ان نراجع جميع مواقفنا ، وجميع خططنا ، حكومات وشعوبا ، في داخل كل قطر ، وفي علاقات الأقطار العربية ببعضها .

والمراجعة الجذرية ، او اعادة النظر الكاملة ، تتطلب منا اول ماتتطلب نزاهة قصوى في التحليل ، واستعراضاً جدياً لجميع مؤسسات حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية . فقد تكون كلها او بعضها بحاجة الى اعادة تركيب ، على اسس جديدة ، تعتمد اول ماتعتمد على حق ابناء الشعب العربي في المشاركة الفعلية في اقامة حكم عربي اشتراكي وحدوي حر .

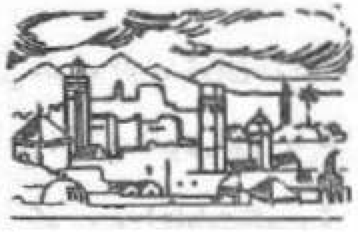
ان في الحياة العربية الراهنة ظاهرات وصولية وانتهازية وتحلل من القيم الخلقية والفكرية لم يعد يليق بنا ، ونحن نعيش في النصف الثاني من هذا القرن ان نسكت عنها . كما لم يعد يليق بنا ان نقبل ببنى التخلف وبالعقليات الاقطاعية تتحكم في مجتمعاتنا وتعيقها عن التقدم الحر .

ومن المحقق المؤكد ان كل بنـــاء قومي واجتماعي لايمكن ان يقوم الا اذا انطلق من ايماننـــا بالشعب ، وحبنا اللانهائي لمواطنينا ، واخوتنا في البؤس والكفاح ، كي نأخذ بيدهم ، ونعدهم للمسؤوليات اعداداً فكرياً وعملياً لائقاً . وكلما ازداد نطاق مشاركة شعبنا اتساعاً في حمل مهماته القومية ، ازداد الأمل في تمكننا من التغلب على مختلف التحديات التي تواجهنـا في هذه الظروف التي يمكن ان نصفها بأنها حاسمة دون ان نقع في اية مبالغة . ان امتنا العربية تقف الآن على مفترق الطرق . وانقاذها لايكون بمجرد الندم والبكاء على مافات وضاع ، كما لايكون ايضاً باستمرار الإمعان في طريق الخطأ وركوب الرأس . ان انقاذها يبدأ بمراجعة جذرية لكل ماقمنـا به طوال عشرين سنة وأدى الى فشلنا في مهماتنا ، لنتعاون على الخلاص منه ، وعلى السير في الطريق المؤدية الى حريتنا وتقدمنا .

ومن هنا فان المراجعة الجذرية لايمكن ان تتم في نطاق كل قطر عربي وحسب . ان المحنة التي تواجهنا ، هي امتحان لقدرة الامة العربية كلها على البقاء. فالخطر قومي ، ومقاومته يجب ان تنطلق من مفهوم قومي . وهذا يعني ان توحيد الطاقة العربية في جميع مجالات حياتنا ، شرط لازم وان لم يكن كافياً . ان الوحدة العربية هي اليوم اشد الحاحاً علينا لتحقيقها من اي وقت آخر . وليس المطلوب ان نلف وندور على مفهوم الوحدة وان نفوت الفرص على شعبنا في مناقشات عقيمة ، ليس القصد منها تحقيق اي انجاز وحدوي عملي ، بل مجرد ابراء الذمة . ان استمرار التجزئة هو تهديد مباشر ، بل اكبر تهديد لبقاء امتنا العربية . فالامبريالية والصهيونية تسلطان طغيانها على جميع ابناء شعبنا ، وتستنزفان دماء كل فرد من شعبنا ، وتسعيان

الى ان تجعلا من شعبنا العربي الواحد، مئات الشعوب التي تشكل مئات الدويلات.
ومن هنا ايضاً فان اية خطوة ايجابية صادقة نخطوها في الطريق الوحدوي، هي تعزيز لهويتنا القومية، وتوحيد لطاقاتنا في سبيل دحر العدوان الواقع علينا، واسترداد ارضنا السليبة، واقامة مجتمع التقدم والرخاء الذي نطمح اليه، وتمكين لشخصيتنا العربية من ان تنمو نمواً حراً يتيح لها ان تتفتح وتبدع وتشارك في حضارة القرن العشرين.

لا بد من المراجعة الجذرية لمختلف وجوه حياتنا العربية، بعد ان اتضحت لنا اليوم ابعاد الخطر الذي يتهددنا. فلنفتح صدورنا وعقولنا، لهذه المراجعة، بلا تزييف، ولا تصنع. ولنشترك جميعاً في الدراسة والتحليل والتشخيص، بلا حقد، ولا حذر، ولا تحفظ. فمن هذه المشاركة، ومن هذه المصارحة الأخوية التامة، يمكن ان تنطلق الحلول لبناء عربي قومي جديد، ولإعداد جدي لابناء شعبنا، وتعبئة جميع طاقات أمتنا ومواردها كي نواجه اعداءنا: الامبريالية، والصهيونية، والتخلف، بإرادة واحدة، وعقل منظم، وتصميم على كسب معارك التحدي التي نتصدى لها في مختلف المجالات: العسكرية، والاقتصادية، والثقافية، وسواها. بذلك نستطيع ان نقول ان محنة الخامس من حزيران الماضي كانت ايقاظاً حقيقياً لنا.



التعاون العربي

في مجال التربية والثقافة

د. جميل صليبا

من صفات المرحلة التي تجتازها الاقطار العربية في الوقت الحاضر اشتمالها على تغيرات عميقة في جميع مجالات الحياة . فقد تنبه العرب خلال هذه المرحلة من تاريخهم لما اصيبوا به من تخلف عهود الاستعمار فاخذوا يعملون على تحرير انفسهم من رواسبه ، وعلى تنمية حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعلى بناء نهضتهم على اسس صحيحة تنبع من صميم حياتهم ، وتجمع بين ماضيهم وحاضرهم وتعدهم لمسايرة ركب التقدم العالمي . فلا غرو اذا أدّت رغبتهم في التقدم الى عنايتهم بنشر التعليم في جميع طبقات الشعب ، والى

اهتمامهم بتشجيع الانتاج العلمي والادبي والفني والى قيامهم بتحسين وسائل الاعلام وتوسيع حركة الترجمة واحياء التراث العربي وتجميل المدن واستخدام الآلات والادوات الحديثة في الانتاج الزراعي والصناعي والى عنايتهم بتنظيم شؤون التعاون الثقافي لما لهذا التعاون من اثر بالغ في تحقيق وحدتهم القومية .

وليس المقصود بالتعاون الثقافي عقد المعاهدات والاتفاقات فحسب، وانما المقصود به تنفيذ الاحكام التي تتضمنها هذه الصكوك تنفيذاً عملياً . واذا كان عقد المعاهدات والاتفاقات ظاهرة حديثة ، فان العلاقات الثقافية بين الشعوب ظاهرة قديمة. والفرق بين التعاون الثقافي الناشىء عن عقد المعاهدات والعلاقات الثقافية الناشئة عن الاتصال الطبيعي بين الشعوب ، أن الاول ظاهرة سياسية مبنية على تخطيط ارادي على حين ان الثانية ظاهرة انسانية طبيعية خاضعة لقوانين علم الاجتماع . ولا يشترط في قيام هذه العلاقات الثقافية العفوية ان تكون نتيجة التعاطف النفسي او التعايش السلمي ، لأن القيم الثقافية تنتقل من شعب الى شعب انتقالاً طبيعياً حتى لو كان احدهما معادياً للآخر . اما التعاون الثقافي المبني على عقد المعاهدات ، فانه لايبلغ غايته الا اذا انقلبت رغبة الشعوب في الاقتباس عن غيرها الى عمل ارادي منظم يهدف الى تحسين علاقاتها بعضها ببعض .

ولست اريد الآن أن افصل القول في الاسباب الباعثة على التعاون الثقافي ، فان هذه الاسباب كثيرة : منها ماهو سياسي اقتصادي كتفاوت امكانيات الدول وتباين حاجاتها ومواردها ، ومنها ماهو نفسي اجتماعي كازدياد وعي الشعوب واشتداد رغبتها في اقتباس مالدى غيرها من معلومات وافكار . ولكنني اريد ان اقول فيها قولاً واحداً . وهو ان التعاون الناشىء عن الاسباب النفسية والاجتماعية ، أعمق اثراً في حياة الشعوب من التعاون الناشىء عن الاسباب السياسية. ومع ذلك فان لكل من هذه الاسباب محاسنه ومساوئه ، لأن الاسباب السياسية والاقتصادية على وجاهتها قد تدفع الدول القوية الى اتخاذ التعاون وسيلة لبسط نفوذها على الدول الضعيفة ، ولان الاسباب النفسية والاجتماعية اذا خلت من التنظيم والتخطيط ادت الى كثير من الاضطراب والفوضى . فلا بد اذن ، في اجتناب نواقص الاسباب النفسية والاجتماعية ، من تدخل الدولة في تنظيم التعاون . ولابد كذلك ، في اجتناب مآسي الاسباب السياسية والاقتصادية ، من تقييدها بشرط عام وهو ان تكون الدول المتعاقدة متساوية في السيادة والحرية والكرامة حتى لايطغى بعضها على بعض وحتى لايؤدي شعور الدول الضعيفة بحاجتها الى التعاون الى ارتمائها في احضان الدول القوية .

ان للتعاون الثقافي القائم على عقد المعاهدات ثلاث صور : الاولى عامة ، والثانية اقليمية ، والثالثة خاصة . اما العامة فهي اشتراك جميع دول العالم في ميثاق واحد كميثاق منظمة الامم المتحدة وميثاق اليونسكو ، واما الاقليمية فهي اشتراك دول احد الاقاليم الثقافية في ميثاق واحد كميثاق جامعة الدول العربية أو ميثاق دول امريكا اللاتينية ، واما الخاصة فهي اتفاق دولتين من اقليم واحد او من اقليمين مختلفين على عقد معاهدة بينهما . واذا كان العالم كله يتجه اليوم الى عقـد هذه المعاهدات ، فرد ذلك الى رغبة الدول الحديثة في التعاون الثقافي ، حتى لقد بلغ عدد المعاهدات والاتفاقات الثقافية التي عقدت بعد الحربين العالميتين الاخيرتين اكثر من اربعة آلاف ، مع ان عددها قبل ذلك كان اقل من القليل .

واول معاهدة ثقافية عقدت بين الدول العربية ، هي المعاهدة التي أقرها مجلس جامعة الدول العربية في دورته الاولى سنة ١٩٤٥ . وتعتبر هذه المعاهدة في نظرنا اولى المحاولات لبناء العلاقات الثقافية بين الدول العربية على اساس ارادي معقول ، لانها لم تقتصر على تشجيع تبادل الاساتذة والطلاب وتشجيع الرحلات الثقافية والكشفية والرياضية وتبادل المؤلفات والفهارس والقطع الاثرية واقامة المعارض الدورية للفنون الادبية وعقد المؤتمرات الثقافية والعلمية والتربوية والتعاون على احياء التراث العربي والمحافظة عليه وترجمة امهات الكتب القديمة والحديثة الى اللغة العربية ، بل اضافت الى ذلك احكاماً متعلقة بالتوحيد الثقافي كتوحيد المصطلحات العلمية وتحديد القدر المشترك بين مناهج التعليم واتخاذ الوسائل لتقريب الاتجاهات التشريعية وتوحيد ما يمكن توحيده من قوانينها .

واذا كان الرأي العام العربي قد استقبل هذه المعاهدة الثقافية بالكثير من الحماسة ، فرد ذلك الى ان للشعوب العربية لغة واحدة وثقافة واحدة وتاريخاً واحداً ومصيراً واحداً ومشكلات عقلية متشابهة لا تختلف بعضها عن بعض الا بالظروف السياسية التي باعدت بين نظمها التربوية واتجاهاتها الثقافية . وليس يعنينا الآن ان تصادف ارادة التوحيد التي اشتملت عليها هذه المعاهدة بعض الصعوبات في طريقها ، فان لذلك اسباباً سياسية ادى اليها تزاحم الدول الاستعمارية على الاحتفاظ بنفوذها الثقافي في الاقطار العربية . وربما كان من محاسن هذه الصعوبات تأثيرها في تفتح الوعي القومي ، وفي ازدياد ايمان العرب بوحدة مصيرهم وبضرورة تقربهم بعضهم من بعض في خططهم التربوية واتجاهاتهم الثقافية .

لقد كان الميل الى تحقيق الاتصال الثقافي هدف الشعوب العربية في جميع مراحل

تطورها . والدليل على ذلك ان الشامي كان ينتقل في الماضي من الشام الى بلاد الاندلس فلا يجد نفسه غريباً فيها ، وكان المغربي ينتقل من فاس الى تونس ومن تونس الى مصر فيجلس للتدريس في مساجدها ومدارسها كانه في وطنه الاصلي . ولم يكن هناك فرق بين بغداد ودمشق ، ولا بين دمشق والقاهرة ، بل كان ابناء البلاد العربية جميعهم اخوة لاتفاضل بينهم الا بما يقدمونه بين يدي ربهم من حسنات وزاد في تقوية وشائج القربى اتصال البلاد العربية بعضها ببعض وارتحال الناس من بلد عربي الى آخر في طلب الرزق او طلب العلم ، فالشافعي مثلاً ولد بغزة ثم انتقل منها الى مكة ثم الى بغداد ومصر ، والغزالي الذي ولد بطوس اشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية ببغداد ثم ارتحل الى بلاد كثيرة منها دمشق وبيت المقدس والقاهرة والاسكندرية ومكة والمدينة ، وابن خلدون الذي ولد في تونس وتنقل في بلاد المغرب والأندلس ثم انتقل الى مصر ثم حج الى مكة وجاء الى دمشق يوم حاصرها تيمور . ماذا اذكر لكم عن ارتحال العلماء والشعراء والفقهاء والفلاسفة وتنقلهم في الاقطار العربية المختلفة ؟ أظن ان ماقدمته من الامثلة القليلة كاف للدلالة على ان وحدة العقيدة ووحدة اللغة والثقافة ووحدة المنازع والمشاعر جعلت رجال الفكر في الماضي يجدون في كل بلد عربي يفدون عليه رزقا وامنا وطمأنينة تصون كرامتهم وتمكنهم من متابعة انتاجهم . وسواء أكان ارتحالهم من اوطانهم الاصلية ارتحالا ارادياً طلبا للعلم او الرزق، أم ارتحالا قسرياً هرباً من الظلم، فان البلد الذي كانوا ينتقلون اليه لم يكن يعدهم دخلاء عليه . ولم يؤثر خضوع البلاد العربية لسيطرة الاستعمار التركي او الاوروبي في اضعاف العلاقات الثقافية بين شعوبها ، بل ظلت هذه العلاقات الثقافية قائمة بينها على اساس شعبي لا على اساس حكومي . ولو اصبحت الاقطار العربية بعد زوال الاستعمار عنها دولة واحدة لما احتاجت الى عقد المعاهدات بينها ، ان المرء لايتعاقد مع نفسه الا اذا كان ذلك التعاقد نتيجة التزام اخلاقي يوجب عليه ان يجعل سلوكه العملي متفقا مع مبادئه . اما في المجال السياسي فان استقلال الدول بعضها عن بعض يوجب عليها بناء تعاونها على اساس التعاقد . فالسبب في عقد المعاهدات الثقافية بين الدول العربية يرجع اذن الى امرين : احدهما انقسام الاقطار العربية الى دول مختلفة ، والثاني رغبة الشعوب العربية في قلب علاقاتها الثقافية الطبيعية الى علاقات ارادية منظمة .

واعود الآن الى الكلام عن المعاهدة الثقافية وعلى ماتلاها من اتفاقات ومواثيق ،

فأقول : ان تنظيم التعاون الثقافي بين الدول العربية قد لقي في طريقه كثيراً من العوائق بالرغم من التقدم الذي احرزه . ويكفي ان يقارن المرء بين توصيات المؤتمر الثقافي العربي الاول المنعقد في بيت مري بلبنان سنة ١٩٤٧ ، وتوصيات المؤتمرات الثقافية التي انعقدت بعده ، ليطلع على ان فكرة التعاون قد تكاملت بالتدريج حتى اصبحت احسن دلالة على منازع الامة العربية واكثر وفاء بحاجاتها . فالمؤتمر الثقافي الاول اقتصر على تحديد القدر المشترك بين مناهج التربية الوطنية والتاريخ والجغرافية واللغة العربيـــة . والمؤتمر الثقافي العربي الثـــاني أوصى زيادة على ذلك بتوحيد مدة الدراسة في التعليم الابتدائي وباتخاذ جميع الاسباب لتوحيد مدة الدراسة في التعليم الثانوي وتقريب مناهجه بعضها من بعض ، والعمل على طبع الثقافة العربية الحديثة بالطابع القومي . والاتفاق الثقافي الذي عقدته مصر وسورية والاردن سنة ١٩٥٧ اوجب التعاون على ارساء دعائم العلاقات الثقافية بين الدول العربية على اساس التكامل والتكافل ، كما اوجب العمل على تبادل المعلومات وثمرات البحوث ، وعلى تبادل الاساتذة وقبول الطلبة في المدارس والمعاهد والجامعات ، وعلى عقد المؤتمرات والحلقات الدورية والتدريبية ، وعلى تنسيق الوان النشاط الرياضي والفني ، وعلى تحقيق الاتصال بين الهيئات والمجالس المختصة بهذه الشؤون حكومية كانت او غير حكومية . ومن مزايا هذا الاتفاق اهتمامه بتوحيد مراحل التعليم واعتباره التعليم الفني دعامة اساسية في النهضة الاقتصادية والانتاج القومي ، ودعوته الى انشاء اتحاد عام للمعلمين . وهو اول اتفاق ثقافي استعمل اصطلاح الامة العربية والوحدة العربية والقومية العربية بدلا من اصطلاح الدول العربية والشعوب العربية . ولا يضير هذا الاتفاق انه اتسم بطابع السرعة وانه اشتمل على امور لم تستكمل دراستها دراسة علمية كافية ، غير ان الروح العامة التي احاطت بظروفه كانت كفيلة بأن تعمل على تطويره وتكامله مادام التحرر من التقليد والاتباع نبراسه وغايته وما دامت المبادىء المثاليـــة دافعة ومحركة له . ونعني بالمبادىء المثاليـــة تلك التي املت على المتعاقدين تصور التعاون الثقافي على صعيد عربي عام ، لا على صعيد محلي خاص ، اعتقادا منهم ان العالم العربي وحدة ثقافية لا تتجزأ وان الاصلاح التربوي في جزء منه لا يبلغ غايتـــه الا اذا امتد الى الاجزاء الاخرى .

ولا اتكلم الآن عن المؤتمرات الثقافية التي انعقدت بعد اتفاق الوحدة الثقافية ، من المؤتمر الثقافي العربي الثالث المنعقد في بغداد سنة ١٩٥٧ الى المؤتمر الثقافي العربي السابع المنعقد في القاهرة سنة ١٩٦٧ ، ولا على ما انعقد بين هذين المؤتمرين من مؤتمرات وحلقات

تربوية وادبية وعلمية وحقوقيةوفنية ،فإنجميع هذه المؤتمرات والحلقات تشرب من نبع واحد وتهدف الى غاية واحدة وهي توكيد وحدة الثقافة العربية ووحدة البلاد العربية ووحدة المبادىء القومية .

وربما كان المؤتمر الثاني الذي عقده وزراء التربية والتعليم في بغداد سنة ١٩٦٤ اكثر المؤتمراتالعربية ،دلالة على الدعوة الى تقوية روح الالفة والتضامن وتوحيد الكلمة بين الاقطار العربية فقد وضع هذا المؤتمر ميثاقاً جديداً للوحدة الثقافية حدد فيه اهداف التربية العربية واوجب على الدول العربية التعاون تعاوناً كاملاً في ميادين التربية والعلم والثقافة ، والعمل على تحقيق هذا التعاونبتبادل الخبرات والمعلومات وثمرات البحوث العلمية وتبادل الاساتذة والخبراء وتبادل قبول الطلاب في المدارس والمعاهد والجامعات ومنح المساعدات الفنية والمشاركة في انشاء معاهد البحوث وتيسير انتقال المطبوعات العربية هذا الى جانب العمل على بلوغ مستويات علمية متماثلة وتوحيد اسس المناهجوخطط الدراسة والكتب المدرسية ومستوى الامتحانات وتعادل الشهادات واساليب اعداد المعلمين وتنسيق التعليم الجامعي والعالي وتحقيق الزامية التعليم في مرحلته الابتدائية على الأقل ، ومحو الامية وتيسير التعليم الثانوي وتنويعه والعناية بالتعليم الفني على أن يتم ذلك وفقاً لمخطط عام يهدف الى التنمية الاجتماعية والاقتصادية .

ولست أستطيع الآن أن ألخص كل ما جاء في هذا الميثاق من قرارات ايجابية ولكنني أرى من واجبي على كل حال ان اشير الى أن هذا الميثاق لم يترك مشكلة من مشكلات التعاون الا أشار اليها ، كضرورة النهوض بتعليم البنات والعناية بالاذاعة والتلفزيون والتمثيل والصحافة وانشاء المتاحف واقامة المعارض والمهرجانات للتعريف بالاحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي . ولعل اعظم احكام هذا الميثاق خطورة في نظرنا دعوته الى التعاون على احياء التراث العربي والمحافظة عليه ونشره وترجمة روائعهالىاللغات الحية والى التعريف بالثقافة العربية الحديثة وبشؤون الفكر العربي المعاصر والى نشر اللغة العربية والخط العربي في البلاد الاجنبية والى ترجمة الكتب الاجنبية القديمة والحديثة الى اللغة العربية والى تنشيط الانتاج الفكري بمختلف الوسائل كانشاء معاهد البحث العلمي والادبي وتنظيم مسابقات التأليف ووقف الجوائز على المتفوقين من اهل العلم والادب والفن. والى جانب ذلك مواد اخرى تتعلق بتوحيد المصطلحات العلمية وانشاء مجلس موحد للمجامع اللغوية وانشاء مجلس أعلى للتعليم الجامعي مع توثيق الصلات بين دور الكتب

والمتاحف وتبادل الخبرات الثقافية الخاصة بالموسيقى والمسرح والسينما والفنون الشعبية والصحافة ووسائل الاعلام وحماية الملكية الادبية والفنية واصدار قانون لايداع المطبوعات وتسجيلها وانشاء منظمة عربية للتربية والعلم والثقافة على نمط منظمة اليونسكو يكون هدفها تقوية الوحدة الفكرية بين اجزاء الوطن العربي .

على أن كلامي على التعاون الثقافي العربي لايكون تاماً الا اذا اضفت اليه اشارة سريعة الى اسهام اليونسكو فيه ، فقد عقدت اليونسكو في البلاد العربيـــة عدة مؤتمرات تربوية منها مؤتمر التعليم الالزامي المنعقد في القـــاهرة سنة ١٩٥٤ ومؤتمر ممثلي وزراء التربية والتعليم المنعقد في بيروت سنة ١٩٦٠ ومؤتمر مكافحة الامية المنعقد في الاسكندرية سنة ١٩٦٤ ومؤتمر وزراء التربية والتعليم والوزراء المسؤولين عن التخطيط الاقتصادي في الدول العربية المنعقد في طرابلس الغرب بليبيا سنة ١٩٦٦ . ويعد هذا المؤتمر الاخير في نظرنا أم المؤتمرات التي عقدتها اليونسكو في البلاد العربية لأنه اوصى بتوكيد الروابط الثقافية بين البلاد العربية وبضرورة تعاونها على تطوير انظمتها التربوية وتخطيطها وفقاً لأهدافها العامة . من هذه الاهداف حفظ التراث القومي والروحي والعمل على تحقيق النماء الاجتماعي والاقتصادي وتربية جيل عربي جديد متكامل النماء بروحه وعقله وجسمه ووجدانه وتزويده بروح النضال الايجابي لتأدية دوره في التحرر والوحدة والاسهام في تقدم الحضارة الانسانية وحفظ السلام العام. وليس بين هذه الاهداف والاهداف التي رسمتها المؤتمرات الثقافية العربية السابقة كبير اختلاف الا ماجاء فيها من اشارة واضحة الى وجوب ربط التخطيط التربوي بالتخطيط الاقتصادي العام . وليس مركز التدريب على تنمية المجتمع الذي أنشأته اليونسكو في سرس الليان بمصر ومركز التدريب على التخطيط التربوي الذي انشأته في بيروت بالاتفاق مع الحكومة اللبنانية ، سوى ظاهرة من ظواهر التعاون بينها وبين البلاد العربية .

هذه بعض ظواهر التعاون العربي في المجال التربوي والثقافي فما هي النتائج العملية التي نجمت عنه ؟ لابد في الاجابة عن هذا السؤال من التمهيد له بملاحظة اولى وهي ان أحكام المعاهدات والاتفاقات وتوصيات المؤتمرات والحلقات لاتحدث تغيراً في المجتمع الا اذا اقترنت بالتنفيذ الدقيق ، وأي نفع يرجى من توصيات جميلة تتخذ في المؤتمرات اذا كان المندوبون الذين وافقوا عليها لايستطيعون تنفيذها في بلدانهم ؟ لقد حدد المؤتمر الثقافي العربي الاول قدرا مشتركا في مناهج التربية الوطنية واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا ،

ولكن هذا القدر المشترك لم يتحقق حتى الآن في كثير من البلدان العربية بالرغم من مرور عشرين عاماً على اقراره . وأوصى المؤتمر الثقافي العربي الثاني بضرورة العمل على تحقيق الوحدة اللغوية في المجتمع العربي حتى تكون الفصحى لغة التعليم والحياة . وها قد مر الآن على هذه التوصية خمسة عشر عاماً وهي لاتزال حلماً جميلاً غير مقرون بالتنفيذ في كثير من المدارس والمعاهد والجامعات . ولا اتكلم الآن على التوصيات المتعلقة بتوحيد السلم التعليمي وتوحيد اسس المناهج وخطط الدراسة وتوحيد مستوى الشهادات وقواعد القبول في المدارس وتنسيق التعليم الجامعي وتحقيق الالزامية ومكافحة الامية وتوحيد المصطلحات العلمية وانشاء المجمع العلمي الموحد وتيسير انتقال المطبوعات العربيـــة والنهوض بتعليم البنات والعناية بتوسيع التعليم المهني والفني وربط التخطيط التربوي والنهوض بالتخطيط الاقتصادي العام ، فان معظم هذه التوصيات لم تنفذ حتى الآن تنفيذاً كاملاً لاصطدامها بكثير من العوائق السياسية والاجتماعية والفنية والاقتصادية .

أما العوائق السياسية فهي في نظرنا قسمان : احدهما خارجي ناشيء عن سيطرة النفوذ الاجنبي على بعض الاقطار العربية ، والثاني داخلي ناشيء عن فقدان الاستقرار وكثرة تبدل الحكومات . مثال ذلك أن بعض الاقطار العربية ، التي كانت خاضعة لسيطرة النفوذ الفرنسي او لسيطرة النفوذ البريطاني ، لم تستطع حتى الآن ان تتخلص من رواسبه . وكذلك سرعة تبدل الحكومات في بعض الاقطـــار العربية فهي كثيراً ماتؤخر تنفيذ قرارات التعاون الثقافي . ومع ان هذا التعاون لم يسلم في بعض نواحيه من الاخلال بمبدأ الاحترام المتبادل لسيادة كل قطر ومصالحه . ان من شرط التعاون الثقافي ان يبنى على حرية الاختيار وان تعتبر الاقطار المشتركة فيه وحدات سياسية متساوية ، فاذا ادعى قطر عربي لنفسه الحق في فرض ارادته على غيره عمل من حيث لايدري على اثارة المشكلات واقامة العقبات في طريق التعاون . إن تقدم احد الأقطار العربية على غيره في المجال الثقافي لايسوغ له الاخلال بمبدأ المساواة عند عقد المعاهدات. مثال ذلك : إذا اتفق قطران عربيان على تبادل المدرسين وجب ان يكون هذا التبادل مبنياً على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات. وليس المقصود بهذه المساواة ان يكون عدد المدرسين الذين يستقدمهم القطر الاول مساوياً لعدد الذين يستقدمهم القطر الثاني ، وانما المقصود بمعاملة هؤلاء المدرسين معاملة واحدة بحيث يقوم كل منهم في القطر المضيف بما يقوم به مدرسوه الاصليون من اعمال تربوية . ومن العوائق السياسية ايضاً ان انقسام الدول العربية الى كتل متعارضة جعل بعضها يقيم السدود في طريق التبادل الثقافي ، كالقيود التي تفرضها بعض الدول العربية على انتقال الكتب والصحف والمجلات والافلام السينمائية او على تبادل الرحلات والزيارات

وتبادل الوثائق والمعلومات والمشروعات . والسبب في فرض هذه القيود يرجع الى تناقض مصالح الحكام لا الى تناقض مصالح الشعوب. ولو استقرأنا الرأي العام في كل قطر عربي، لتبين لنا انه يستنكر هذه القيود ويتمنى زوالها .ولا ينجي الدول العربية ان يزعم لها الزاعمون انها مضطرة الى فرض هذه القيود لاسباب تتعلق بأمنها الداخلي او الخارجي ، فان السياسة التي يجب على الدول العربية ان تتبعها في المجال الثقافي تدعوها الى تعبئة طاقاتها المشتركة تعبئة عامة في سبيل الصالح العام . وهذا كله لايتحقق الا اذا استطاعت كل دولة عربية ان تبدل مابنفسها وان تبادل شقيقاتها بكل مالديها من كتب وصحف وافلام وتحف فنية ، لأن اقامة السدود في طريق الانتاج الثقافي يجعل انتشاره مقصوراً على القطر الذي ظهر فيه وهذا من شأنه ان يؤدي الى طبع الحركة الادبية بطابع الجمود والركود .

وأما العوائق الاجتماعية فترجع الى ان تسلط الاستعمار على الوطن العربي خلال حقبة طويلة من الزمان ،ولد في بناء الاجتماعية شيئاً من التفكك حتى صارت مجموعات السكان الموجودة فيه قليلة الشعور بالتماسك الاجتماعي والاتجاه القومي . والدليل على ذلك ان في بعض الاقطار العربية هيئات طائفية او عرقية او اقليمية او اقطاعية تقاوم ماتوافق عليه دولة ذلك القطر من قرارات التعاون الثقافي او التوحيد الثقافي، وكثيراً ماتؤدي هذه المقاومة الى تغيير هذه القرارات او تأجيل تنفيذها . دع ان في كل قطر عربي ثلاث طوائف من الرجال : الاولى طائفة المحافظين الذين يريدون المحافظة على التراث الثقافي دون اي تبديل او تغيير ،والثانية طائفة المجددين الذين يريدون أن يقلبوا لهذا التراث ظهر المجن ، والثالثة طائفة المعتدلين الذين يريدون ان يجمعوا بين الماضي والحاضر في وزن واحد من الاتساق . ومع ان وجود مثل هؤلاء الرجال لايمنع من وجود قاسم مشترك بينهم ،فان كل طائفة منهم تفسر قرارات التعاون الثقافي على شاكلتها وتحاول ان تجر النار الى قرصها . لاشك ان التلكؤ عن تنفيذ بعض قرارات التعاون يرجع الى اتصافها بالتجريد ، الى فقدان الملاءمة بينها وبين الاحوال الواقعية والظروف المحلية. فلا غرو اذا لقيت حكومات بعض الاقطار العربية مقاومة في طريق تنفيذها . وكثيراً ماتؤدي شدة الحرص على اجتنــاب المشكلات المحلية الى الوقوع في مشكلات جديدة اكبر من الاولى .

واما العوائق النفسية فترجع في نظرنا الى ان بين المثل الاعلى الذي نتصوره والواقع الذي نعيش فيه تبايناً كبيراً . اذا اوفــدنا الى بعض المؤتمرات الثقافية وكانت السلطات المعطاة لنا مطلقة ذهبنا في قضايا التوحيد الثقافي الى ابعد مما يتطلبه الواقع،

تدفعنا المنازع التي تختلج في صدورنا والآمال التي تخامر قلوبنا الى مجاوزة الواقع الموضوعي في معالجة القضايا الثقافية المشتركة . وهذا التباين بين الخيال والحقيقة يوقعنا في كثير من المآسي لاننا نقرر في لقاآتنا العربية توحيد كل شيء ، كتوحيد النظام التعليمي وتوحيد الكتب والمناهج وتوحيد الشهادات وتوحيد انظمة الامتحانات وتوحيد التشريع التربوي ، حتى اذا عدنا الى بلداننا اصطدمنا بكثير من العوائق . لا شك ان العقل العربي ينزع الى التوحيد ، والمشرك في الشؤون العربية عنده كالمشرك في الله ، ولكن تحقيق الوحدة على الوجه الاكمل يحتاج الى الهبوط من عالم الماهيات المجردة الى عالم الحقائق الوجودية ومن الحكم على الاشياء حكماً ذاتياً الى الحكم عليها حكماً موضوعياً . ان الرجل الذي يعتقد انه يستطيع ان يفصل الشؤون الثقافية على ابعاد احلامه الذاتية كالرجل الذي يعتقد أنه يستطيع السيطرة على الطبيعة دون خضوعه لقوانينها . قد يقال ان الروح الثورية توجب علينا تعجيل حركة التطور ، وان الذي يضيع وقته في دراسة الواقع يفقد الحماسة التي تدفعه الى مجاوزته . وهذا في نظرنا مصادرة على المطلوب ، لأن الذي يبني التعاون الثقافي على اساس غير موضوعي يخفق في بلوغ غايته ، ومتى اخفق في بلوغ هذه الغاية وقع في صراع مرير مع نفسه وندم على ما فات من اهمال شروط الواقع . وعكس ذلك صحيح ايضاً ، وهو ان ضعف الايمان وقلة الوعي والحرص على التمسك بالأوضاع القائمة والعادات والتقاليد المستقرة والخوف من التغيير والتبديل كل ذلك يضيق الاحلام . فليس يصح اذن ان نعلق احلامنا في الفضاء دون تركيز جذورها في الواقع ، ولا ان ننغمس في الواقع الاليم دون العمل على اصلاحه ، وانما ينبغي لنا ان نبني قواعد عملنا على ما نأخذه من احلامنا ومن امكانات واقعنا وسبيل ذلك كله نشر الوعي الثقافي والتفكير العلمي والموضوعي في كل قطر عربي حتى يشعر ابناؤه بان المنافع الآجلة التي تعود عليهم من التعاون المنظم اعظم من المنافع العاجلة التي تعود عليهم من تفردهم بالامر دون غيرهم .

واما العوائق الاقتصادية فترجع الى تفاوت الاقطار العربية في قدرتها على ايجاد المال . ان الاقطار الغنية تستطيع ان تنفق الكثير من المال على نشر التعليم وتشجيع الانتاج الادبي والعلمي والفني واستقدام الاساتــذة والخبراء واستقبال الزائرين وعقد المؤتمرات والحلقات واقامة المعارض واحياء التراث العربي ، على حين ان الاقطار الفقيرة لا تستطيع ذلك الا في حدود ضيقة جداً . والى جانب هذا التفاوت الاقتصادي والمالي تفاوت في القدرة التقنية وتفاوت في توافر الطاقات العاملة والمؤهلة . ولا سبيل الى

اجتناب مساوىء هذا التفاوت الا إذا افرغ كل قطر جهده في مساعدة غيره على تلافي ما لديه من نقص ، فا ظنك اذا كانت بعض المشروعات الثقافية الكبيرة تحتاج الى اشتراك عدة دول عربية في انشائها ، فليس يصح اذن ان تنفرد كل دولة عربية بانشاء جميع ما تحتاج اليه من المشروعات . إن تعاون الدول المنتجة للنفط على انشاء معهد كبير للنفط افضل من انشاء معهد صغير في كل دولة على حدة . وإذا ظل تبادل المساعدات المالية والفنية مقصوراً على عدد محدود من الدول المتعاقدة لم يبلغ التعاون الثقافي غايته . فلا بد اذن من تعميم هذا التعاون ، ولا بد في تعميمه من انشاء صندوق مالي مشترك تتألف وارداته من اسهام كل دولة عربية فيه بنسبة مئوية من ميزانيتها العامة على أن يكون له مجلس اعلى مشترك يتولى تخطيط اعماله وفقاً لحاجات كل قطر .

هذه باختصار بعض عوائق التعاون الثقافي ، ذكرتها هنا على سبيل الاشارة لا على سبيل الابانة . وارى من واجبي في نهاية كلامي على هذه العوائق ان اشير الى بعض الوسائل التي يمكن اتخاذها للتغلب عليها . من هذه الوسائل ما اشرت اليه آنفاً عند كلامي على العوائق السياسية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية ، كضرورة تحقيق الاستقرار السياسي ووجوب المحافظة على احترام سيادة كل قطر وضرورة رفع القيود عن تبادل المطبوعات والوثائق والمعلومات وضرورة تبادل الرحلات والزيارات ، هذا الى جانب دراسة الاحوال الاجتماعية والنفسية الخاصة بكل قطر عربي والعمل على تقوية الانسجام والتماسك بين الشعوب والتقيد بالتفكير الموضوعي في معالجة القضايا الثقافية والجمع بين المثل الاعلى والواقع في السلوك الفردي والاجتماعي واتخاذ التدابير الضرورية لمعالجة التفاوت المالي والتقني .

والى جانب هذه الوسائل وسائل اخرى تتضمن انشاء بعض الاجهزة العربيـــة ، كانشاء هيئة ثقافية عربية دائمة يكون هدفها تقوية الوحدة الفكرية بين اجزاء الوطن العربي ورفع المستوى الثقافي فيه ، على ان يكون لهذه الهيئة شعب محلية في كل قطر ملحقة بوزارة الثقافة او بوزارة التربية . وليس المهم ان تكون هذه الهيئة على غرار منظمة اليونسكو اوغيرها وانما المهم ان تؤمن الدول العربية بان إنشاءها ضروري لتنسيق الاعمال وتوحيد الاتجاهات ورسم الخطط الموحدة لعالم عربي متجدد . وإذا بدا لبعض الناس ان انشاء هيئة عربية دائمة للثقافة ليس سوى حلم جميل وان جماله الرائع كاف للدلالة على بعده عن الحقيقة ، قلنا ان كثيراً من الحقائق لم تكن في البدء الا احلاما . واي حلم هو اقرب الى الحقيقة من تصور هيئة ثقافية عربية لعالم عربي مؤتلف يشعر جميع افراده بوحدة منازعهم ويدركون وحدة مصيرهم . وفرق بين ان تكون الهيئة الثقافية الدائمة

مؤلفة من دول مختلفة اللغات مختلفة الثقافات وبين أن تكون مؤلفة من دول موحدة الثقافة واللغة كما هي الحال في الدول العربية . ولست استطيع الآن ان افصل القول في نظام هذه الهيئة ، فقد تشتمل على دائرة للتربية ، ودائرة للعلوم الاجتماعية والانسانية ، ودائرة للعلوم الرياضية والطبيعية ، ودائرة للفلسفة ، ودائرة للفنون ، ودائرة للعلاقات الثقافية ووسائل الاعلام . وقد يكون الى جانبها اجهزة اخرى مستقلة عنها ، كالمجمع اللغوي الموحد ، ومجلس اتحاد الجامعات العربية ، ومجلس الاتحاد العلمي ، ومجلس الآثار العربية ، ومجلس الصندوق المالي المشترك ، ومجالس اتحادات المعلمين والاطباء والمحامين والمهندسين ، ومجالس اتحادات الطلاب واتحادات رجال الادب والفن والرياضة . المهم في ذلك كله ان تكون الدول العربية ملزمة بتنفيذ القرارات الصادرة عن هيئة الثقافة الدائمة واذا قيل ان في الزامية هذه القرارات اعتداء على سيادة الدول العربية ، قلنا اننا نفرق هنا بين الالزام والالتزام ، ونعني بالالزام الايجاب الخارجي او القسري ، وبالالتزام الايجاب الداخلي او الارادي . فاذا اوجبت الدولة على نفسها التزام قرارات هيئة لم تنتسب اليها الا بمحض ارادتها لم يكن في ذلك اعتداء على سيادتها ، فاظنك اذا كان التعاون العربي يوجب استبدال معنى السيادة الاضافية بمعنى السيادة المطلقة . دع ان من طبيعة القرارات الثقافية الصحيحة ان تكون مبنية على احترام الثقافة الشعبية ومراعاة الاحوال الخاصة بكل قطر وان تكون وسيلة لتحسين العلاقات السياسية بين الدول العربية . ان من وظيفة الثقافة ان تصلح ما تفسده السياسة ، وان تكون هي نفسها سياسة عقلانية او سياسة انسانية تقوي علاقات الود والمحبة والصداقة والتفاهم المتبادل بين الشعوب العربية وتحسن شروط الحياة الواقعية وتهيء لكل مواطن عربي اسباب الاسهام في الحياة القومية والدولية .

وجماع ذلك كله تكوين انسان عربي جديد يؤمن بنفسه ، ويدرك اهداف الامة العربية الحديثة والمشكلات التي تواجهها ، ويفكر تفكيراً علمياً ومنطقياً ، ويعمل على توكيد حقه في الحرية وفي المساواة السياسية والاجتماعيـــة ، ويشعر بضرورة التكامل العربي والتعاون العربي وبضرورة ايثار الصالح العام على المصالح الاقليمية والفردية ، ويعمل على احترام حقوق الآخرين وحرياتهم وعواطفهم ، ويدرك مسؤوليته في تطوير المجتمع العربي وايصاله الى مستوى ارفع وارغد بطريق التربية والعلم والثقافة .

الحرب الشعبية *

شي جيفارا

ترجمة د. يوسف شقر

لقد استخدمت الحرب الشعبية مرات لاتحصى في التاريخ وفي ظروف مختلفة ومن أجل غايات متنوعة. واستخدمت في الآونة الأخيرة في كثير من حروب التحرير الشعبية عندما اختارت طليعة الشعب طريق النضال المسلح غير النظامي ضد عدو يملك قوة عسكرية متفوقة بوضوح فلقد كانت آسيا وأفريقيا وأميركا مسرحاً لهذه الأعمال عندما حاولت الشعوب أن تنتزع السلطة وهي تناضل ضد الاستغلال الاقطاعي وضد الاستعمار الجديد أو القديم. أما في أوروبا فلقد استعملت كمكملة لأعمال الجيوش النظامية.

(*) نشر هذا المقال في أيلول عام ١٩٦٣.

وفي أميركا تم اللجوء الى الحرب الشعبية في مناسبات مختلفة ونستطيع أن نذكر مثال سيزار اوغستوساندينو مناضلا ضد قوى الغزو الأميركي في نيكاراغوا كما نذكر المثال الحديث للحرب الثورية في كوبا . ولهذا فان مشكلات الحرب الشعبية تطرح منذ الآن في أميركا أثناء المناقشات النظرية للأحزاب التقدمية في هذه القارة . ويصبح امكان استخدامها وبخاصة توقيت استخدامها مادة للنقاش في هذه الأحزاب . وهذه الملاحظات تستهدف توضيح أفكارنا عن الحرب الشعبية وعن الوسائل الصحيحة لاستخدامها .

ثلاثة أنصبة رئيسية:

ينبغي أن يكون هذا النوع من النضال قبل كل شيء أسلوباً ، أسلوباً للوصول الى غاية . ان هذه الغاية الضرورية والحتمية بالنسبة لأي ثوري انما هي الاستيلاء على السلطة السياسية .

وهنا يبرز السؤال التالي : هل أن أسلوب الحرب الشعبية هو الصيغة الوحيدة من أجل الاستيلاء على السلطة في جميع أميركا ؟ أو بمعنى أصح هل سيكون الصيغة المتفوقة؟ أو هل سيكون صيغة اضافية من بين الصيغ المستعملة في النضال ؟ ومن ثم يأتي دور السؤال الآخر التالي : هل نستطيع أن نطبق على أمكنة أخرى من هذه القارة مثال كوبا ؟ وعلينا أن نقول ونحن نسلك سبيل المناقشة أن أولئك الذين يريدون أن يشنوا حرباً شعبية متجاهلين دور الجمهور كما لو أن هذه الحرب نضالان متضادان ، هم عرضة للانتقاد . ونحن من جهتنا نعارض هذا الوضع . فالحرب الشعبية انما هي حرب الشعب أي أنها نضال الجماهير . أما الزعم بأنه يمكن أن تشن الحرب الشعبية دون دعم السكان فهذا يقود الى كارثة محققة .. والمحاربون الشعبيون انما هم الطليعة المقاتلة للشعب وقد وضعوا أنفسهم

في مكان معين لأرض معينة مستعدين لمباشرة عدد من الأعمال الحربية تستهدف غاية استراتيجية وحيدة ممكنة ألا وهي الاستيلاء على السلطة .

ويدعم الحرب الشعبية هذه نضال جماهير الفلاحين والعمال في المنطقة وفي الأراضي التي توجد فيها هذه الحرب . وبدون هذه الشروط لايمكن ان نقبل فكرة الحرب الشعبية .

ونحن نعتبر ، في وضعنا الاميركي ، ان الحرب الأميركية قد قدمت ثلاثة أنصبة رئيسية الى ميكانيكية الحركات الثورية في أميركا .

١ ــ ان القوى الشعبية تستطيع أن تربح حرباً ضد الجيش .

٢ ــ لاينبغي ان ننتظر أن تجتمع جميع الشروط على الدوام لكي نقوم بالثورة . فالنواة الثورية يمكن أن تخلق هذه الشروط .

٣ ــ ينبغي أن يكون الريف في الأصل أرض المعركة المسلحة في أميركا المتخلفة .

تلك هي الأنصبة اللازمة لنمو النضال الثوري في اميركا : ويمكن أن تطبق على أي بلد في قارتنا تقوم فيه حرب شعبية .

ضرورة أن تكون القيادة للحركة العمالية :

ان البيان الثاني لهافانا ينص على ما يلي :

« في بلادنا تتعايش صناعة متخلفة ونظام زراعي ذي صفة اقطاعية ، ولهذا ورغم قساوة ظروف العمال في المدن فان سكان الريف يحيون في ظروف أشد شناعة من حيث الاستغلال والاضطهاد . ولكن هذا القطاع يؤلف أيضاً ، عدا بعض الاستثناءات ، الأكثرية التي تتجاوز أحياناً ٧٠ ٪ من سكان اميركا اللاتينية .

فلو تركنا جانباً ملاك الاراضي الذين يعيشون أصلا وبشكل يكاد أن يكون دائماً في المدينة فان بقية الكتلة الكبرى من الجماهير تعمل كرعاة في المراعي بأجور رمزية أو تفلح الأرض في ظروف استغلالية لا تختلف عن ظروف القرون الوسطى . وهذه الظروف تجعل سكان الريف في أميركا اللاتينية يؤلفون قوة كامنة ثورية رهيبة .

ان الجيوش المنظمة والمجهزة للحرب التقليدية التي تستند اليهـا سلطة الطبقات المستغلة تصبح عاجزة عجزاً تاماً عندما يتوجب عليها أن تجابه نضالاً غير منظم للفلاحين في جوهم الطبيعي . فهذه الجيوش تفقد عشرة رجال مقابل كل مناضل ثوري يسقط ، وانهيار المعنويات يطغى على هذه الجيوش التي عليها أن تقاتل ضد عدو خفي لايقهر ولايعطيها فرصة استعمال أساليبها التعبوية المدرسية ولا أبواقها الحربية التي تنفعها في قمع العمال والطلاب في المدن .

ان النضال الأولي لنواة المقاتلين يتغذى باستمرار بقوى جديدة ، وتبدأ حركة الجماهير في العمل وتحطم النظام القديم وعندئذ تقرر الطبقة العاملة وجماهير المدن النضال .

ما الذي يجعل من نواة المقاتلين هذه حتى في بداية النضـال قوة لاتقهر بغض النظر عن العدد والسلطة والوسائل التي تتمتع بها ؟ ان قوة هؤلاء المقاتلين تزداد بمعونة الشعب وبمعونة الجماهير .

بيد ان الفلاح جزء من طبقة وهو بسبب من حالة الجهل التي هو فيهـا والعزلة التي يعيش فيها يحتاج الى القيادة الثورية والسياسية للطبقة العاملة والمثقفين الثوريين وبدون هذه القيادة لايستطيع وحيداً أن يخوض المعركة وأن يحرز النصر .

ولاتستطيع البورجوازية الوطنية في الظروف الحالية لأميركا اللاتينية أن تقود النضال ضد الاقطاع وضد الامبريالية . وتدل التجربة على أن هذه الطبقة لدى أممنا حتى ولو كانت مصالحها متناقضة مع مصالح الامبريالية الاميركية لم تكن جديرة بأن تثور ضدها كما أن الخوف من الثورة الاجتماعية قد شلها وأخافها هدير الجماهير المستغلة » .

الثورة محتمة في امريكا :

يعرض بيان الهافانا الثاني في فقرات أخرى وهو يكمل هذه الآراء التي تؤلف جوهر البيان الثوري لأميركا مايلي :

« ان الظروف الذاتية لكل بلد ، أعني عوامل الوعي والتنظيم والقيادة يمكن ان تعجل الثورة او أن توقفها حسب درجة نمو هذا البلد ولكن إن آجلاً أو عاجلاً وفي كل مرحلة تاريخية تنضج فيها الظروف الموضوعية فان الوعي يكتسب والتنظيم يوجد والقيادة تبرز والثورة تندلع .

ولئن تم ذلك بوسائل سلمية أو نجم عن عملية ولادة مؤلمة فهذا لايتعلق بالثوريين وانما يتعلق بالقوى الرجعية للمجتمع القديم وبدرجة مقاومتها للمجتمع الجديد ويتعلق بالتناقضات التي كانت توجد في المجتمع القديم . ان شأن الثورة في التاريخ هو شأن الطبيب الذي يشرف على ولادة حياة جديدة . فهو لا يستخدم الأجهزة القوية الا عند الضرورة ولكنه يستخدمها دون تردد في كل وقت يجد انها ضرورية للمساعدة في عملية الولادة . ان هـــذه الولادة هي التي تجلب الى الجماهير الغارقة في العبودية والاستغلال الأمل في حياة جديدة .

ان الثورة لمحتمة اليوم لدى العديد من بلدان أميركا اللاتينية . وهـــذا الواقع لم تحدده أية ارادة وانما حددته ظروف الاستغلال الرهيبة التي يحياها

انسان أميركا وغو الوعي الثوري لدى الجماهير والأزمة العالمية للأمبريالية والحركة الشاملة لنضال الشعوب التي تعيش تحت نير الاستعمار ».

وسننطلق من هذا الأساس لنحلل مشكلة الحرب الشعبية كلها في اميركا.

لقد بينا أنها كانت أسلوب نضال للوصول الى غاية. اما مايهم فهو تحليل هذه الغاية وان نرى فيما اذا كان بالامكان، في اميركا، الاستيلاء على السلطة بوسائط أخرى غير وسائط النضال المسلح.

التاريخ لا يسمح بالخطيئة:

ان النضال السلمي يمكن أن تقوده حركات الجماهير المناضلة فيجبر في بعض الحالات الخاصة جداً – الحكومات على التنازل وقد تستولي القوى الشعبية على السلطة وتقيم دكتاتورية الطبقة العاملة. ان هذا لصحيح من الناحية النظرية. وبتحليلنا للماضي في أميركا نصل الى النتائج التالية:

يوجد، في هذه القارة، ظروف موضوعية تدفع الجماهير الى اعمال عنيفة ضد الحكومات البورجوازية وملاك الأراضي، ويوجد أيضاً أزمات حكم في بلدان أخرى وظروف ذاتية أيضاً. ومن البدهي أنه يصبح من الإجرام في البلدان التي وجدت فيها جميع الظروف أن لا تجري المبادرة لاستلام السلطة. أما في البلدان الاخرى التي لم تقم فيها الظروف الملائمة فمن الطبيعي أن تظهر عدة سبل وأن تثار مناقشات نظرية عن القرارات التي ينبغي تطبيقها على أي من هذه البلدان. والشيء الوحيد الذي لا يقر بـه التاريخ هو أن يتعرض للخداع من يتناولون سياسة البروليتاريا تحليلا أو تنفيذاً. ان أيا كان لا يستطيع أن يعتبر ادعاءه نفسه حزباً طليعياً كشهادة رسمية أعطته اياهـا الجامعة. فأن يكون

الحزب طليعياً يعني أن يكون أمام الطبقة العاملة وفي مقدمتها في نضالها من أجل الاستيلاء على السلطة وأن يعرف قيادتها . تلك هي مهمة أحزابنا الثورية .

تحالف البورجوازية والاقطاعيين :

اننا نرى في اميركا اليوم حالة توازن غير مستقر بين ديكتاتورية الأوليجاركية والضغط الشعبي . نقول اوليجاركية كما نعرف التحالف الرجعي بين البورجوازية وكبار ملاك الأراضي ، هذا التحالف المتسم بسمة اقطاعية . عظمت هذه السمة أو صغرت . وهذه الديكتاتوريات تصل الى السلطة في اطار من الشرعية أعطته هي لنفسها طوال المرحلة التي سيطرت فيها طبقتها ، ولكننا نمر بمرحلة أضحت فيها الضغوط الشعبية قوية جداً ، انها تطرق أبواب الشرعية البورجوازية وتلزمها نتيجة للدفعات المتعاظمة أن تخرق الشرعية هي نفسها كي توقف اندفاعة الجماهير ، ولكن هذه التعديات الجديدة المضادة لكل تشريع وضع سابقاً أو وضع لاحقاً لتبرير الوقائع — هذه التعديات تضع القوى الشعبية في أشد حالات التوتر . وتحاول ديكتاتورية الأوليجاركية أن تستخدم عندئذ الأحكام الشرعية القديمة من أجل تغيير الدستور وخنق البروليتاريا دون أن تكون هذه الصدمة عن طريق المواجهة .

وهنا يحصل التناقض ، فالشعب لا يتحمل أبدا التدابير القسرية القديمة والجديدة التي تضعها الديكتاتورية ويحاول نسفها . ولا ينبغي علينا مطلقاً أن ننسى صفة التحكم والقيد للدولة البورجوازية . لقد قال لينين : « ان الدولة هي حصيلة ومظهر لا يقبل التوفيق للتناقضات القائمة بين الطبقات . والدولة تنبثق مكاناً وزماناً حيث لا يمكن للتناقضات الطبقية أن تتفق بشكل موضوعي ، والعكس

بالعكس فان وجود الدولة يبين أن التناقضات الطبقية غير قابلة للتوفيق[1] ، ونتيجة لذلك فعلينا أن لا نقبل أن تفقد كلمة الديموقراطية ، المستخدمة كمبرر لتمثيل ديكتاتورية الطبقات المستغلة عمق معناها وأن تصبح اسماً يطلق على بعض الحريات المعطاة الى المواطن . فالنضال من أجل الحيلولة دون اقامة نوع من الشرعية البورجوازية دون أن تطرح القضية الثورية الا وهي قضية استلام السلطة الثورية يعني العودة الى نوع من النظام وضعته سلفاً الطبقات المتحكمة .

في دور العنف :

تتخلى الاوليجاركية عن عقودها الخاصة ومظهرها الخاص بالديموقراطية ، في هـذه الظروف من النزاع ، وتهاجم الشعب وهي تحاول دائماً أن تستخدم أساليب النظام الذي أقامته من أجل القمع . وعندئذ وفي هذا الوقت يبدأ طرح هـذه المعضلة ، ما العمل ؟ أما الجواب ففي أن العنف ليس ارثاً للمستغلين ، فباستطاعة الذين هم عرضة للاستغلال أن يستعملوه وأن يستعملوه بشكل أوسع وعليهم أن يستخدموه في وقته الملائم ، لقد كان مارتي يقول :

« ان من يشن حرباً ، يمكن تجنبها ، في بلد ، لهو مجرم ، ولكن من لا يشن حرباً محتمة الوقوع لهو مجرم أيضاً » .

ومن جهة اخرى فان لينين كان يقول : « ان الاشتراكية الديموقراطية لم تنظر أبداً ولا تنظر أبداً الى الحرب من وجهة نظر عاطفية . انها تدين الحرب بشكل مطلق كوسيلة وحشية لحل الخلافات بين الناس ولكنها تعرف أيضاً أن الحروب محتمة الوقوع ما دام المجتمع منقسماً الى طبقات وما دام الانسان يستغل

---

(١) لينين : الدولة والثورة .

الانسان . ولكي ننتهي من هذا الاستغلال ما أن نتجنب حرباً حتى تبدأ دائماً وفي كل مكان الطبقات المسيطرة ذاتها والمضطهدة ذاتها في الظهور » .

كان يقول هذا في العام ١٩٠٥ ، ومن ثم فقد كان يؤكد في « البيان العسكري للثورة البروليتارية» وهو يحلل بعمق وصف نضال الطبقات : « ان من يقبل بنضال الطبقات لايستطيع أن لايقبل بالحروب الأهلية التي تمثل في كل مجتمع طبقي الاستمرار والنمو الطبيعيين وأحياناً المحتمين لنضال الطبقات . فجميع الثورات الكبرى تؤكد ذلك . ونكران الحروب الأهلية أو نسيانها يؤدي الى الوقوع في انتهازية مفرطة والى نفي الثورة الاشتراكية » .

ان ذلك يعني أنه لاينبغي علينا أن نخشى العنف في خلق المجتمعات الجديدة ، ولكن هذا العنف ينبغي أن يبدأ في اللحظة المناسبة وحسب وعندما يجد قادة الشعب أحسن الظروف ملاءمة .

ادراك تحولات علاقة القوى :

ما هي هذه التحولات ؟ انها تتعلق من الناحية الذاتية بعاملين متكاملين يتعمقان خلال النضال وهما الشعور بضرورة التغيير والتأكد من امكانات التغيير الثوري وهما يتلاءمان كل الملاءمة ، اذا ما أضفنا اليها الظروف الموضوعية ، مع نمو نضال من هذا النوع في جميع أميركا ومع الاصرار على تحقيق هذا النضال ومع الأوضاع الجديدة في العالم أثناء العمل .

ومهما تكن البلدان الاشتراكية بعيدة فان تأثيرها الطيب في الشعوب المناضلة أمر بارز الظهور كما أن المثال الذي ضربته سيعطيها قوة كبرى. وبتاريخ ٢٦ تموز كان فيديل كاسترو يقول :

(١) لينين ، الدولة والثورة .

« ان واجب الثوريين ، وفي هذه الآونة بخاصة ، ان يعرفوا كيف يشعرون بتغيرات علاقات القوى و كيف يدركون هذه التغيرات و كيف يدركون أن هذا التغير يسهّل نضال الشعوب . وواجب الثوار ، وثوار أميركا اللاتينية أن لايتوقعوا أن يحدث تغيير تبادل الارتباط معجزة ما وانما أن يفيدوا من هذا التغيير الذي يسهل ظهور الحركة الثورية وأن يصنعوا الثورة .

وثمة من يقول : حسناً نحن على اتفاق بأن الحرب الثورية هي الوسيلة لانتزاع السلطة السياسية في بعض الحالات الخاصة ولكن أين نجد القادة الكبار أمثال فيديل كاسترو كي يقوودنا الى النصر ؟ ان فيديل كاسترو شأنه شأن أي كائن انساني انما هو حصيلة التاريخ . والقادة العسكريون والسياسيون الذين يوجهون النضال الثوري في أميركا اذا ما اتحدوا – لو كان ذلك ممكناً ، في شخص واحد سيتعلمون فن الحرب وهم يقومون بالحرب . وما من وظيفة أو مهنة يمكن أن يتعلمها المرء في الكتب وحسب فالنضال في هذه الحالة هو المعلم . وبدهي أن ذلك لن يكون عملا بسيطاً وخالياً من الخطر . ويبدو خطران من اجل مستقبل الثورة أثناء نمو النضال المسلح . اما الأول فيظهر في فترة التحضير والطريقة التي يجري بها حله توضح ماتريد القوى الشعبية أن تحققه من اتخاذ قرار بالنضال ومن وضوح الهدف ، ومن البدهي أنه ينبغي ان يحدث تطور في الدفاع ضد العدو لأنه متفوق في هذا الوقت. فاذا ما توافرت الحدود الدنيا من الظروف الموضوعية والذاتية فينبغي ان يكون الدفاع مسلحاً ولكن بشكل لايتلقى فيه الشعب ضربات العدو تلقياً وحسب ، وان لايكون مقتصراً على عملية الدفاع المسلح يلجأ اليه الأشخاص الملاحقون . ان على الحرب الشعبية ، وهي حركة دفاع الشعب في زمن ما ، ان تصبح حركة هجومية قادرة على مهاجمة العدو. ان هذه القدرة هي التي

ستحدد مع الزمن صفتها كمحرضة للقوى الشعبية . ويمكن القول ان الحرب الشعبية ليست وسيلة سلبية للدفاع عن النفس وانما هي دفاع يرافقه هجوم ، فاذا ماتم تعريفها على هذه الصورة رسمت لها هدفاً نهائياً هو الاستيلاء على السلطة السياسية .

اجبار الديكتاتورية على كشف نواياها :

ان هذه الفترة هامـــة . فالفرق بين العنف واللاعنف في التطورات الاجتماعية لا يمكن ان يقاس في كمية طلقات النار المتبادلة . انه يستجيب الى مواقف ملموسة مرنة . وينبغي أن ندرك الفترة التي ينبغي فيها على القوى الشعبية المقدرة لضعفها النسبي ولكنها الشاعرة في الوقت نفسه بقوتها الستراتيجية ، ان تلزم العدو لاتخاذ الخطوات الضرورية لكيلا يتأزم الموقف . يجب ان نهز توازن الديكتاتورية ـ الأوليجاركية ـ القوة الشعبية ، بعنف . ان الديكتاتورية تسعى دائماً للبقاء في موقعها دون ان تظهر أنها تبالغ في استعمال القوة فاجبارها على كشف نواياها وعلى ظهورها بوجهها الحقيقي كديكتاتورية شرسة تمارسها الطبقات الرجعية يساعد على كشف طبيعتها أمام الشعب ويعمق النضال تعميقاً لا يصبح بالامكان التراجع عنه .

وعلى الطريقة التي تنجز بها القوى الشعبية مهمتها في فضح الديكتاتورية التي تتراجع او تباشر القتال تتعلق البداية الحازمة لعمل مسلح طويل النفس .

اما الفترة الخطيرة الأخرى فهي ان تتمكن القوى الشعبية من النمو نمواً مستمراً . لقد كان ماركس يوصي بأنه ما ان تبدأ المسيرة الثورية حتى يتوجب على البروليتاريا ان تكيل الضربات دون ان تتوقف ابداً وتستريح . ان ثورة ما لاتتعمق باستمرار انما هي ثورة تتراجع . فيشرع المناضلون المتعبون فيها من فقدان ايمانهم في تشجيع المناورات التي عودتنا عليها البورجوازية . ويمكن ان

تقوم هذه المناورات على اعطاء الحكم لسيد صوته ألطف ووجه ملائكي بشكل افضل من ديكتاتور الساعة او لانقلاب عسكري دبرته الرجعية وقادة الجيش والذي قد يوهم انه يستند الى القوى التقدمية. وهنالك عدد كبير من امثلة التكتيك هذه تلجأ اليها البورجوازية.

واننا نلفت الانتباه بشكل اساسي الى الانقلاب العسكري. فماذا يستطيع العسكريون ان يقدموا الى الديموقراطية ؟ اي اخلاص يمكن ان ننتظره من اولئك الذين كانوا على الدوام ادوات سيطرة الطبقات الرجعية والاحتكارات الأمبريالية، من طبقة لاتوجد الا بفضل الأسلحة التي تمتلكها والتي لاتفكر الا بالحفاظ على امتيازاتها ؟

وعندما يتآمر العسكريون ويهزمون الديكتاتور، في ظروف صعبة جداً على الطغاة، فينبغي القول انهم هزموه فعلاً لأنه لم يكن اهلا للحفاظ على امتيازات طبقتهم دون منتهى العنف، الأمر الذي لا يتفق بشكل عام مع مصالح الأوليغارشية.

عدم نسيان الهدف النهائي :

ان هــذا التأكيد لايعني انه لايمكن استخدام العسكريين كمناضلين فرديين منفصلين عن الوسط الاجتماعي الذي عملوا فيه والذين تمردوا ضده. وينبغي ان يتم هذا الاستخدام في اطار رسمته القيادة الثورية التي ينتمون اليها كمناضلين وليس كممثلين لطبقتهم.

وقديماً كتب انجلز في مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه عن « الحرب الأهلية في فرنسا » : « ان العمال يتسلحون بعد كل ثورة »، ولهذا فان تجريد الطبقة العاملة من السلاح كان من اول مطاليب البورجوازيين الذين كانوا يقفون ضد

الدولة . ولهذا كان يبدأ بعد كل ثورة ينتصر بها العمال قتال جديد لم يكن ينتهي الا بهزيمتهم »[1] .

ان سير المعارك المستمرة التي يجري الوصول فيها الى تبديل شكلي والتي يتم فيها التراجع تراجعاً استراتيجياً قد تكرر خلال عشرات السنين في العالم الرأسمالي . ولكن البروليتاريا ، بالاضافة الى ذلك ، ما تزال حتى الآن تتعرض للخداع بشكل مألوف وبصورة دورية .

وانه لمن الخطورة ايضاً أن تختلط على قادة الأحزاب الثورية الاصطلاحات، وقد دفعتهم الرغبة الى الاحتفاظ بعض الوقت ببعض الظروف الملائمة للعمل الثوري عن طريق بعض مظاهر الشرعية البورجوازية، وان ينسوا الأهداف الستراتيجية النهائية الا وهي : الاستيلاء على السلطة .

ان هاتين الفترتين الحرجتين بالنسبة للثورة اللتين حللناهما بشكل موجز يمكن أن نتجنبها اذا كانت الأحزاب الماركسية اللينينية تستطيع أن ترى بوضوح مستلزمات الساعة وأن تعبىء الجماهير التعبئة القصوى لتقودها بواسطة الطريق الصحيح الى حل التناقضات الأساسية .

دور المناطق الريفية :

لقد افترضنا ، ونحن نشرح النظرية ، ان فكرتي النضال المسلح وصيغة الحرب الشعبية كأسلوب للكفاح أضحتا مقبولتين. فلماذا نعتبر أن اسلوب الحرب الشعبية هو الأسلوب الصحيح في الظروف الحالية لامريكا اللاتينية ؟ ان ثمة حججاً أساسية تؤيد من وجهة نظرنا ضرورة قيام الحروب الشعبية في امريكا .

---

(١) ذكرها لينين في كتابه الدولة والثورة .

١ ـ عندما نقر بحقيقة أن العدو سيقاتل من اجل احتفاظه بالسلطة فيجب أن نفكر بالتدمير ، وينبغي أن نعارضه بجيش شعبي . ان هذا الجيش الشعبي لن يولد بشكل عفوي ، عليه أن يؤمن تسليحه من اسلحة عدوه نفسه ، مما يشترط نضالاً قاسياً وطويلاً جداً تتعرض فيه القوى الشعبيه وقادة هذه القوى الى هجوم قوى متفوقة عليها دون أن يكون لديها الحد الأدنى من وسائل الدفاع والمناورة .

وفي المقابلة فان نواة المحاربين الشعبيين ستجد نفسها على اراض ملائمة للقتال الأمر الذي يوفر لهؤلاء المحاربين سلامة القيادة الثورية . وتستطيع قوى المدينة تقودها اركان حرب جيش الشعب أن تحقق اعمالا ذات اهمية كبرى . ولن يميت التخريب الممكن لقوى المدينة هذه روح الثورة ما دامت قيادتها ستظل تتابع اثارة الروح الثورية للجماهير من مكانها الحصين في الريف وستعمد الى تنظيم قوى ثورية اخرى للمعارك الاخرى .

وبالاضافة الى ذلك ففي هذه المناطق الريفية يبدأ تنظيم جهاز الدولة المقبل المكلف بقيادة دبكتاتورية الطبقة بنجاعة طوال فترة الانتقال . وكلما طال أمد القتال ستكون المشكلات الادارية اكبر واكثر تعقيداً ، وفي حل هذه المشكلات ستتدرب الملاكات على العمل الصعب من أجل تمتين السلطة ومن أجل التنمية الاقتصادية في المرحلة المقبلة .

٢ ـ الوضع العام لفلاحي اميركا اللاتينية والصفة التي تزداد تفجراً لنضالهم ضد الأنظمة الاقطاعية وضد التحالف الذي يزداد قوة بين المستغلين المحليين والاجانب .

سيكون النضال نضالا حتى الموت :

لنعد الى بيان الهافانا الثاني إذ جاء فيه :

« لقد تحررت شعوب اميركا من الاستعمار الاسباني في مطلع القرن الماضي ولكنها لم تتحرر من الاستغلال . فلقد قام كبار الملاك بأعباء السلطة بدلا من الحكام الاسبانيين وتابع الهنود الحياة في عبوديتهم القاسية وظل الانسان الاميركي اللاتيني ، عبداً ، بشكل أو بآخر ، واختفت الآمال البسيطة للشعوب تحت نير الاوليجاركية والرأسمال الاجنبي .

« تلك كانت حقيقة اميركا باختلاف مظاهرها واختلاف ألوانها . واميركا اللاتينية تشقى اليوم تحت وطأة امبريالية اشد فظاعة واكثر سطوة وتجربة من الأمبريالية الاسبانية » .

وأمام الحقيقة الموضوعية والقاسية تواجهها ثورة اميركا اللاتينية نتساءل ما هو موقف الأمبريالية؟ انه الاعداد لحرب استعمارية ضد شعوب اميركا اللاتينية وخلق جهاز القمع والذرائع السياسية والوسائل الشرعية المزيفة التي ابتدعت بالاتفاق مع الاوليجاركية الرجعية لقمع نضال الشعوب اللاتينية الاميركية بالدم والنار .

ان هذا الموقف الموضوعي يوضح لنا القوة الخفية التي تكمن في فلاحينا وضرورة تجنيدهم لتحرير اميركا .

٣ ــ الصفة المستمرة للنضال .

هل يمكننا أن نعتبر هذه المرحلة الجديدة لتحرر اميركا كصورة لقوتين محليتين تناضلان من أجل السلطة على ارض معينة ؟ ان الجواب على ذلك لصعب . فسيكون النضال نضالا حتى الموت بين جميع القوى الشعبية وبين جميع قوى الظلم .

الصفة القارية للنضال :

سيتدخل الاميركيون نظراً لتضامن المصالح ولأن النضال في اميركا انما هو نضال حاسم . وفي الواقع أنهم يتدخلون حقاً في تنظيم قوى القمع وفي تنظيم الجهاز القاري للقتال . ولكنهم سيتدخلون منذ الآن فصاعداً بشكل أقوى ، وسيتصدون للقوى الشعبية بجميع أسلحة الدمار التي يملكون ، ولن يتركوا السلطة الثورية تدعم نفسها ، واذا استطاعت هذه السلطة أن تصل الى ذلك فلسوف تهاجمها الامبريالية من جديد ولن تعترف بها وستحاول أن توجد الانقسام في صفوف القوى الثورية بجميع الوسائل ، وستدخل المخربين من شتى النماذج وستخلق مشاكل الحدود وستحرض ضد هذه السلطة دولا رجعية اخرى وستحاول أن تخنقها اقتصادياً . وبكلمة واحدة ستحاول أن تصفيها .

فاذا التفتنا الى المنظر الكامل لاميركا بدت لنا صعوبة انتزاع النصر والصمود في بلد منعزل . فيجب أن نرد على اتحاد قوى العدوان باتحاد القوى الشعبية . وفي جميع البلدان التي يأخذ فيها العدوان شكلا يصعب تحمله ينبغي أن يرتفع علم الثورة ، ويجب أن يكون لهذا العلم ، لأسباب تاريخية ، مميزات قارية . ان سلاسل جبال الآند مدعوة لأن تصبح سيرا مايسترا أميركا كما قال الرفيق فيدل كاسترو وستصبح جميع الاراضي العظيمة الاتساع مسرحا للنضال حتى الموت ضد الحكم الأمبريالي .

لن نستطيع أن نقول متى سيكون للنضال صفاته القارية ولامتى سيبدأ هذا النضال ، ولكننا نستطيع أن نتوقع وجوده وانتصاره لأنه سيكون نتيجة الظروف الاقتصادية والتاريخية والسياسية المحتمة ولايمكن لطريقه أن يعرف الانحراف . والشروع في هذا النضال عندما تحين الظروف الملائمة بغض

النظر عن وضع البلدان الاخرى ، انما هو من حق القوى الثورية لكل بلد . ان نمو النضال هو الذي سيحدد الستراتيجية العامة ، والتنبؤ بالصفة القارية للنضال هو ثمرة من ثمرات تحليل علاقة القوى ولكن ذلك لايمنع وقوع ثورات مستقلة . واذن فكما ان المبادأة في النضال في قطعـــة من البلد ستقوي النضال في جميع البلدان ، فان بداية النضال الثوري ستساعد على تفتح قوى جديدة وشروط جديدة في البلدان المجاورة .

تباشير الحرب الشعبية :

يحصل هـــذا التفتح ، بشكل عام ، عن طريق المد والجزر النسبيين والمتعاكسين ، فبعد المد الثوري يأتي الجزر المضاد الثورة والعكس بالعكس ففي اللحظات التي تخلد فيها الثورة الى السكون تستيقظ الثورة المضادة . وعلى القوات الشعبية في هذه الأوقات ان تلجأ الى افضل وسائل الدفاع لكي تخفف أمراضها . فالعدو قوي الى اقصى حدود القوة وهو متمركز في القارة . ولهذا لانستطيع أن تشرع في تحليل الأمراض النسبية للبورجوازية المحلية من اجل اتخاذ قرارات شاملة . ولايمكن ايضا أن نتصور ان هذه الأوليجاركية المحلية ستتحالف مـع الشعب المسلح . لقد اطلقت الثورة الكوبية اشارة الانذار . وسيكون استقطاب القوى شاملا : المستغلون من جهة ومن هم عرضة للاستغلال من جهة ثانية ، وستنحاز جماهير البورجوازية الصغيرة الى هذه الجهة او تلك حسب مصالحها والمهارة السياسية التي تعامل بها ، أما الحياد فسيكون شذوذا . وهكذا تخلق الحرب الشعبية الثورية .

بأية طريقة يمكن ان تبدأ الحرب الثورية ؟

ينتقي عدد صغير نسبيا من الاشخاص هم نواة في كل مكان عددا من

الأمكنة الملائمة للحرب الشعبية ويشرعون في العمل . ويجب ان ندرك بوضوح تام أن ضعف المقاومة لهو بدرجة ينبغي معها قصر العمل في البداية على التعرف جيدا على الارض وعلى تنظيم العلاقات مع السكان وعلى تقوية الامكنة التي يحتمل أن تنقلب الى نقاط استناد .

يوجد ثلاثة شروط من أجل ان تحيا الحرب الشعبية عندما تبدأ في الظروف التي أشرنا اليها . وهي : الحركة المستمرة واليقظة المستمرة ، والحذر المستمر . ان تكتيك المحارب الشعبي في هذه اللحظات يقوم على ضخامة الهدف الذي يسعى الى تحقيقه وعلى التضحيات العظيمة التي ينبغي أن يقوم بها من اجل احراز النجاح .

ولن تكون هذه التضحيات عبارة عن المعركة اليومية او القتال وجهاً لوجه مع العدو اذ سيكون لهذه التضحيات أدق الأشكال واقساها بالنسبة لجسد المحارب الشعبي ولروحه .

فقد يتعرض لعقاب قاس تنزله به الجيوش المعادية ، وهو منقسم الشخصية ، منعزل عن الآخرين ، ومعذب ، وملاحق كحيوان فى المنطقة التي عليه ان يقاتل فيها مع شعوره بالقلق الدائم من احتمال وجود أعداء تسربوا الى مكان عمله ، انه حذر على الدوام ازاء كل شيء ويخشى أن يسلّم الفلاحون المذعورون الثائرين الى السلطات ، انه يعيش في حالة لاخيار له فيها فاما الموت واما النصر في أوقات يتراءى له وجود الموت ألف مرة بينما يبدو النصر أسطورة لايمكن أن يحلم بها الا الثوري وحده .

تلك هي بطولة الثائرين ، ومن أجل ذلك يقال أن السير هو أسلوب نضالي ايضاً كما ان الهروب من المعركة في لحظة من اللحظات يعتبر اسلوباً نضالياً ايضاً .

امتداد الحرب الشعبية :

في اطار العمل السياسي العسكري الكبير الذي لايمثل فيه الثائرون الشعبيون إلا جزءاً تزداد هذه الثورة رسوخاً وتشكل نقاط استناد لن تكون إلا نقاطاً لايستطيع ان ينفذ اليها العدو إلا بتعرضه الى خسارات جسيمة وهذه النقاط هي قواعد للثورة وملاجىء للثوار يعدون انفسهم فيها اعداداً قوياً ويعاودون السير نحو أعمال متزايدة الجرأة .

وسنعرف عندئذ فيما اذا كنا قد تغلبنا على الصعوبات التكتيكية والسياسية . ان الثائرين لايستطيعون ابداً ان ينسوا وظيفتهم كطليعة للشعب وان ينسوا الوكالة التي فوضهم بها ولهذا ينبغي ان يخلقوا الظروف السياسية الضرورية لاقامة السلطة الثورية المستندة الى دعم الجماهير الكامل . ان المطاليب الكبرى للفلاح يجب ان تلبى كلما كان ذلك ممكناً وهكذا سيكون الشعب جميعه كلاً متماسكاً وحازماً .

فاذا كان الموقف العسكري للحظات الأولى صعباً فسيكون الموقف السياسي اكثر دقة ، ولئن استطاعت خطيئة عسكرية واحدة ان تصفي الثورة فان خطيئة سياسية يمكن ان توقف تقدمها خلال فترة طويلة جداً . فالنضال هو عسكري سياسي معاً ... وهكذا ينبغي ان يطور ومن هنا ينبغي ان يفهم .

تصل الثورة خلال تعاظمها الى لحظة يكون فيها لديها عدد أكبر مما تحتاج اليه من الرجال بالنسبة لامكان عملها في منطقة معينة ، وعندئذ يقفز احد قادة الثورة المختارين الى منطقة اخرى ويشرع في تنظيم ثورة جديدة وخاضعة الى قيادة مركزية مكرراً سلسلة تطور الثورة الاولى .

بناء جيش شعبي :

انه لمن الضروري الآن ان نقول انه لايمكننا أن نصل الى النصر دون تشكيل الجيش الشعبي . وقوى الثورة يمكن أن تمتد ، ويمكن للقوى الشعبية في المدن او في مناطق اخرى سهلة الاجتياز على العدو ان تحدث اضراراً له بيد ان قوة الرجعية العسكرية تظل سليمة . ويجب الا يغرب عن الذهن ابداً ان النتيجة النهائية انما هي تصفية الخصم تصفية كاملة . وللوصول الى هذه الغاية ينبغي على جميع القوى الشعبية : قوى المدن والريف والقوى التي تعمل داخل خطوط العدو ، ان تكون على صلة بالقيادة . ولا نستطيع ان نطلب امراً تسلسلياً مشابهاً الى ذلك الذي يوجد في الجيوش ولكن يجب ان يكون هنالك امر استراتيجي . وعلى الحروب الشعبية ، ضمن بعض الظروف التي تهيأ فيها حرية العمل ، ان تنفذ جميع اوامر القيادة المركزية المتمركزة في احدى هذه المناطق وفي اكثرها امناً واقواها وهي تهيء الظروف لاتحاد جميع القوى في زمن معين .

ان للحرب الشعبية او الحرب التحريرية بشكل عام ثلاث فترات :

الأولى هي الدفاع الستراتيجي وهي الفترة التي تناوش فيها القوة الصغيرة العدو ، فهذه القوة ليست ملتجئة الى دائرة تدافع فيها دفاعاً سلبياً ، فدفاعها بشكل اوضح يقوم على الهجمات المحدودة التي يمكن ان تشنها . وبعد ذلك نصل الى نقطة التوازن حيث تتحقق امكانات العمل بالنسبة للعدو وللثورة في آن واحد . وأخيراً تأتي الفترة النهائية حيث تتجاوز الأحداث فيها العدو وحيث يستطيع جيش التحرير ان يستولي على المدن الكبرى وان يصفي الخصم تصفية كاملة .

وعندما يوجد التوازن بين القوتين تتبادلان الاحترام وتكتسب الحرب الشعبية استناداً الى نموها مزايا جديدة . ويدخل مفهوم المناورة الميدان اذ تقوم

ارتال كبرى بالهجوم على نقاط هامة . ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار قدرة المقاومة والهجوم المضاد للعدو لاتكون حرب المناورة هذه بديلا عن الحرب الشعبية ولكنها طريقة عمل فقط اقوى بقليل من الحروب الشعبية ، ولكنها ينبغي ان تتبلور في النهاية في جيش شعبي كبير له فيالقه .وحتى في هذه الفترة ستستمر الحروب الشعبية بصفتها الرائدة في تصفية جميع وسائل المواصلات والدفاع لدى العدو .

سيكون النضال طويلا ودمويا :

قلنا أن الحرب ستكون قارية . وهذا يعني أيضاً أنها ستكون طويلة جداً ، وستكون هنالك عدة جبهات وستكلف هذه الحرب كثيراً من الدماء وعديداً من الأرواح .

الا أن هذا لا يعني القول أيضاً أن هذا التقسيم بين المستغلين ومن هم عرضة للاستغلال الذي سيوجد في الحروب الثورية لهذه القارة سوف يؤدي عندما تستولي الطلائع المسلحة على الحكم الى أن تصفي هذه الحروب في بلادها الامبرياليين والمستغلين المحليين في وقت واحد . ان عليها أن تبلور المرحلة الاولى للثورة الاشتراكية ، وباستطاعتها أن تشرع في بناء الاشتراكية . هل ترى يوجد ثمة امكانات اخرى ؟

لقد تم منذ زمن طويل تقسيم العالم تقسيما جعل حصة الأسد من قارتنا للولايات المتحدة الاميركية . وفي الوقت الحاضر ينشط من جديد الامبرياليون في القارة القديمة وتخيف السوق المشتركة الولايات المتحدة الاميركية . وهذا قد يحمل على التفكير في أنه لايبقى علينا إلا أن ننتظر اندلاع القتال بين الأمبرياليين أنفسهم لكي نتقدم الى الأمام بعدئذ بمعونة البورجوازيات الوطنية .

ومع علمنا بأن السياسة السلبية لايمكن أن تؤدي أبداً الى نتائج طيبة في نضال الطبقات و كذلك التحالفات مع البورجوازية رغم أن هذه البورجوازية تظهر في وقت من الأوقات بالمظهر الثوري فان اسباباً تتعلق بالتوقيت تلزمنا على اتخاذ موقف آخر . ألا وهي السرعة التي تسير فيها التناقضات الأساسية في اميركا بشكل تعيق فيه النمو « الطبيعي » لتناقضات المعسكر الامبريالي في قتاله من أجل فتح الاسواق أمام منتجاته .

اليقين من النصر:

لقد توحدت البورجوازيات الوطنية في أكثريتها الساحقة مع الامبريالية وعليها ان تلقى المصير ذاته الذي ستلقاه الامبريالية في كل بلد ، إلا إذا حدث على الأقل في بعض الحالات اتفاقات او توافق في التناقضات بين البورجوازية الوطنية وغيرها من الامبرياليات الأخرى من جهة والامبريالية الاميركية من جهة اخرى وهذا لا يمكن ان يحدث إلا في اطار نضال اساسي يضم خلال سير نموه جميع من هم عرضة للاستغلال ومن يستغلونهم . ان تجمع القوى المضادة من خصوم الطبقة الكادحة من اجل اقتسام الغنائم أقوى في الوقت الحاضر من نمو التناقضات بين المستغلين . وثمة معسكران يزداد الخيار بينهما وضوحاً لكل فرد ولكل طبقة من طبقات المجتمع .

ان التحالف من أجل مايدعى بالتقدم هو محاولة لكبح جماح مالا يستطاع كبح جماحه من الحركات الشعبية .

ولكن اذا كان تفوق السوق الاوروبية المشتركة أو أية مجموعة امبريالية اخرى على الاسواق الاميركية أسرع من نمو التناقضات الاساسية فلا يبقى مفر من ادخـــال القوى الشعبية في الثغرة المفتوحة ، هذه القوى التي تقود النضال

وتستخدم الدخلاء الجدد مع شعورها الواضح بما يبيتون من نوايا . ولا ينبغي علينا أن نعطي أبداً أي سلاح ولا أي وضع ولا أي سر الى العدو الطبقي والا أضعنا كل شيء .

اننا لنتساءل هل تفجر النضال الاميركي فعلاً ؟ هل ان تباشيره هي مانراه في فنزويلا وفي غواتيمالا وفي كولومبيا وفي بيرو وفي الأكواتور ؟ أو أنها ليست سوى مناوشات وتظاهرات عن قلق لم يعط ثماره بعد ؟ ان نتيجة النضال ليست بذات اهمية في الوقت الحاضر . وليس هاماً ان تهزم هذه الحركة او تلك من الحركات الراهنة انما المهم بشكل قاطع هو قرار النضال الذي ينضج يوماً بعد يوم ، هو الشعور بضرورة التغيير الثوري ، هو الثقة بامكاناته .

ان ذلك لتنبؤ نتنبأ به مع يقيننا بأن التاريخ سيكون الى جانبنا . ويؤكد لنا تحليل العوامل الموضوعية والذاتية لأميركا والعالم الأمبريالي صواب هذه الملاحظات المستندة الى بيان الهافانا الثاني .

النظام المصرفي

في ظل الاقتصاد الاشتراكي *

د. هشام متولي

تعتبر مؤسسات التسليف في النظام الاشتراكي مظهراً من مظاهر سلطة الدولة في قطاع معين مرتبط عضوياً مع القطاعات الاقتصادية الاخرى . فالدولة لاتكتفي بممارسة الرقابة على هذه المؤسسات اذن كما هو الحال في ظل النظام الرأسمالي ، بل تضع لها مجموعة القواعد والانظمة التي تشكل جزءاً لايتجزأ من النظام الاشتراكي ، ويجري تدخل الدولة على اساس مبدأ التسلسل الاداري لجهازها .

اما فيما يتعلق بعمليات التسليف ، فانها تراقب عملياً وتوزع حجومها من قبل الدولة وفقاً للخطة الاقتصادية الشاملة التي يضعها مجلس التخطيط الاعلى .

(*) لن نتعرض للحديث عن الصين الشعبية . كذلك لن نتعرض للتطورات الاخيرة للتنظيم المصرفي في يوغسلافيا ، وهي في جوهرها لاتخرج عن مضمون هذه الصفحات.

فالصلة العضوية بين العمليات المصرفية من جهة ، والخطة الاقتصادية الشاملة والميزانية من جهة ثانيه ، تجعل دور المؤسسات المصرفية في ظل الاقتصادالاشتراكي دوراً خاصاً مختلفاً ، من حيث التنظيم واسلوب التوجيه ، مما هو عليه في الاقتصاد الرأسمالي . ويخضع التسليف الممنوح لخطة دقيقة، ولكن هناك حريةاكبر فى منح الاعتمادات القصيرة الاجل من قبل مصرف الدولة . ويتم تمويل المشاريع التثميرية مباشرة من قبل الدولة والمؤسسات العامة التابعة لها ، وذلك عن طريق الميزانية والوفورات التي تحققها المشاريع.

ولدى الحديث عن الاقتصاد الاشتراكي لابد من تذكر اهم قوانينه . فلكية وسائل الانتاج تعود للدولة ، بمعنى انه لامكان للمصارف الخاصة ، والخطة الاقتصادية الشاملة هي الاداة الرئيسية ، بمعنى ان كافة اجهزة الدولة تعمل ضمن اطارها .

ورغم الاخذ بقانون (العمل اساس القيمة) الذي يؤدي في النهايةفي ظل الشيوعية التامة الى زوال النقد ، فان النقد في المرحلة الاشتراكية الحاضرة مازال يقوم بدور مهم وحساس ، حيث انه يشكل احدى الادوات الرئيسية والضرورية للتنسيق الاقتصادي . فرغم ان وضع الخطة يقوم على اساس تحديد كميات وحجوم الانتاج ، ورغم ان التنفيذ لايستوجب نظرياً توفر الرموز النقدية ، الا ان التجربة اثبتت ان الحاجة للنقد مازالت قائمة لانه اداة مبادلة طليقة ، واداة مبادلة وتقويم بين الوحدات الاقتصادية ومع الافراد حيث يشكل رغم كل شيء قوة شرائية . فتنسيق الخطة على اساس مادي فقط لايكفي اذن بحكم الواقع الاقتصادي ، اذ لابد من وجود علاقة ترابطيةبين حجم السلع والخدمات الواردة في خطة الانتاج ومقدار التدفقات النقدية المحدد مقدارها تبعاً لخطة الانتاج والاستهلاك . اما اذا لم توجد هذه العلاقة الترابطية ، فان خيط التناسق يضطرب،ويخشى حدوث خلل في سير الآلة الاقتصادية . ورغم انه من الناحيـــة النظرية يمكن القول ان القطاع العام يكون عادة اكثر تحكماً في تحقيق العلاقة الترابطية ، الا ان البلدان التي اخذت بهذا النظام تعرضت للتضخم الذي اتخذ مظاهر معينة اختلفت نسبياً عن مظاهره في الاقتصاد الرأسمالي .

وعلى هذا فان اي خلل تتعرض له هذه العلاقة الترابطية حتى ولو كان ضئيلا ، يؤدي بالضرورة الى حدوث التضخم النقدي او تراكم السلع ، اي الى تغير سعر القوة الشرائية للوحدة النقدية ، الامر الذي ينعكس مباشرة على حجم المخزون والانتاج،وبالتالي على الانتاجية ومن ثم الدخل القومي ومستوى المعيشة .

هدفت البلدان التي تبنت النظام الاشتراكي الى تحقيق معدل مرتفع وسريع في التنمية الاقتصادية عن طريق اتباع سياسة تصنيع تهدف الى تطوير الصناعة الثقيلة بصورة اسرع من تطوير الصناعات الاستهلاكية ، الامر الذي انعكس على الانفاق ، والذي صاحبته ظاهرة التضخم النقدي ، كما هو معروف في التاريخ الاقتصادي لهذه البلدان . ولكن مصلحة الاقتصاد القومي تكمن اساساً في التنسيق المتوازن بين حجم انتاج السلع والخدمات ومقدار التدفقات النقدية ، ذلك لأنه بدون هذا التنسيق المتوازن يكاد يكون من المستحيل الاعتماد على حسابات اقتصادية عقلانية .

ان البلدان الرأسمالية تحل هذه المشكلة عن طريق آلية السوق والسياسة الاقتصادية التي تؤثر على هذه الآلية . اما الاقتصاد الاشتراكي فيحلها بشكل رئيسي عن طريق التخطيط الشامل الذي يتضمن وضع اهداف متوازنة للتدفقات النقدية والتدفقات السلعية . لذلك لابد من ان تتوفر في هذا الاقتصاد الاجهزة المالية والنقدية القادرة على وضع الخطة المالية بشكل متناسق مع الأهداف المادية للخطة ، والا تعرض سير تنفيذ الخطة للخلل ، وتعرض الاقتصاد ككل الى الاضطراب .

وما دامت هناك خطة انتاجية دقيقة ، فلابد من ان يقابلها مقدار مقابل من التدفقات النقدية من اجل تحقيق التنسيق المتوازن بين معدل التنمية ومعدل الاستهلاك . وهذا يعني بالضرورة مراعاة الامرين التاليين :

١ – ان يكون هناك توازن تام بين حجم الانفاق وحجم الانتاج .

٢ – ان يكون هناك توازن تام بين النقد المتداول وحجم السلع الاستهلاكية المعروضة .

يناط الاقتصاد الاشتراكي هذه الوظائف الهامة بثلاث زمر من المؤسسات المالية :

١ – بالمصرف المركزي الذي يضع خطة التسليف ويتحكم بالتدفقات النقدية ويراقب سير استخدام الانفاق العام والخاص بشكل مستمر .

٢ – بميزانية الدولة واجهزة الادخار التي تمتص جزءاً من القوة الشرائية من القطاع الاستهلاكي وتحولها نحو تمويل المشاريع التثميرية والاستهلاك العام .

٣ – بالمصارف المختصة التي تعتبر الادوات التنفيذية للخطة ، والتي يعتبر نشاطها كمؤسسات مالية انعكاساً تاماً لسياسة المصرف المركزي المتحكم الاول بالتدفقات النقدية .

سنتعرض فيما يلي من كلام الى الحديث عن مركز المصرف المركزي ومن ثم المصارف المتخصصة في الاتحاد السوفييتي اولا ، ثم في الديمقراطيات الشعبية بشكل عام . ولكننا لن نتعرض للحديث عن الميزانية العامة .

اولا — التنظيم المصرفي والتسليفي في الاتحاد السوفييتي :

تم تنظيم الجهاز المصرفي في الاتحـاد السوفييتي بغاية المساهمة في ادارة الاقتصاد القومي على اعتبار ان الجهاز المصرفي يعتبر أداة رئيسية من ادوات التخطيط الاقتصادي ووضع الخطة والسياسة الاقتصادية موضع التطبيق . وهذا الجهاز يحاول تنفيذ اغراض الخطة التي قد تتشابه مع بعض الاغراض الرئيسية في النظام الرأسمالي كمحاربة التضخم مثلا ، ولكنه يحقق هذه الاهداف بوسائل وطرق مختلفة . وعلى كل حال فان تنظيم هيكل الجهاز المصرفي السوفييتي ووضع قواعد خاصة لسير عمله مستلهمة من مبدأ مركزية التوجيه والاشراف المباشر للدولة ، قد استجابا ولبيا الغايات التي وضع التنظيم من اجلها ورتبت القواعد لتحقيقهـا . فالنظام المصرفي في الاتحاد السوفييتي تطور خلال الثانية والاربعين سنة الماضية وفقاً للتبدلات الاقتصادية الـتي تعرض لها البلد .

آ — المؤسسات المصرفية في الاتحاد السوفييتي :

وتتألف من مصرف الدولة الذي هو مصرف مركزي ، ومن ثلاثة مصارف متخصصة تأتي في الاهمية بعد مصرف الدولة ، لانها عبارة عن وسيلة لتنفيذ الخطة الاقتصادية التي يشترك مصرف الدولة في وضعها ، ولانها بدورها تتبع بصورة غير مباشرة سياسة التسليف التي يضعها .

١ — مصرف الدولة Gosbank : وهو المؤسسة المصرفيـة الرئيسيـة . انه عبارة عن مؤسسة عامة ، رأسماله محدد ومدفوع من قبل الدولة التي تعين جهازه الاداري . ونظرا للاهمية التي يحتلها في الاقتصاد القومي ، فان رئيسه (الحاكم) يعتبر عضوا في مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي . ويرتبط مصرف الدولة هذا مباشرة بمجلس الوزراء ، اي انه يخضع لتوجيهاته . ومصرف الدولة عبارة عن ادارة مركزية مكانهـا موسكو وله فروع في الجمهوريات الخمس عشرة للاتحاد السوفييتي ، كذلك له فروع في مراكز المناطق تبلغ ١٥٠ مركزاً ، كما ان له فروعا محلية يبلغ عددها ٦٨٠٠ . ويبلغ عدد الموظفين والمستخدمين فيه مايقرب من ٢٠٠ الف شخص ، غالبيتهم من النساء . وكان مصرف الدولة هذا قد تشكل بموجب مرسوم صادر في الثاني عشر من تشرين الاول عام ١٩٢١ ، وحددت السلطة اهدافه بأن عليه « اعطاء الارجحية لتطوير الصناعة ، والزراعة ، والتجارة . كذلك مركزة التدفقات النقدية والاخذ بالتدابير الضرورية بغية التوصل الى وضع من التداول النقدي الطبيعي » . وفي عام ١٩٢٧ اتخذت السلطات

المسؤولة في الاتحاد السوفييتي قرارا يحدد مبادىء واهداف نظام التسليف : فبغية تقوية وتمتين الادارة المخططة لهذا النظام ، يكلف مصرف الدولة تمويل المصارف ، ومراقبة استعمال الاعتمادات بحيث توزع جميع الاموال الموجودة في المصارف على مختلف قطاعات الاقتصاد القومي تبعا لسياسة التسليف المرسومة من قبل الحزب والدولة ، وتجميع ومركزة كافة الامكانيات المالية لبقية المصارف لديه ، كذلك تتجمع في حساباته موارد ميزانية الدولة وصناديق الادخار والتأمينات .

وورد في دستور عام ١٩٣٦ أن مصرف الدولة يؤلف جزءاً من وزارة المالية ، ولكنه « يحضر » ممثلا بشخص حاكمه او مديره ، جلسات مجلس الوزراء . وفصل في عام ١٩٣٨ عن وزارة المالية واصبح ادارة خاصة مستقلة مسؤولة مباشرة امام مجلس الوزراء . ولكن لم يأت عام ١٩٤٧ حتى أعيد ربط مصرف الدولة بوزارة المالية بالاضافة الى الغاء امكانية حضور جلسات مجلس الوزراء . على انه عاد ليؤلف ادارة مستقلة في عام ١٩٥٤ ، فتم فصله عن وزارة المالية ، واعتبر حاكمه بمنصب وزير في في مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي . وتجدر الاشارة الى ان هذه التغييرات لم تؤثر الا من حيث الشكل على مصرف الدولة ، ولم تؤثر مطلقا على قيامه برسم السياسة التسليفية ضمن اطار الخطة .

وهو عبارة عن مصرف دولة بالمعنى المعروف لهذه الكلمة بالنسبة للمصرف المركزي في ظل النظام الرأسمالي ، اذ انه مؤسسة اصدار العملة وعميل الدولة المالي . يدير شؤون الدين العــام بصفته محتكر إصدار القروض ، وهو مصرف توزيع الاعتمادات لآجال قصيرة وطويلة ، ومصرف لتمويل الاقتصاد القومي ، وهو مركز لاجراء التسويات النقدية داخل الاقتصاد القومي ومع الخارج . وهو المسؤول الاول والاخير عن ثبات قيمة العملة وعن تجنب اخطار التضخم بحيث يتوجب عليه ان يؤمن دوما التوازن بين عرض العملة والطلب عليها . وبالاضافة على ذلك يراقب تنفيذ الخطة كما سنرى .

من المعروف في ظل النظام الرأسمالي ان السياسة النقدية للبلد اذا كانت تدار من قبل المصرف المركزي ، فان هذا المصرف لايعمل وحيدا في تسيير الحياة النقدية ، بل هناك المصارف التجارية التي تلعب دورا هاما . اما في الاتحاد السوفييتي ، فان المصرف التجاري الوحيد فيه هو مصرف الدولة ذاته . انه هو الذي يؤمن توزيع الاعتمادات للآجال القصيرة . وبذلك يكون المسؤول الوحيد عن سير العمليات النقدية في البلد .

وبالاضافة الى ان مصرف الدولة يحتكر الاعتمادات قصيرة الاجل ، فانه ايضاً يمنح الاعتمادات طويلة الاجل بصورة مباشرة لتمويل الاستثمارات طويلة الاجل في قطاع الزراعة الجماعية . اما التمويل طويل الاجل لبقيــة القطاعات الاقتصادية فيتم عن طريق منح تقدم من قبل الموازنة بشكل غير مباشر عن طريق مصرف الدولة فصرف التثمير .

وتجدر الاشارة هنا الى ان التنظيمات الاقتصادية الاخيرة في البلدان الاشتراكية اقتضت الانتقال من تمويل الاستثمارات طويلة الاجل على أساس المنح الى اتباع اساس التمويل بشكل قروض . ولكن لاتزال نسبة التمويل بهذا الشكل الاخير ضئيلة .

هذا ، ويمكن حصر اهم وظائف مصرف الدولة بالنقاط التالية :

١ – ينظم بصفته مصرف الاصدار التداول النقدي على صعيد الاقتصاد القومي و « يمتص » الاموال الفائضة سواء اكانت موجودة لدى الدولة او التعاونيــات أو المشاريع الاخرى ام الافراد .

٢ – يقوم بتوزيع الاعتمادات او التسليف للآجال القصيرة التي تنحصر فيه ، ويمنح الاعتمادات طويلة الاجل عن طريق مصرف التثمير ، كما يقوم بمهمة التسويات بين مختلف المشاريع .

٣ – يقوم بتمويل الاستثمارات الرأسمالية في مشاريع الدولة في القطاع الزراعي .

٤ – يقوم بالتسويات الخارجية ؛ كما ان نشاطه يتدخل لمنح الاعتمادات للتجارة الخارجية ولعمليات الذهب والقطع الاجنبي ، وبالتعاون مع مصرف التجارة الخارجية .

٥ – يشجع وينشط مصرف الدولة الانتاج الزراعي والصناعي بالتسهيلات الائتمانية التي يمنحها ، كما انه يؤمن التوسع التجاري .

٦ – يسام في العمل على زيادة الدخل الحقيقي للمجتمع .

٧ – يراقب مصرف الدولة التوسع في الخطط والاتفاقات المالية وكيفية تنفيذها .

٨ – يعمل على تثبيت وتقوية سعر الروبل .

٩ – ينظم المصرف خطط التداول النقدي كما يوافق عليها مجلس الوزراء ، ويحفظ لديه الموارد المالية للدولة المتحصلة من المشاريع والمؤسسات ، كما انه ينظم المدفوعات المتوجبة على ميزانية الدولة .

١٠ – للمصرف ان يطلب معلومات احصائية من المشاريع والمؤسسات بغية

تنظيم خطط التسليف والتداول النقدي وضمان استمرار المشاريع والمؤسسات في عملها من الناحية المالية بصورة سليمة .

١١ – اعتبارا من اول عام ١٩٦٣ اصبح يراقب « مصارف الادخار » .

١٢ – انه يؤمن تطبيق القاعدة المعروفة بـ «مراقبة الاقتصاد عن طريق الروبل» .

هذا ، ويعمد مصرف الدولة الى التقليل ما امكن من السيولة لدى المشاريع والمؤسسات باتخاذ التدابير اللازمة لذلك . وهكذا يتوجب على المشاريع والمؤسسات ان تودع اموالها لدى مصرف الدولة في حسابات تأخذ عليها فائدة ، كما سنعود الى الاشارة الى ذلك . وعلى هذا لا يمكن لهذه المشاريع ان تتلقى اعتمادات او قروضاً من مشاريع اخرى، أو ان تمنحها بالمقابل اعتمادات . وتبعاً لذلك يتوجب على كل مشروع او مؤسسة ان يدفع دوريا مبلغا مخصصاً للاهتلاكات ، يحسب على اساس الكلفة الاصلية لرأس المال وذلك لصندوق الاهتلاكات المتشكل لاسم وزارة الاقتصاد التي يعود لها امر مراقبة هذا المشروع . كذلك يدفع المشروع شهريا الضرائب على الارباح . وفي الحال الذي يقدر فيه مصرف الدولة ان الموجودات السائلة لمشروع ما تزيد عن حاجاته ، تتخذ الاجراءات اللازمة لتحويل الفائض الى وزارة المالية .

يؤمن مصرف الدولة القروض اللازمة للصناعات والاستثمارات ضمن اطار خطة التسليف ، وذلك لغايات محددة ولفترة معينة : ثلاثة اشهر ، وسنرى انه يمكن لمصرف الدولة ان يمنح اعتمادات غير واردة في خطة التسليف لاسباب طارئـــة - إذا كان ذلك يساعد المشروع الاستثماري على تنفيذ خطة الانتاج المرسومة له - اوان يتجاوزها . الاعتمادات ولكن على المصرف المذكور ان يعمد ، قبل منح مثل هذا الاعتماد الاخير ، الى تقدير فيما اذا كان طلب الاعتماد متناسقاً مع اهـــداف الخطة والانتاج . كذلك يجب عليه ان يعرف اذا كان طلب الاعتماد ناتجاً عن تراكم البضائع المصنوعة وتخزينها ، أي عدم تسويقها ، أم عن تقاعس المشروع عن القيام بالاعمال اللازمة لاستمرار سير عمليات الانتاج . وفي هذه الحالة يطلب مصرف الدولة تصحيح الاخطاء قبل الموافقة على منح هذا النوع من الاعتمادات .

والى جانب رقابة وزارة المراقبة على تنفيذ الخطة - وهي تكاد تكون ام الوزارات في الاتحاد السوفييتي - فان لمصرف الدولة حق الرقابة على المشاريع والمؤسسات مقابل الاعتمادات التي يمنحها . لذا يحق له ان يمنع سحب الاموال السائلة من قبل مشروع ما ، او تحويل الاموال من حساب لآخر ، اذا لم تكن العمليات موضوع هذه الاموال قد تحققت تبعاً للحجوم والاسعار التي تحددها الخطة . وما دامت الاموال

السائلة تتجمع لديه ، فانه يمنع المشاريع والمؤسسات من دفع مقدار من الاجور يزيد عن الحد الوارد في الخطة .

فنفقات المشروع تكون محددة في الخطة اذن، ويتم الانفاق عن طريق تحريك الحساب الموجود لدى مصرف الدولة ، وبذلك لا يمكن للمشاريع أن تسوي حساباتها فيما بينها نقداً .

لخص الاقتصادي السوفييتي (بلوتنيكوف Plotnikov) وظيفة ودور المصرف المركزي في ظل النظام الاشتراكي بقوله : «ان مصرف الدولة يمنح اعتمادات حددت الخطة مقاديرها واهداف انفاقها . فاذا ما تجاوزت الخطة اهدافها لدى التنفيذ ، فانه يتوجب على المصرف ان يمنح اعتمادات اضافية لتلبية الحاجات الناشئة عن هذا التجاوز . اما اذا لم تتحقق اهداف الخطة ، فيتوجب على المصرف ان يقلص من اعتماداته . وهكذا فان مصرف الدولة يعتبر الطرف الذي يحدد حجم التسليف من جهة ، وكيفية توزيع واستخدام هذه الاعتمادات على الاهداف المعينة والمحددة في الخطة . وعلى هذا فان المصرف المركزي في ظل الاقتصاد الاشتراكي لا يسمح باعادة توزيع الموارد المادية والنقدية بين مشاريع مؤسسات الدولة أو داخل هذه المشاريع والمؤسسات ، اذا لم تكن مخططة » .

٢ ــ مصرف التثمير Stroybank : وهو المصرف الذي يقوم بتمويل المشاريع التثميرية ، اي انه بتعبير آخر ، مصرف التسليف القومي في الاتحاد السوفييتي . ان منحه للاعتمادات يقتصر على القروض او التسليف متوسط وطويل الاجل بغيـة تمويل المشاريع التثميرية التي تقوم بها المؤسسات الصناعية ومؤسسات النقل والمؤسسات التجارية . ويمنح أيضاً قروضاً لآجال طويلة للمؤسسات التي تقوم بعمليات البناء بشكل عام وبناء منازل السكن في المناطق الصناعية .

ويضم هذا المصرف اعتباراً من عام ١٩٦٠ اربعة مصارف متخصصة في الصناعة والتجارة والزراعة والبناء .

ومصرف التثمير هذا عبارة عن مؤسسة عامة . رأسماله من الدولة ، ويغذى سنويا من قبل الميزانية او من موارد اخرى طويلة الاجل توضع تحت تصرفه من قبل مصرف الدولة تبعاً لتوجيهات الدولة لهذا المصرف الاخير بهذا الشأن .

٣ ــ مصرف التجارة الخارجية : كان مصرف التجارة الخارجية دائرة من دوائر مصرف الدولة حتى عام ١٩٦١ . وهو مختص في تسوية المعاملات مع الخارج وتمويلها ومركزه موسكو وليس له فروع خارجها ، وتمسك حساباته خارج موسكو فروع

مصرف الدولة . رأسماله من الدولة ولكن على شكل شركة مساهمة : فيشترك في ملكيته، مصرف الدولة ووزارة المالية وبعض المؤسسات العامة والجمعيات التعاونية . وهو يعمل بالتعاون مع مصرف الدولة .

٤ – صناديق الادخار : ان هذا النوع من (المصارف) يختص بجمع الودائع من الافراد . ويتزايد دور صناديق الادخار في الاتحاد السوفييتي حيث ادخار الافراد امر مسموح به ، بل ان التساهل بشأنه يتزايد .

وكانت قد أحدثت بمرسوم في السادس والعشرين من شهر كانون الاول عام ١٩٢٢ . وبلغ عدد هذه الصناديق ٣٢٠٩٧ في اوائل عام ١٩٤٧ ، كما ان مجموع الودائع المودعة فيها تجاوز مقدار ٤٨ مليار من الروبلات في آخر عام ١٩٥٤ .

ب – كيفية سير عمليات النظام المصرفي السوفييتي :

من الواضح أن هيكل النظام المصرفي السوفييتي هو على غاية من البساطة من حيث تركيبه . والغاية من هذا النظام تحقيق هدفين : تجميع الجاهزية النقدية من جهة ، وتلبية حاجات تمويل الاقتصاد القومي من جهة ثانية .

١ – تجميع الجاهزية النقدية : انها « صناديق الادخار » التي تجمع الودائع من الافراد ، سواء أكانت تحت الطلب أم لأمد ، وتدفع صناديق الادخار هذه فائدة قدرها ٢٪ للودائع تحت الطلب و ٣٪ للودائع لأجل . وبالاضافة الى ذلك يمكن للأفراد فتح حسابات لدى مصرف الدولة ، شريطة أن يزيد مقدار الوديعة على ثلاثة آلاف روبل .

هذا فيما يتعلق بالافراد ، أما بالنسبة للمؤسسات والمشاريع فان الامر على غاية من البساطة : اذ لايحق لها أن تحتفظ في صناديقها بنقد سائل (عملات معدنية ، أوراق نقدية) باستثناء ما هو محدد ومخصص لها سنوياً في الخطة ، وذلك من اجل تسديد النفقات الجارية وخاصة دفع الاجور . أما الأموال التي تشكل الجاهزية النقدية للمؤسسات والمشاريع فتودع بصورة اجبارية في حسابات لدى مصرف الدولة . وتودع الأموال المتأتية عن طريق الاستثمار العادي والتي تشكل الاموال الدائرة للمشروع او المؤسسة لدى مصرف الدولة ، في حين أن الأرباح ، مهما كان مصدرها ، تودع لدى مصرف التثمير .

وبذلك فان تميز الموارد يعتمد على نوع الاعتمادات وكيفية استخدامها . فالجاهزية النقدية اليومية (أي ما يقابل السوق النقدية) يعاد استخدامها في منح الاعتمادات لأمد

قصير ، في حين أن المدخرات تستخدم في التمويل طويل الأجل للمشاريع التثميرية .

ان توزيع الاعتمادات بحسب آجالها ، اي قصيرة الاجل وطويلة الأجل ، يشكل حجر زاوية في تنظيم الجهاز المصرفي في الاتحاد السوفييتي .

٢ – توزيع الاعتمادات : يجري توزيع الاعتمادات في الاتحاد السوفييتي على ثلاثة مجالات :

آ – يقوم مصرف الدولة بتمويل الاستثمارات للمشاريع والمؤسسات بواسطة الجاهزية النقدية التي يجمعها او تعود لصناديقه ، وبمساهمة الاصدار النقدي الذي يلجأ اليه لجعل حجم الكتلة النقديةمتوافقاً وملبيا للحاجات الاجالية للاقتصاد القومي من الاموال الدائرة أو العاملة .

ب – يتحقق تمويل المشاريع التثميرية بطريقين : ففيما يتعلق خاصة باحداث المشاريع والمؤسسات وتوسيعها ، يعتمد التمويل على مخصصات من ميزانية الدولة ، وبالتالي من الادخار المقتطع عن طريق الضرائب . ومن ثم ، يعتمد التمويل على تراكم الارباح ، متضمنة « أموال الاهتلاك » المتشكلة لدى المشاريع والمودعة لدى مصرف التثمير ، وعلى اقتطاعات ثالثة تقوم بها تعاونيات الاستثمارات الزراعية وتودع لدى مصرف الدولة . وليس من الضروري اعادة تثمير هذه الأموال المتراكمة في المؤسسات والمشاريع او في الاستثمارات الزراعية التي جمعتها ، بل ان المصارف تستخدمها او توزعها على شكل اعتمادات طويلة الاجل قابلة للوفاء تبعاً للتعليمات الواردة في الخطة .

ج – يمكن للمواطنين السوفييت بدورهم الحصول على اعتمادات لاشباع حاجاتهم من اجل الشراء بالتقسيط أو لبناء المساكن . وكان نظام البيع بالتقسيط قد ادخل الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٩ . أما التسليف العقاري فيكون لأمد طويل ولمصلحة الأفراد الراغبين ببناء مساكن خاصة في المناطق الريفية . ومصرف الدولة هو المؤسسة المصرفية التي يعود اليها امر هذا النوع من توزيع الاعتمادات .

ج – المبادىء الناظمة للتنظيم المصرفي ومنح الاعتمادات :

الاقتصاد السوفييتي اقتصاد مخطط تخطيطاً شاملا . فهل هو بصفته هذه بحاجة

النقد وجهاز مصرفي ، وهل هو بحاجة لنظام في التسليف او منح الاعتمادات ، على الطريقة الرأسمالية تقريباً (١) ؟

ويجيب الاقتصاديون ، وخاصة السوفييت منهم ، ان الاقتصاد السوفييتي المعتمد كلياً على مبدأ التخطيط الاقتصادي المركزي ما زال بحاجة لنظام مصرفي فعال ، وكمية من النقود تقابل حجم السلع ، ولمقدار من الاعتمادات لتلبية حاجات الاقتصاد القومي في التمويل قصير الامد وطويل الامد .

ذلك ان اقتصاد الاتحاد السوفييتي ما زال حتى الآن في المرحلة الاشتراكية ، وان مرحلة بلوغ النظام الشيوعي ما زالت هدفاً يسعى اليه هذا البلد . وعلى هذا الأساس فان نظام الملكية الذي تجاوز نظام الملكية الفردية ولكنه ، في الوقت ذاته ، لم يبلغ بعد كلياً مرحلة الملكية الجماعية ، مازال قائماً . والواقع ان الملكية في الاتحاد السوفييتي تنقسم الى ملكية اشتراكية او جماعيـــة تتألف بدورها من ملكية عائـــدة للدولة وملكية عائدة للجماعيات (وتتمثل في الزراعة بصورة خاصة في المزارع الجماعية والتعاونيات) ، ومن ملكية فردية حيث ما زالت توجد في الاتحاد السوفييتي الملكية الشخصية المتمثلة خاصة بملكية المزارعين . والغاية من ايراد هـــذا الكلام في مجال هذا البحث هو ان الاقتصاد الاشتراكي ، والاقتصاد السوفييتي هنا ، ما زال يعتمد على وحدات مختلفة تقوم فيما بينها علاقات تجارية وعلاقات مبادلة . هذا فضلاً عن ان مشاريع الدولة ذاتها تكون ذات

---

(١) كتب لينين حول دور المؤسسات المصرفية في الاقتصاد الاشتراكي هذه الكلمات : « لا يمكن تحقيق الاشتراكية بدون مصارف . وتشكل المصارف الكبيرة بالنسبة للدولة المؤسسات التي اخذناها جاهزة من النظام الرأسمالي ، والتي هي ضرورية لتحقيق الاشتراكية . فمهمتنا تقتصر والحالة هذه اذن على استبعاد ما هو خاص بالنظام الرأسمالي ، أي استبعاد ما يشوه هذا الجهـــاز الهام ، والعمل على تقويته وتوسيعه ، وجعله اكثر ديمقراطية . وهكذا ستحل الناحية « النوعية » محل الناحية « الكمية » . ان انشاء مصرف الدولة الواحد على شكل مؤسسة كبيرة جداً ، ولها فروع في كل منطقة ريفية وبالقرب من كل مصنع ، يعني تحقيق تسعة أعشار الجهاز الاشتراكي . انه يمسك المحاسبة العامة للدولة ، وينظم حساباتها العامة بخصوص الانتاج وتوزيع المنتجات . ان مصرف الدولة هذا يشبه الهيكل العظمي للمجتمع الاشتراكي » .

انظر ص ٢٦٠ من : Lénine, Oeuvres, T XXI

استقلال مالي ومحاسبي بالنسبة للاقتصاد القومي وعن بعضها بعضاً أيضاً ، أي أن هناك علاقات متبادلة فيما بينها .

من المعروف في النظام الرأسمالي أن للنقد وظائف ثلاث : فهو اداة لقياس القيم ، وأداة لتسهيل التبادل ، وأداة ادخار . وهـــذه الوظائف الاساسية للنقد في الاقتصاد الرأسمالي توجد ايضاً في الاقتصاد الاشتراكي .

فالنقد أداة لقياس قيم السلع ، ويستخدم كأداة او كواسطة للمبادلات ، واخيراً فان النقد يعتبر في الاتحاد السوفييتي أداة للتراكم الاشتراكي للأموال ولادخارات الشعب الكادح ، أي انه اداة ادخار .

فالاقتصاد الاشتراكي يعتمد وظائف النقد كما هي معروفة في النظام الرأسمالي، ولكن وفق غايات مغايرة تنسجم وطبيعة النظام . وهذه الحاجة الى وجود النقد تفسر لنا اعتماد النظام المالي في الاتحاد السوفييتي على ركيزتين : اولاهما الموازنة التي تضعها وزارة المالية والثانية نظام منح الاعتمادات أو التسليف الذي يضعه مصرف الدولة .

يعتبر نظام المالية العامة الذي يحدد مفهوم وحدود موازنة الدولة حجر الاساس في الاقتصاد الاشتراكي السوفييتي . فميزانية الدولة تعكس المقادير الاجمالية للدخول والنفقات ، كما أنه بواسطتهـــا يصار الى تحديد معالم العلاقات النقدية التي تعكس سير التخطيط في تشكيل وتراكم رؤوس الأموال ، كذلك كيفية توزيع هذه الأموال واختيارات توظيفها، ومن ثم سير عمليات مراقبة الانتاج القومي وطرق توزيعه . فالميزانية ليست «خزينة» الدولة اذن ، كما يتبادر الى الذهن في المفهوم التقليدي لها . بل هي جزء من الخطة المالية التي هي التعبير النقدي عن الخطة الاقتصادية الشاملة . وهي بهذا المعنى تشكل اداة هامة للسياسة الاقتصادية والمالية للدولة . وليس هنا مجال التعمق في بحث وتحليل اسس الخطة المالية في الاقتصاد الاشتراكي او لدى الاتحاد السوفييتي . وتجدر الاشارة الى انها تقابل ماهو معروف في العالم الرأسمالي تحت اسم « المحاسبة القومية » . والمهم الاشارة هنا الى ان الخطة المالية العامة في الاقتصاد الاشتراكي هي تعبير عن العلاقات النقدية بين مختلف الوحدات الاقتصادية التي يشملها التخطيط الاقتصادي الشامل .

ونظام التسليف هذا عبارة عن اداة تترجم وظائف الجهـــاز المصرفي التي يمكن تلخيصها بأنها عملية لتجميع الجاهزية النقدية من جهة ، وكيفية توزيع واستخدام هذه الجاهزية تحت شكل اعتمادات قابلة للاسترداد من جهة ثانية ، وذلك بغية تسيير عجلة الانتاج القومي .

والواقع ان دور الجهاز المصرفي في الدولة الاشتراكية يتمثل بقيام هذه الدولة - بواسطةتوزيع الاعتمادات المصرفية - باستخدام الاموال المتوفرة حالياً في الاقتصادالقومي ولدى الافراد ، كذلك الاموال التي تتوفر نتيجة لزيادة واردات الدولة على نفقاتها ، تبعاً لخطة موضوعة ومنظمة بدقة ، وبتوزيعها على اساس استردادها بغية تسيير عجلة الاقتصاد القومي وزيادة الانتاج .

وهنا يطرح التساؤل التالي : لماذا توجد احتياطيات نقدية في اقتصاد اشتراكي كاقتصاد الاتحاد السوفييتي مادام هناك تخطيط دقيق يرسم لكل فرد بصورة مسبقة كيفية وطرق استخدامه لدخوله ؟ ولماذا تكون هناك من حاجة الى الاعتمادات في حين ان كل فرد او وحدة اقتصادية - وخاصة المؤسسات والمشاريع - قد تأمنت مواردها تبعاً لما سبق تصميمه وتحديده في الخطة ؟

يعلل الاقتصاديون السوفييت الحاجة الى الاحتياطيات النقدية والحاجة الى نظام التسليف ، بأن هناك فوارق زمنية تفصل بين مرحلة النفقات ومرحلة الواردات ،فوارق من شأنها ان تؤدي الى ظهور فوائض في الدخول ، اي في الجاهزية النقدية ، من جهة ، والتي من شأنها ان تفسر وجود حاجات السيولة والتمويل المؤقت ، من جهة ثانية .

وتكاد هذه العملية المصرفية والاقتصادية ان تتكرر ، بدرجات مختلفة ، في اي نظام اقتصادي .

ان نظام التسليف المتبع في الاتحاد السوفييتي يمكن من تحقيق العديد من الاهداف بحيث يكون من الصعب تحقيقها في مكان آخر في ظل نظام اقتصادي مختلف . ذلك انه يمكن تصور اقتصاد الاتحاد السوفييتي وكأنه مشروع واحد ، كما يذهب الى ذلك بعض الاقتصاديين والمعلقين . مشروع كبير وواسع متألف من عديد من الوحدات الاقتصادية المتزايدة باستمرار ، ولكن سير العمل فيها يتم كما يتم الأمر في اي مشروع .

يتم تمويل المشاريع التثميرية في الاتحاد السوفييتي كلياً من قبل الدولة التي تجمع لديها كل الموارد المخصصة لتحقيق هذه الغاية . فبالاضافة الى ما تقدمه الدولة من الميزانية لتغذية الاموال الخاصة بالمشاريع والمؤسسات ، نجد المصارف تستخدم لهذه الغاية « الاموال الادخارية » التي في حوزتها . وذهب بعض الاقتصاديين الى تشبيه دور المصارف في الاتحاد السوفييتي بهذا المعنى بالدور الذي تلعبه السوق المالية في الاقتصاد الرأسمالي ، مع هذا الفارق الاساسي:وهو أن كيفية توزيع واستعمال وسائل التمويل للامد

الطويل انما تتم تبعاً لمركزية شديدة في اتخاذ القرارات . فسلطة الدولة هي الوحيدة التي تتقرر بموجبها اشكال توزيع الاعتمادات وتوظيفاتها .

هذا بشأن الاعتمادات طويلة الأجل ، اما فيما يتعلق بالاعتمادات الممنوحة لاجل قصير ، فيكاد الامر ان يكون ذاته . اذ تمنح المشاريع رؤوس اموال دائرة خاصة بها تحسب على اساس تمكينها من ممارسة نشاطها بشكل متوازن تقريباً . كذلك يمنح مصرف الدولة للمشاريع سلفاً لاجل قصير على حساب تسوية اسعار البضائع المشحونة . وبصورة عامة تمنح الاعتمادات قصيرة الاجل من قبل مصرف الدولة دوما لاستكمال الموارد الخاصة للمشاريع ، ولتمكينها من تمويل دورتها الانتاجية ، وتصريفها اوتسويقها لبضائعها . ويجري منح السلف بشكل يتناسب مع مقدار رقم اعمال المشروع .

وبالاضافة الى ذلك ، فان مصرف الدولة يمنح « اعتمادات موسمية » لتمويل تخزين الانتاج الذي يكون تصريفه موسمياً بطبيعته .

تخضع هذه الاعتمادات جميعها للفائدة . ويختلف معدل هذه الفائدة بالنسبة للاعتمادات الممنوحة لسنة على الاكثر باختلاف الغاية من الحصول على الاعتماد وهو يتراوح بين ١-٣٪

وحجم الاعتمادات الممنوحة لاجل قصير اكبر بكثير من حجم تلك الممنوحة لاجل طويل : ففي أول عام ١٩٦٣ بلغ مقدار الاعتمادات ذات الأجل القصير ٤٧ مليار روبل ، في حين ان مقدار الاعتمادات الممنوحة لاجل طويل بلغ ٤ مليارات من الروبلات فقط .

والاعتمادات قصيرة الاجل تخضع في توزيعها لتخطيط دقيق ، شأنها شأن الاعتمادات طويلة الاجل . فحاجات المشاريع لرؤوس الاموال الدائرة مرصودة في الخطة بصورة مسبقة على اساس الحساب التقديري للمصروفات والمقبوضات . وعلى مصرف الدولة والمشاريع التقيد بالحدود القصوى الواردة في الخطة . ويحق استثناء لمصرف الدولة ، ولاسباب تتعلق بقوة قاهرة ، ان يمنح اعتمادات زيادة عن المقادير المحددة في الخطة .

يلاحظ مما تقدم كثرة الاعمال المنوط بمصرف الدولة تنفيذها . والواقع ان مصرف الدولة في الاتحاد السوفييتي عبارة عن جهاز وحيد للتقاص . ففيه تتمركز تمركزا كاملا حسابات المصارف والجاهزية النقدية كافة مهما كان نوعها وكذلك حسابات مؤسسات الدولة كافة ، وهو الذي يحركها . بل ان دفع الاجور نفسه يتم بتحريك مصرف الدولة الحسابات الخاصة بذلك تبعاً للموعد الذي تحدده السلطات العامة .

وأنه بهذه الصفة يراقب عمليا تحرك الجزء الاعظم من الكتلة النقدية المتداولة في الاقتصاد السوفييتي ، أي انـه يراقب عن كثب كل زيادة في النقد المتداول ، وذلك بالقدر الذي تتم فيه هذه الزيادة بفعل الاعتمادات الممنوحة .

ويشترك مصرف الدولة مع هيئة التخطيط العليا Gosplan – ممثلا بشخص حاكمه الذي يعتبر عضوا في هـذه الهيئـة – في تخطيط توزيع الاعتمادات على اساس ربط هذا التوزيع بالتخطيط الاقتصادي العام . و « عقود منح الاعتمادات » الـتي تعقد سنويا بين مصرف الدولة والمصارف المتخصصة والمشاريع انما تتم تبعا ووفقا لـ « عقود الانتاج » المعقودة ضمن الشروط ذاتها مع اجهزة التخطيط . وبالمقابل ، فقد انيطت بمصرف الدولة مهمة مراقبة تنفيذ خطة التسليف . وهـذا يعني انه بصورة غير مباشرة يراقب تنفيـذ الخطة الاقتصادية ذاتهـا . وهذا مايرمز اليه بـ (مراقبة الاقتصاد عن طريق الروبل) .

والواقع ان هذا الحق في المراقبة لتنفيذ الخطة يعطي مصرف الدولة حقا عمليا في حرية التقدير لدى توزيعه للاعتمادات . فاذا كانت الاسباب المبررة لمنح الاعتمادات تتعلق بضوابط غير نقدية ، فان الموافقة الفعلية على منح القرض بموجبها تتعلق بالحكم الذي يضعه مصرف الدولة لتقدير ملاءة المشروع وقدرته على تسديد القرض ضمن المدة والشروط المطلوبة . وعلى هذا الاساس يمكن لمصرف الدولة ، اذا لم يكن تقديره لصالح المشروع ، ان يحرم هـذا المشروع من استعمال حسابه ، وان يطلب الى وزارة المالية ان تتخذ اجراءاتها بحقه ، كأن تقطع عنه المنح المعطاة له من الموازنة ، وبذلك يمنع المشروع من ممارسة نشاطه حتى يعاد النظر بشأنه .

وبموجب التنظيم الجديد للمشاريع الصناعية في الاتحاد السوفييتي – أي ذلك القائم على اساس الربح والذي عرف تحت اسم « الليبرمانية » – يتوجب على المشروع الصناعي تقديم تقرير في الخامس عشر من كل شهر عن سير العمل وعملية الانتاج والوضع المالي فيه عن الشهر السابق . ويرفع هـذا التقرير الى الاجهزة التي يرتبط بها المشروع ، والى الاجهزة المختصة في وزارة المالية ، والى مصرف الدولة او فروعه . وهذا يعني ان رقابة مصرف الدولة على سير تنفيذ الخطة ، وعلى سير العمل في المشروع نفسه ، مازالت قائمة في ظل الاصلاحات الاقتصادية الاخيرة في الاتحاد السوفييتي .

تلك هي الطريقة التي يلجأ اليها مصرف الدولة للمحافظة على التوازن النقدي في انحاء البلاد كافة . على انه بالمقابل يتحمل الآثار النقدية التي تكون انعكاسا لسياسة الدولة في مجال التخطيط .

وهكذا فان مصرف الدولة ، سواء كان يقوم بمهمة مراقبة تنفيذ الخطة ، أم بتحمل الآثار النقدية الناتجة عن السياسة المتبعة في تنفيذها ، يعتبر « الميزان الحساس للحياة الاقتصادية » فلديه يعرف مايتم تنفيذه من الخطة في كل قطاع من قطاعات الاقتصاد القومي ، كما انه يحدد التدابير التي يتوجب على الخطة الاخذ بها بغية تأمين متابعة سير الفعاليات الاقتصادية . وبهذا المعنى يمكن القول ان وظائف المصرف المركزي في الاقتصاد الاشتراكي تتجاوز الوظائف المنوطة به في الاقتصاد الرأسمالي ، كما انه يعتبر حجر الزاوية في بناء الاقتصاد الاشتراكي الى جانب هيئة التخطيط العليا .

وعلى هذا الاساس يعتبر النظام المصرفي في الاتحاد السوفييتي اداة اساسية لتحقيق اهداف السياسة الاقتصادية والسياسة بمعناها العام للدولة السوفييتية .

ثانياً — في الديموقراطيات الشعبية :

اذا لم يكن حاكم المصرف المركزي او مصرف الدولة عضوا في مجلس الوزراء في الديمقراطيات الشعبية كما هو عليه الامر في الاتحاد السوفييتي (١) ، فان الوظائف المنوطة بالمصرف المركزي تكاد تتكرر بحرفيتها ، كما ان مجلس الوزراء يعتبر المرجع الاخير لتقرير السياسة النقدية المصرفية ، وتجدر الاشارة الى أن هناك بعض الاختلافات في وضعية المصرف المركزي من بلد لآخر من هذه البلدان ، بحيث ينحصر الاختلاف في الجهة الحكومية التي يكون حاكم المصرف مسؤولا امامها .

تتضمن الوظائف الرئيسية للمصرف المركزي في بلدان الديمقراطيات الشعبية - كما هي عليه في الاتحاد السوفييتي وفي النظام الرأسمالي بالنسبة لبعض هذه الوظائف - تتضمن اصدار النقد ومنح الاعتمادات لآجال قصيرة ومراقبة كيفية استخدامها من قبل المشاريع ، وتأمين السيولة اللازمة للوحدات الادارية والاقتصادية التابعة والمرتبطة بالقطاع العام ، والقيام بالمساهمة في وضع الخطة وتنفيذها عن طريق وضع خطة التسليف وخطة مراقبة سير التداول النقدي وخطط المراقبة المالية للمشاريع المنفذة لتوجيهات الخطة ، وبصورة عامة تقوم بتأمين كل الشروط الضرورية لحسن تنفيذ الخطة من الناحية المالية ولتجنب اخطار التضخم وتعريض آلية الحياة الاقتصادية للخلل ، كما ورد في بداية هذا الحديث .

يتوجب على كل من الوحدات الادارية والاقتصادية للقطاعين المؤمم والتعاوني في

---

(١) لقد تبدلت التشريعات بهذا الخصوص في هذه البلدان مؤخرا واخذت تقترب من التنظيم المتبع في الاتحاد السوفييتي .

الديمقراطيات الشعبية ان تفتح حسابا لدى المصرف المركزي وان تودع لديه اولدى فروعه كامل موجوداتها السائلة ، باستثناء مقدار ضئيل تحتفظ به لتسوية التزاماتها مع الافراد . وباستثناء مايدفع للافراد ، فان كل المدفوعات التي يقوم بها المصرف المركزي تتم عن طريق الحوالات . ويجدر التنويه بأن المصرف المركزي لايقوم بتسديد اية دفعة قبل التحقق من مطابقة الانفاق مع متطلبات الخطة ووفقا للقواعد والانظمة المعمول بها سواء من الناحية المالية او الحاسبية او التقنيـــة . ولا يمكن تسوية اية مدفوعات بين الوحدات الاقتصادية وبينها وبين الوحدات الادارية الا عن طريق الجهاز المصرفي .

وكما ذكرنا فان الاموال الدائرة او العاملة للمشاريع كافة ، يجب ان تودع لدى المصرف المركزي ، وتتألف هذه الاموال من :

١ – الموارد الخاصة للمشاريع والمتأتية مما منحتها اياه ميزانيـــة الدولة ، ومن الوفورات والتراكم المالي الذي حققته من خلال نشاطاتها . وتؤمن هذه الموارد الحاجات الاساسية والمستمرة لهذه المشاريع .

٢ – من الاعتمادات المتجددة الممنوحة لها من قبل المصرف المركزي وذلك لمجابهة الحاجات الدورية غير المستمرة لهذه المشاريع (كالتمويل الموسمي اوتمويل تصريف كمية كبيرة من المخزون) .

يتحدد مقدار رأس المال العامل او الدائر ، وكذلك مقادير النسب بين الجزئين المذكورين المؤلفين له ، بالاعتماد على الخطة الفنية التي يضعها المشروع والخطة النقدية التي يضعها بالتعاون مع المصرف المركزي . ولدى وضع هذه الخطـــة النقدية ، تؤخذ بعين الاعتبـــار الاهداف المفروضة على المشروع بموجب خطة الانتاج المرسومة له في الخطـــة العامة ، كذلك تؤخذ بعين الاعتبار عمليات التخزين والتصريف .

يتوجب في النظام الاشتراكي على المشاريع ذاتها ان تؤمن من حيث المبدأ تمويل زيادة رأس المال العامل تبعاً لزيادة الانتاج ، وذلك مما تقتطعه من الارباح التي تحققها .

اما اذا لم يتمكن أحد المشاريع من تأمين الارباح الكافية من اجل جعل مستوى امواله العاملة في مستوى نمو نشاطه الانتاجي المطلوب منه بموجب الخطة العامة ، فلابد له من ان يطلب من المصرف المركزي ان يمنحه اعتماداً قصير الاجل . ونتيجة لقيام المصرف المركزي بدراسة دقيقة لوضع المشروع يعمد الى تبني احد الحلول الثلاثة التالية :

١ – اذا لم يجد طلب منح الاعتماد ضرورياً لحسن سير تنفيذ الخطة وسير العمل في المشروع ، فانه يرفض الطلب .

٢ – يمنح الاعتماد رغم ملاحظاته عن سوء الادارة من قبل ادارة المشروع.ولكن منحه للاعتماد يكون مشروطاً بدفع فائدة ، وبفرضه عقوبة مالية يتناسب مقدارها مع مقدار الاعتماد والفترة الزمنية التي منح لها . ومن الممكن،تبعاً للظروف ، إيقاع عقوبات جزائية بحق المدير .

٣ – اذا وجد المصرف ان المشروع لم يتمكن من زيادة رأسماله العامل الى مستوى النشاط الانتاجي المطلوب منه لظروف خارجة عن ارادة ادارته،واذا وجد ان المصلحة العامة تقتضي هذه الزيادة ، فانه يقرر اما زيادة مخصصات المشروع من الموازنة ،او يمنحه اعتماداً متجدداً بفائدة اقل من تلك التي تفرض عليه كعقوبة .

ان كل السلف والاعتمادات التي يمنحها المصرف المركزي واردة في خطة التسليف الموضوعة بالتناسق مع اهداف الخطة الاقتصادية الشاملة . على ان هناك سلفاً واعتمادات يمنحها المصرف المركزي دون ان تكون واردة في الخطة ، كتلك التي اتينا على ذكرها والتي يمنحها ايضاً لتمويل حاجات عارضة وآنية وغير دورية وناتجة عن ظروف قاهرة لم تتنبأ بها الخطة . وعلى هذا الاساس يقوم مصرف الدولة بتسوية الالتزامات التي لايمكن للمشروع الوفاء بها ، وذلك وفقاً للاجراءات المرعية ، ووفقاً لاهداف الخطة ، وذلك مقابل مايفرضه على المشروع من فائدة عادية ، ومن غرامة متناسبة مع مقدار الالتزامات التي تمت تسويتها ومددها الزمنية .

خلاصة :

ماذا نستنتج مما تقدم ؟ أعتقد ، إن لم اكن مخطئاً ، ان الاجهزة الاقتصادية الرئيسية في الاقتصاد الاشتراكي هي : ١ – الهيئة العليا للتخطيط او مايقوم بوظائفها في وضع الخطة الشاملة ؛ ٢ – الجهاز المصرفي المتمثل بالمصرف المركزي كمساهم في ضبط واحكام تنفيذ الخطة وتلافي نواقصها ، على اعتبار ان بقية المصارف عبارة عن اداةلتنفيذ ماجاء في الخطة تحت الاشراف النقدي الاعلى للمصرف المركزي،وينسجم هذا الاستنتاجمع ماقاله ماركس وانجلز في «البيان الشيوعي» حيث ورد القول التالي :«يجب تمركزوحصر التسليف بيد الدولة عن طريق مؤسسة الاصدارالتي تكتتب الدولة برأسمالها كاملاً» ؛ ٣) ميزانية الدولة التي لن نتحدث عنها هنا .

فالوسائل والاسلحة التي يتملكها المصرف المركزي في ظل الاقتصاد الاشتراكي من أجل مراقبة وادارة التداول النقدي ومقابلته مع حجم السلع المعروضة أقوى من تلك التي تمتلكها على وجه العموم المصارف المركزية في ظل الاقتصاد الرأسمالي . ان المصارف المركزية في ظل الاقتصاد الاخير تراقب الحجم الاجمالي للتداول النقدي عن طريق سياسة التسليف . حقاً ان سياسة الحسم لدى المصرف المركزي - كذلك الاسلحة النقدية الاخرى كالسوق المفتوحة ونسبة الاحتياطي الاجباري - تؤدي إلى ضبط حجم الكتلة النقدية المتداولة مع حجم السلع المعروضة ، ولكن في الواقع ما من شيء يمنع في الاقتصاد الرأسمالي من تشكل احتياطيات نقدية ، أو تشكل مخزون من السلع ، من المحتمل ان يؤدي الى توترات يتناوبها التضخم والانكماش بدرجات غير خطرة في الوقت الحاضر .

وعلى العكس من ذلك يكون النظام النقدي في الاقتصاد الاشتراكي . فبموجب تنظيم هذا الاقتصاد لابد من تشكل موازاة شبه تامة بين مقدار الوحدات النقدية المتداولة وحجم السلع المعروضة . فكما ذكرنا ، لايمكن لأي وحدة اقتصادية او ادارية أن تحتفظ بموجودات سائلة في صناديقها ، بل لابد لها من تحويل كامل هذه الموجودات الى حسابها المفتوح لدى المصرف المركزي الذي يجمد لديه النقد السائل حتى الوقت الذي يقدر فيه ان انتاج السلع والخدمات يمكن تخفيف هذا التجميد او ازالته .

على أنه لابد من الملاحظة أن هذا التنظيم الذي يؤمنه المصرف المركزي ان كان على درجة كبيرة من الدقة داخل القطاع الاشتراكي ومختلف اجهزة الدولة ، فانه لايكون كذلك عندما تذهب الوحدات النقدية الى جيوب الأفراد كأجور أو تعويضات اجتماعية أو سحب بسيط لودائع الادخار أو لأي سبب آخر مماثل . فهذه الوحدات النقدية تمثل قوة شرائية بيد الافراد الذين يطلبون خدمات وسلعاً استهلاكية لاتمثل الجزء الأم من الانتاج . فهل سيعود الخلل بين حجم النقد المتداول وحجم السلع المطروحة في الأسواق؟ من الممكن جداً اذا لم تلجأ السلطات الى اتخاذ التدبيرين التاليين لمواجهة مثل هذا الخلل :

١ - لابد من تحديد المقادير الاجمالية للوحدات النقدية التي تسلم ، لسبب أو لآخر ، للافراد ، بحيث يمكن التوصل الى ايجاد توازن بين الدخول الموزعة وحجم السلع المعروضة . تلك هي احدى المهام الرئيسية للمصرف المركزي الذي يضع بشكل دوري ما يسمى « بخطة الصندوق » .

٢ - يتطلب النظام الاشتراكي من ميزانية الدولة ومؤسسات الادخار التي تتبع وزارة المالية احياناً ، أن تقوم بتحويل جزء من التيارات النقدية ، التي تولدها عملية الانتاج ،

عن السوق الاستهلاكية بحيث يمكن التوصل الى ايجـاد توازن تقريبي بين حجم الدخول الموزعة وقيمة إنتاج السلع المخصصة للاستهلاك الفردي .

وهنا يجدر التنويه الى ان هـذه التدابير ليست غريبة الا من حيث التفاصيل واسلوب التوجيه عن النظام الرأسمالي المعاصر .

واخيراً ، لا بد من هذا التساؤل : الى اي حد يمكن لقطرين عربيين أخذا بطريق التحويل الاشتراكي ، وهما مصر وسورية ، ان يأخذا بالتنظيم المصرفي الاشتراكي على الشكل الذي اوردناه ؟

وهنا لا بد من تمييز نقطتين :

اولاهما انه فيما يتعلق بالقواعد الاقتصادية العامة في ظل مختلف الانظمة الاقتصادية لا جدال ان تبنيها يشكل جزءاً من التراث الفكري الاقتصادي والتجارب الاقتصادية ايضاً . فتجنب التضخم مثلاً امر لا يختلف فيه اثنان .

اما فيما يتعلق بالتنظيمات التنفيذية لتطبيق هـذه القواعد الاقتصادية في البلدان الاشتراكية فالأمر يختلف باختلاف البلدان التي يطبق فيها النظام الاشتراكي . وكنا اشرنا الى ان هذه التنظيمات ليست متماثلة في دول اوربا الشرقية .

وفيما يتعلق بمصر فقد كتب الدكتور خليل حسن خليل انه « قد تتطلب ظروف الاقتصاد المصري الاهتمام ببعض الوظائف المصرفية او الاقتصادية دون الاخرى ، كذلك قد تتطلب مراحل التنمية التي يجتازها الاقتصاد القومي عندنا من البنك المركزي والبنوك الخاضعة له وظائف مغايرة لبعض التجارب الاشتراكية الاخرى » .

واذا كان هذا الكلام يصح على سورية ايضاً ، فانه لا بد من الاضافة بشأن القطر السوري ان اي تنظيم اشتراكي ، وخاصة فيما يتعلق بالمصرف المركزي الذي تعكس اوضاعه المحافظة على قيمة النقد السوري ، لا بد من ان يأخذ بعين الاعتبار عدة نقاط هامة : منها الوضع الجغرافي لهـذا القطر ، ووضع الاموال السورية الموجودة خارج القطر ، ووضع كون الجهاز المصرفي يتعامل بدرجة كبيرة بودائع الافراد التي هي ملكية خاصة لاصحابها ، وكذلك كون التخطيط في بلدنا ليس شاملاً وتفصيلياً كما هو عليه في البلدان التي اتينا على ذكرها ، بمعنى ان الرابطة المتينة بين التخطيط الاقتصادي الشامل ووضع خطة تسليف ضمن اطار هذا التخطيط ليست قائمة الآن .

سلسلة
كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، سلسلة كتب قومية، تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه، ومشاغله الفكرية والقومية، وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة .

وفيما يلي بعض البحوث التي صدرت في هذه السلسلة الجديدة :

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية — **للدكتور صلاح وزان**
« صدر في الحلقة الاولى »

التخطيط الاشتراكي — **للدكتور عبد الله عبد الدايم**
« صدر في الحلقة الثانية »

المغتربون العرب في امريكا الشمالية — **للدكتور جورج طعمة**
« صدر في الحلقة الثالثة »

القومية العربية في القرن التاسع عشر — **للدكتور توفيق برو**
« صدر في الحلقة الرابعة »

الفن والقومية — **للدكتور عفيف بهنسي**
« صدر في الحلقة الخامسة »

الموقع الاستراتيجي العربي — **لهيثم الكيلاني**
« صدر في الحلقة السادسة »

الاشتراكية في البلدان المتخلفة — **لمحمد الجندي**
« صدر في الحلقة السابعة »

التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية
لأحمد محمد الزعبي
« صدر في الحلقة الثامنة »

كيف نكتب تاريخنا القومي — **تحقيق مجلة المعرفة**
« صدر في الحلقة التاسعة »

التنمية الاقتصادية — **لعبد الله محكسور**
« صدر في الحلقة العاشرة »

الآداب

الكتّاب والموضوعات

قصة

السجن

زكريا تامر

كان مصطفى الشامي يحب المواويل والنجوم والعشب الأخضر . غير انه تعب من بناء البيوت ، وستغمض عيناه بعد قليل ، فالموت وردة من ثلج ، مختبئة في شرايينه ، وهاقد جاء صباحها .

وابتسم بغبطة اذ خطر له ان البيوت التي شيدها لابد ستمسي انقاضاً اثر غيابه . واندفع يركض متوغلاً في شوارع صفراء ، منادياً الهواء بصوت مفعم بالغضب والدهشة والأسى . وهكذا نأى عن البيوت والمواويل والعشب الأخضر ، وتم دفنه بعد ساعات فى مقبرة محاطة بالمنازل . وقد ولولت زوجته لميا وانتحبت طويلاً غير انها كفت عن البكاء حين سادت ظلمة الليل ، واضطجعت وحيدة على سرير عريض ، وتخيلت رجالاً ثيابهم بيضاء ، يقودون زوجها الى

ارض فسيحة خضراء . وكان الحزن آنذاك حمامة ترتدي ثياب الحداد وتطير هلعة تحت امطار غزيرة .

وأقبل الكرى طفلاً كئيب العينين ، تحمل يده زهرة سوداء واغنية من مخمل دافىء ، لكن جرس الباب رنّ رنيناً حاداً متواصلاً ، فاستفاقت لميا من نومها ، ورفعت رأسها عن الوسادة ، وارهفت السمع وهي تفرك عينيها باصابعها وكان جرس الباب مازال مستمراً على الرنين ، فصاحت بصوت ممطوط يسيطر عليه التثاؤب : « من ؟ » . وبلغها حالاً صوت خشن آمر مألوف : « افتحي ».

فوثبت تاركة السرير ، وهرولت حافية القدمين مجتازة باحة البيت المغمورة بضياء القمر ، وسارعت نحو الباب، وفتحته بحركة سريعة مفعمة بالتوجس واللهفة ، فألفت زوجها واقفاً كشجرة بلا اغصان ، متلفعاً بكفنه الأبيض .

ودلف مصطفى الشامي في الحال الى الداخل متجهم الوجه ، وقال مخاطباً لميا : « اقفلي الباب جيداً فاللصوص كثيرون في هذه الأيام » . فأطاعت لميا ، واغلقت الباب باحكام ثم تبعت مصطفى الى مخدع النوم .

يتمدد مصطفى على السرير . مصطفى يقول للميا بصوت مجهد : «لاتضيئي النور » . يصمت مصطفى لحظة ثم يسأل لميا : « هل كنت نائمة ؟» .

لاتتفوه لميا بكلمة . تستلقي لميا بجوار مصطفى لاهثة الانفاس .مصطفى يلتصق بها ويقول بلهجة مداعبة : « دفئيني » .

صوت مصطفى يتبدل ، يفقد مرحه ويتحول الى صوت اجوف مذعور متذمر : « لم استطع النوم هناك » .

تهم لميا بالكلام غير ان فمها كان في تلك اللحظة حجراً صلداً . يتكلم مصطفى ، وصوته طير أسود ملطخ بالطين : « حظي طيب لأن المقبرة ليست

بعيدة عن البيت ولم اصادف اثناء سيري اي دورية شرطـــة . لكم اشفق على الناس الذين يدفنون في مقابر بعيدة عن بيوتهم فيضطرون الى النوم في قبورهم ».

صوت مصطفى يخفت تدريجياً ليتلاشى بعد هنيهات تاركاً ليا لوحدها مفتوحة العينين تحملق في السقف . وفجأة دهم نظراتها ذعر عارم لحظة تناهى اليها قرع شديد على الباب، ووجدت نفسها تهرع نحو الباب وتفتحه بتردد فاذا بشرطيين يرتديان ثياباً بيضاء . وبادر احدهما يقول لها : « أين زوجك مصطفى الشامي ؟ لماذا سمحت له بالنوم والعودة ؟ ألا تعرفين ان فعلتك هذه مخالفة للقانون ؟ » .

ودلف الشرطيان الى داخل البيت ، واتجها فوراً الى الغرفة ، فدخلاها وهما يدمدمان ساخطين ، وما ان ابصرا مصطفى حتى راحا يشتمانه ، فاستيقظ مرتاعاً ، واعول مستغيثاً ، فلم يأبه الرجلان له ، وانزلاه عن السرير وحملاه وكأنه قطعة من الخشب ، وغادرا المنزل بينما كان بكاء مصطفى يشتد ويتصاعد عبر سكينة الليل كولولة لا نهاية لها .

ولم تمض سوى لحظات حتى هيمن السكون ثانية على البيت ، فعاودت ليا الاستلقاء على السرير ، ولكنها نهضت بعد لحظات واضاءت النور ، ووقفت امام المرآة ، ونظرت الى وجهها ملياً ثم ابتسمت واطفأت النور وتمددت على السرير مستسلمة لنوم عميق ، وظل وجهها محتفظاً بالابتسامة .

وكان مصطفى الشامي قد مثل آنئذ امام قاض ، وديع الابتسامة ، وجهه متجعد ، وعمره آلاف السنين ، وقد وجه الى مصطفى تهمة الفرار ، ولم يجد مصطفى مايرد به سوى ان القبر مكان غير صالح للانسان . فضحك القاضي مسروراً ثم نطق بحكمه . وبعدئذ انقض الرجال البيض الثياب على مصطفى واقتادوه الى ارض فسيحة خضراء . وهناك انبىء بأنه سيشتغل في بناء القصور ،

فلم يفه بكلمة ولم يطلق صرخة استغاثة وتوسل ، إنما تلفت فيما حوله كحيوان سمع انصفاق باب القفص ، وكانت عيناه طفلين مذبوحي العنق .

وفي تلك اللحظة كانت الارض الجرداء والارض الخضراء ، لها سماء واحدة مصنوعة من قضبان فولاذية .

الاسم المستعار

حسام الخطيب

صعدت الدرج لاهثاً واقتحمت غرفة الانتظار التابعة لمكتب الدكتور (جويسي) كالسهم ، فقد كانت الساعة تدق الخامسة في بهو الكلية وكان علي أن أمثل أمام الدكتور جويسي ليحقق معي في ثلاث مخالفات لأنظمة الكلية احداها ملاسنة مع أحد الأساتذة والثانية عراك مع أحد الطلبة والثالثة تخلف عن الدوام .

كنت أتوقع كل شيء إلا أن أرى طفلتين تجلسان متقابلتين على طاولة في الغرفة الأنيقة متوسطة الحجم . تملكتني دهشة مفاجئة ، وأسندت ظهري الى الباب ، لاشك أن موقفي كان مضحكاً ، فقد لاحظت أن الفتاتين تبادلتابسمتين سريعتين ثم شجعت كل منها الأخرى فاغرقتافي الضحك وقالت احداهمابإنكليزية ذات نغم متقطع :

ــ شيء مضحك . هذا ما كنا نبحث عنه !

ــ نعم ! فلنبدأ فوراً

استعدت أعصابي بسرعة وجست لهاثي ، إنها لم تبدءا بعد رغم كل هذا الضحك فكيف اذا بدأتا ؟

سحبت كرسياً وجلست بينها ، وكان على الطاولة أقلام تلوين مختلفة وأوراق مبعثرة عليها رسوم أطفال مختلطة .

ألقيت تحية مرحة وحاولت أن أقول شيئاً ولكن الفتاتين شرعتـــا في الرسم فوراً وكأن الجو جو مسابقة ، وأخذت أتسلى بتأمل الرسوم على الأوراق المبعثرة ولاحظت بسرعة أن الرسوم مزدوجة ، اذن كانت الطفلتان تتسليان بالتنافس على رسم موضوع واحد ، أحياناً دراجة عادية وأحيـاناً منظر طبيعي وهناك عصفور مرسوم بأوضاع مختلفة .

فاجأتني إحداهما بسؤال عجيب لفت نظري الى أنني أصبحت موضوع المباراة العتيدة :

ــ بأي قلم تفضل أن ألون وجهك ، اختر بين هذين القلمين ، هـذا بني غامق وهذا بني فاتح .

جربت اللونين بهدوء ، يبدو أن لوني صعب ، ضائع بين أقلام التلوين .

قلت للطفلة :

ـ لنجرب الألوان المركبة ، وضعت الأبيض على البني الغامق، وضعت الأصفر على البني الفاتح ، جربت عدة ألوان فلم أشعر أنها تعطي لوني الحقيقي .

تضايقت الطفلة :

ـ أف . ما العمل ؟

صاحت الطفلة الأخرى :

ـ الأسود يناسبك أكثر ، انظر .

نظرت ! أعجبتني الفكرة كثيراً . مادمت أملك لوناً صعباً لا مثيل له في عالم الألوان فلا بد أن أرضى بلون ما ، بأقرب الألوان إلي ، انه حل لمشكلة حياتي ياصغيرتي ، أتعرفين أن المخالفات التي سيحاكمني عليها والدك أو لعله عمك أو خالك ، كلها ناشئة عن لوني الذي لايشابه الألوان التي يعترف بها صانعو الأقلام في كل مكان ، تصيفك للوني يعجبني لأنه أقرب من غيره ولكن الاترين أنه يضيعني ، يطغى على السحابة الشاحبة السمراء التي يحاول صانعو الألوان أن يتناسوها والتي ورثتها عن أجيال عاشت آلافاً من السنين بين حقول القمح وصفاء السماء تماماً كما ورثت لونك الأبيض الوردي وعينيك الزرقاوين عن أجيال عاشت آلافاً من السنين بين السماء المتلبدة بالغيوم والرقعة الخضراء التي تنتهي حدودها دائماً عند حافة بحر أزرق يمتد حتى نهاية الأفق .

حدقت في وجه الطفلة الوردي ، كانت أصغر من أختها وأحلى :

ـ هل تقبلين أن يرسم وجهك بالأبيض الخالص .

ـ لا . انه وردي ... خذ هذا القلم ، ارسمني مع أختي .

أخذت القلم ونظرت اليها متفحصاً ، قلت لعل حظي في الرسم يكون

أفضل من حظي في الحياة ، رسمت أول خط وأنقذني من حيرة الخط الثاني صوت الطفلة الكبرى عن شمالي :

ـ هذه أول مرة أرسم فيها شاربين ، ولا أستطيع أن أرسمها دون اخفاء الفم . انظر . ما العمل ؟

نظرت . كان هناك جناحان أسودان يفترشان وسط الوجه ولم يكن هناك فم على الاطلاق .

ضحكت من أعماقي وتطورت ضحكتي الى قهقهة ، وضحكت الصغيرتان معي من كل قلبيهما البريئين ، ورأيت احداهمـــا تلتفت باتجاه الباب الذي كان ورائي وتقول :

ـ بابا . تعال اضحك معنـــا . هذا السيد مضحك في الرسم ، انظر شاربين هنا .

وقفت إجـــلالاً للعلم ، كان نحيف الجسم أشمط الشعر ، وخمنت من الابتسامة المستقرة على وجهه أنها ليست بنت لحظتها ، كم رأى من المسرحية ؟ لا أدري .

ابتدرني قائلاً :

ـ مستر خليل ، ان بنتي مزعجتان ، أليس كذلك !

قلت :

ـ بالعكس ، قلما تتاح لي هنا مصادقة طفل انكليزي ، ألاترى الرسوم .

حاولت أن أتخيل رد فعل هذا الانسان ازاء الموقف الودي الواضح جداً وقطع عليّ مشروع تخيلي صوت الصغيرة :

ـ انني لا أحب رسم الأذنـــين فهما معقدتان جداً . هل تسمح أن لا أرسم اذنيك !

يا إلهي . حتى الأذنين ؟ اللون لا وجود له ، والفم ذهب بمعية الشاربين ، عيناي !! أرجوكم ، أبقوالي عيني . أصابتني غصة موجعة عصرت قلبي ، خشيت أن تدمرني فوراً صاعقة كهربائية داخلية ، تذكرت خبراً قرأته من مدة وجيزة عن رجل وجد رماداً في بيته وتبين بعد التحقيق أن صاعقة كهربائية انفجرت في داخله ، اذا كانت هناك حوادث من هذا النوع حقاً فان صاعقتي يجب أن تنفجر فوراً ، ولست أتخيل أن هناك موقفاً في العالم بلغ فيه التناقض مثلما بلغ في موقفي . كنت في داخلي متألماً جداً الى أقصى حدود الألم وكنت في الظاهر أحاول صادقاً أن اضحك مع الطفلتين الى أقصى حد ، الى أبرأ حد ممكن .

صحوت في لحظة ، فقد كانت الخواطر تلتمع في نفسي كومضة البرق ، وقلت للاستاذ دون أن أعي بالضبط ما يعنيه كلامي :

— اذا كان الاطفال يمثلون ضمير العالم فأنا من المقضي عليهم ولا شك .

أجابني بسرعة مذهلة كأنما كان مستغرقاً في الفكرة نفسها :

— بل قل أي ضمير هو .

انتبهت حينذاك إلى معنى عبارتي وانتبهت الى حضوره النفسي في الموقف ونظرت في عينيه نظرة مبهمة فيها معنى لا أعرفه ، إنه واحد من قضاتي على أي حال وسوف أمثل أمامه ليحاكمني بعد قليل ، هرب بعينيه ، ثم أسرع يهرب من الموقف كله ، اراد أن يذوّب الموقف بوحشية معينة من ذلك النوع الذي يتقنه جميع المهذبين في العالم ، اتجه الى الطفلتين قائلاً :

— أنا خجل منكما ! هل قدمتما نفسيكما الى السيد .

وقفت الصغيرتان فوراً كما لو أنهما استجابتان لضغطة زر كهربائي :

— أنا ريتا .

ـ أنا لولا .

ـ وأنا خليل ، مررت بلقائكما .

وفرح الاستاذ بانتصاره ، مما أغراه بتسجيل انتصار آخر وعدم اضاعة الفرصة ، لعله كان خريج ملاعب كرة القدم كما كان خريج كليات كامبردج .

وأردف قائلاً بابتسامة مظفرة :

ـ أعيدا الاسم .

وقالتا معاً :

ـ ولكن هذا مستحيل .

ـ حاولا ، إنه خ . . خ . . ليل .

وقد أخرج الخاء بصعوبة متناهية وخيل إلي أنه تأخر قليلاً عن موعدي لأنه كان مشغولاً بالتمرن على نطق الخاء ، وهذا طبعي فالسادة هنا لا يتأخرون عن مواعيدهم الا لأسباب وجيهة ، وخطر لي ـ وكنت في هذه اللحظة أمتلك الحق بالتخيل لأن الاستاذ مشغول مع الطفلتين ـ أن موعدي كان جديراً أن يتأخر ساعة أو ساعتين لو كان اسمي أصعب قليلاً ، واخذت أردد سلسلة من الأسماء وأنا اغطي على ضحكتي الحقيقية بالضحكة الاخرى الناتجة عن المشاركة في الموقف الذي أخذ يتجه اتجاهاً هزلياً بعد أن كان مفعماً بضحك وبراءة .

تركت الاستاذ يمرن الطفلتين على لفظ خ خ خ خ . . وهو يخطىء بين حين وآخر فيلفظها قريبة من الكاف أو الهاء ولعل التمرين اتعبه فلم ينضبط معه اللفظ دائماً .

أسماء كثيرة خطرت لي بعضها أصعب من اسمي وبعضها يماثله صعوبة : خالد محمد خالد ، خالد خليل ، خليل السكاكيني ، خلدون المالح ، خالدية عطوة ،

ميخائيل ميخائيلوف ، رضوان أبو الخل ، عمر خطاب الضاعي ، وحين وصلت إلى الاسم الأخير ، انفجرت ضاحكاً اذ تخيلت الاستاذ الدكتور جويسي وقد أقفل باب حجرته وأخذ يتمرن على العين والحاء والضاد بالجملة وبالمفرق وأنا أتلوى على الجمر في غرفة الانتظار وقد التهب خيالي بأهوال المحاكمة المقبلة ، وحمدت الله أن صادف انفجاري بالضحك محاولة يائسة للطفلة الكبيرة التي حسبت أن الحاء تلفظ من البطن لا من الحلق فانطوت على ذاتها وأخذت تشد على جسمها وعلى حلقها في وقت واحد مبتعدة كثيراً عن صوت الحاء الأصلي ...

هبّت الصغيرة لانقاذ الموقف وصاحت في احتجاج :

– نحن لا نعرف هذا الاسم ، وحين نكبر ربما نتعلمه في الجامعة .

جددنا الضحك وقلت للاستاذ :

– لا تتعب نفسك ، إن اسمي صعب بالنسبة للصغار .

قلت ذلك دون أن أعني بالضبط ما يمكن أن يفهم من جملتي ، ولا أدري من أين أتتني هذه العادة العجيبة ، فإن الناس كثيراً ما يفهمون من كلامي أشياء لا أقصدها تماماً مما يجرني الى متاعب لا أريدها ، وسرعان ما تنبهت الى ذلك حين صاحت الطفلة كأنها آلة موسيقية تتذكر نغمة معينة في منتصف اللحن :

– وكذلك لونه يا بابا ، أظنه أتى من أمريكا .

وهنا نظرت الى الأستاذ ، وكانت ابتسامتي قد تقلصت الى الحد الأدنى ، ولكن آلامي المفجعة في الداخل كانت مغطاة برغوة كثيفة من الضحك والتصميم على الضحك باعتباره الحل الوحيد الذي يساعدني على كبت هذه الآلام الهائلة .

أما هو فقد سارع الى تذويب الموقف كما فعل في المرة الأولى وخطر لي فوراً انه انسان ذكي وحسبت ألف حساب للمحاكمة المقبلة حين رأيته يصرف انتباه الطفلتين الى قضية جديدة ويستغل كلمة أمريكا أبرع استغلال :

ـ سأريكما من أين أتى هذا السيد ، ان بلاده حلوة فيها شمس دائمة .
هل تعرفان البحر الأبيض المتوسط .

قالتا معاً :

ـ لا .

واحمر وجهه كأنه تلقى اهانة ، أما أنا فكنت أحس أنني على فوهة بئر مظلم دونما سبب ظاهر .

وسارع الأستاذ يقول :

ـ اذن نذهب الى مكتبي ففيه خريطة كبيرة وهناك نرى جميعاً بلد السيد كهخليل .

وصاح صوت بريء :

ـ لن أذهب ، لا أحب رؤية الخرائط ، قل لنا اسم البلد وهذا يكفي .

هذه المرة نظر هو إلي ، كأنما يستنجد بي من ورطة فطن إليها في آخر لحظة ، قرأت في عينيه أنه اطلع على اضباري وعرف حتماً جنسيتي ومكان ولادتي ، أما أنا فكنت أغيب في دهور مجار بعيدة ساكنة ، أدرت بصري في الصغيرتين وخيل إلي أنني ارى اساطيل وجيوشاً وعيوناً زرقاً كثيرة وقتلى وجرحى وبيادر قمح واشجار زيتون وخيطاً طويلاً من البائسين يمتد الى نهاية الأفق .. ، وقطعت انسياب خيالي بسرعة حين شعرت ان الدعوة في داخلي تتبخر وان بركان الآلام المائلة أخذ يتململ ، كنت احس انه ، إذا تفجر ، كفيل ان يجرف الطفلتين البريئتين الى الطرف الآخر من العالم ، ولعل وجهي حينذاك اتخذ هيئة مخيفة فقد ساد الصمت لحظة ثم قال الأستاذ بلهجة مصطنعة مفرغة من اي احساس :

ـ هيا ايها السيد ، ألا تقول لها ما اسم بلدك .

كان همه الوحيد ان ينهي الموقف وقد سلمني المهمة بهذا السؤال . ولم لا؟ لقد مرت بي مواقف كثيرة من هــذا النوع ، وتعودت ضبط اعصابي ، حتى احس احياناً انني شخصيتان تتقاسمان جسداً واحداً وتتولى احداهمـا كبت الأخرى التي تجد لنفسها منفذاً من خلال كلمة عابرة او ومضة من خيال .

كان عبثاً ان اذكر لها اسم بلدي الصغير فهما لاتعرفان البحر الأبيض المتوسط على عظمته واتساعه ، وفطنت الى مفكرة صغيرة قابعة في جيبي منذ شهور وفتحتها على خريطة صغيرة فيها الوان مختلفة محيطة بلون أزرق في الوسط وقلت :

ــ ربما أحببتما ان تنظرا إلى هذه الخريطة الصغيرة ففيها الوان وحروف عجيبة . انظرا . هذا هو البحر الابيض المتوسط ، وهذه البقعة الصغيرة الى جانبه انها بلدي .

وصاحت الصغيرة :

ــ ولكنها بلا لون .

وقلت : نعم بلا لون ، وبلا أسم كذلك . لقد حكمت عليها محكمة عالميــة كبيرة ان تعيش تحت اسم مستعار ، وكان ذلك قبل أن تولدا بسنوات ، وحين تستعيد اسمها الأصلي سوف يخبركما ابوكما ، وسوف تذكراني أليس كذلك .

واستدرت لأخفي دمعة كانت تضايقني كذبابة ملحة منذ اول الجلسة ، وظنت الصغيرتان اني ذاهب فتعلقتا بيدي بحركة عجيبة واخذتا ترددان بلهجة ايقاعية :

ــ لاتدعه يذهب يابابا ، لاتدعه يذهب .

كان الاستاذ يقف كالمشدوه ، وفجأة ابعد الطفلتين عني وقال لهما :

ـ لقد احتجزنا السيد اكثر مما ينبغي ، وهو مضطر للذهاب ، ثم مد يده إلي مصافحاً وقال بلهجة نصف مفهومة :

ـ لنؤجل التحقيق الى وقت لاحق :

شعر

الرسالة السادسة

الى أبي الطيب

... في جوابه على الخامسة لاينسى أبو الطيب ان يخبرني أن بين من يلمّون بندوته في الجنة شاعر من هنا هو عبد الباسط.

... ولا يتهيب ارسال مقطوعة من الشعر المرسل قالها إيمانا منه بهذا الجديد. أثبتها مع الرسالة السادسة هنا ...

خليل الخوري

أبا الطيّبُ :

سلامٌ من دمشق إليك في الجنّه
تلوتُ بلهفة الصحراء للأمطار أنباءكْ
فغالت في دمي حزنى ، وأغوتني عن المحنه
اذا مامرّ عبد الباسط الصوفيُّ بالندوه
وكان يحبُّ أشياءكْ
فبلّغهُ عميق الشوق ، لاأنساهُ ، أفقدهُ
إذا كأسٌ طبَبَتْ ، أوسامرٌ سمرا

لنا ذكرى عهودٍ مرة حلوه
وأعبدُ أعبدُ الذّكرا
ألوفَ الودّ لافظنا ولا حجرا
أجل بلّغهُ ياشيخي ، لك المنّة
نودّع بعضنا بعضاً ، نعم ، يمشي
اواخرنا على هام الأوالي ، إنها السنّة
وأحمدُ راصدَ الأدهار أحمدُهُ
فقحطاً كانت الأكوانُ ، لو لمْ يخلقِ الشعرا

أبا الطيّب :

وراعتكَ الحداثةُ — قلتَ — في الشعر الذي جاءك
وانك ثُرتَ واستنكرتَ هذي الجرأة الرعناء
وانك صحتَ : أيةُ بدعةٍ خرقاء
بكاءٌ يا أباتمام إن الشعرَ في حوباء
عمود الشعرِ دكوهُ
صفاء الشعر عقوه
لَهَوا بالشعر عروةُ
ولأياً عدتَ تتلوهُ ، فسرّك بعد أن ساءك .

أبا الطيّب :

تقولُ : وصحتُ بلْ هذا جديدٌ لوعرفناهُ
على منوالهِ كنا نسجنا ما كتبناهُ
ووفّرنا علينا الحشوَ ، لم نُطنبْ

فما فيه خروجٌ يطعن الآباءْ
وفيه ملامحُ الأبناءْ
ذكيٌ فيه مانهوى من الإيقاع ، لاإكراهَ ، لاعنوه
فما تأتي قوافيه على قسوهْ
يثير القلب ، يرضي العقلَ ، فيه فطرةٌ حلوه .

أبا الطيّب :

تلوتُ بلهفة الصحراء للأمطار انباءَكْ
وحين تلوتُ ماغنمتَ من هذا الجديد ، عرفتُ ما النشوه
أنا في الذروة الذروه

* * *

«وكان عليٌّ (١) إما صيحَ واستقاهُ يسرجُها
يهبُّ دؤوبَ الأيامَ لايهدأ
إذا لم يطوِ عاديَها بباغيها ، ويفرجُها
اذا اعتاصتْ . فلم تعرفْ به ذلاً
بوادينا . وكان بنار عزمته يؤججُها
فلا الأبراجُ ابراجٌ ، وليسَ لمن عتا ملجأ
وكان عليٌّ كابوساً ينغص ليلَ من يغفو
على شرٍّ يريد به ثغور المسلمينَ وكان لايفتأ
اذا جمحت لهُ فرسٌ ، تهيّبَ وجهة القدرُ
عليٌّ إنه السيفُ
عليٌّ إنه غوثُ اليتامى إنه المرفأ

---

(١) سيف الدولة .

فان تطلبْهُ تلقَهُ حيثما الخطر
وبوقاتِ سواهُ كانَ ،
كانَ بعيضُ ناسِ زمانهِ طبلا[1] . »..

* * *

أبا الطيب :

ونحنُ نصيحُ من عامِ التزوحِ ولا
عليٌّ يجيب صيحتنا وينتصر
ونحن نلوبُ علَّ عليٌّ ينجدنا وننتظرُ
وكلُّهم عليٌّ ماله مهرٌ ولا سيفٌ ولا وترُ
يُقالُ لنا : هلموا الملتقى حيفا
ونُلفي أننا سرنا ومن قالوا
على الشرُفات مازالوا
يسومون الورى خسفا
فان ليموا رأيتَ البطشَ والعسفا
لترحمَهُمْ لو انكَ كنت ديّاناً وتغتفرُ
همُ الضعفاء إلا في مقارعة المساكينِ
همُ الفرسانُ في كنزِ الملايينِ
أغصُّ أغصُّ فاعذرني أبا الطيّبْ
وهذي الكأسُ تاسعةٌ ، ونور الفجرِ يطويني

(١) ما بين الهلالين محمول على أبي الطيب .

في الطريق

« الى فتاة من القنيطرة »

ممدوح عدوان

رأيتك أمس عابرة

وكنت غمامة بيضاء تغمرني

مررت ، وكنت ترتعشين

مثل نوافذ الأكواخ في المطر

لففت الغربة السوداء شالاً باكياً

ومضيت بين الأهل والمحن

وغلفت البكاء ببسمة صفراء كالمدن

* * *

عبرت ...

وكنت ناعمة .. وقاسية

عليَّ كقسوة الريح

أحاطت هالة الشهداء والأيتام عينيك

عبرت مليئة بالدمع في خفر :

ضباباً مثقلاً في غابة الشوح

دموعك ملء خطوك ، ملء خديك

حقنت تنهدات اليتم في ألم

كما تتكوم الأنسام في الأيك

حملت دموع من ماتوا

حملت صفاءهم

وحملت أحقاد المجاريح

وجئت إليَّ أول من يجوس الأرض عن نوح

* * *

رآك الأصدقاء ، وحدثوني عنك ،

قالوا كنت كالجرح

وكنت الثأر الجموح

وكنت ضماد جرح راعف سمح

نزيفاً صامتاً في زمهرير الحزن عذبني

رأوك وحدثوني ،

كنت قد أطفأتُ صوتك في ضجيج الغانيات

وظلمة الحانة

فعدت إليّ رائحة من الأرض
غناء متعباً ضيّعتُ ألحانه
ولم أجرؤ على طرح السؤال ،
ورغبتي كالقيظ تخنقني :
ترى كيف الجبين ، وضحكة العينين
بين الدمع والمحن ؟!
ترى ما زال في قسمات وجهك بؤس أرملة
وغبطة طفلة سمحاء كالمزن ؟!
أيا ماض تعتق ذكريات وانتهى رعبا :
فكم كنا ندوس على الطريق ولا يُرى من خطونا أثر
ولكن الطريق يظل كالحبلى :
تموج بنا ، وينتظر
ونحن نموت .. والأضواء تحتضر
وأنت كدمعة تسرين حائرة بلا خد
أود .. أود .. لو نزلت على زندي
. . .
وكنت يتيمة قبل المآتم ،
كيف أصبحتِ ؟
لو انك مرة في الحلم لوحت
قتلت لدي حتى وقفة الطاووس والديك :
« ماهي بشيل الفشك
« وصفوف هين وهين
« الرجّال يخلص ولفه

«من بين طابورين

ندهتك مرة لما على ابوابنا لحت

وأغلقتُ الكوى .. وصفقتُ أبوابي لأبقيك

ولكن التراب . انساح من تحتي

مررت كما يمر الظل في أقمارنا ليلا

حلمت بأن أراك لكي أهدىء رعشة خفقت بكفيك

يضيء الخوف لي دربي ويبعدني عن الخطر

فأمسح ذلك الخوف الذي يبكي بعينيك

وأنت سخية عزلاء كالمطر

* * *

بحزنك تشربين طفولة الأيام والنغم

ويأبى المجد ، تأبى الارض شرب الدمع والدم

فتجتمع الدماء وتضرم النارا

أرطب من نداك جفاف احلامي

وأحييها .. لتصمد ان لقت حرا

وتولد منك آلامي رؤى مشدودة سمرا

تضوىء درب من وسط الدجى عبروا

ومن كنا بكيناهم

وتنهض وحدنا ، وعلى الجراح نقوم نتكىء

ونبتدىء

فتحمر السماء بنا وتنهمر

ويلتفت الطريق إلي والشجر

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي او الجوي وفق الطلب .

المعتدون الأبرياء

د. عفيف بهنسي

رغم احكام نورمبيرغ واعدام الطغاة
رغم آثار الحروب وذكرى الدماء
وفي ظل احكام الشريعة ونواب الامم
مازال في الأرض عابثون
ينعمون بالشر ويجزون على الخطيئة

هذه لوحات لأشتات الفنانين في العالم سجلوا عليها آثام العدوان الذي يتكرر اليوم على ارضنا ويقوم به نفس الذين حاكموا مجرمي الحرب السابقة .



الحر يعرف الحقيقة

ويبني اعشاش المسرة في الحياة

ويحلق فوق افراح الربيع

بعيدا عن الخوف والجريمة

اسراب الطيور البيضاء

ضمير انسان معذب

عاش آلام عدوان رهيب

في غيبة الحق ويأس الصمود

سنعود في يوم قريب

نبني اعشاش المسرة والهناء

على افانين الغابات الشماء

في الارض المحتلة



ويفيق المارد الاسمر
ويشق صدر التاريخ ويصعد
من ضمائرها ، من عذاباها ، من آمالها
نحن الشعب
مارد جبار ، نحن الشعب
الشعب من دون حدود ودون قيود
نهتف للعودة
نجر الآمال فوق النكسة .
وتقضي اليد نحو النصر .
جبار نحن الشعب المارد
جبار اذا أفاق واتحد
ليست اسطورة صفحات التاريخ
ليست خدعة ، والواقع يشهد .



افراح الشعب يسجلها تاريخ السعي والعمل المثمر

والنصر لمن يكتسبه ، لمن يشتاه ولا يسأل

ماذا وراء الجد سوى النصر

وليس وراء العقم الا الدود والموت

العاملون تحت الارض في المنجم

والباذلون الجهد في الحقل والمعمل

هم عدة الأجيال لبناء غد مشرق

غد الافراح والامن والازهار

يضج مع رقصات صبايانا

يعلن مراسم العيد الأكبر

عيد الشعب المظفر .



العيد العيد بل اكثر

لاحد لأفراح ولا بعد النصر الأكبر

اعلام طوابير النصر تهز اجنحة الشعب الثائر

تدفعه مع التيار الى الامال

الى الذروات

ليست نكسة

بل جرح الأبطال يفدون القضية

بل ثمن النصر الأكبر

سنفرح بعد اليوم ونشدو

وستملأ الألحان اصداء العالم



النابالم تحرق الآمنين

تدك بيوت الآمنين ومصحات الناقهين

وهي تحرق الحديد وتفني اطراف الاسود !

هذه النابالم في الحروب .

أما في التاريخ

فهي صفحة سوداء

صورة الاخلاق والوجدان المريض

اداة الجبناء يهابون الرجال

ليست نصراً

ليست بطولة

بل صيغة الجريمة الجديدة

في عدوان اسرائيل



النابالم تحترق العفاف

تسحق الامومة تفتت اكباد النساء

تذيب اطفال الجنة الأبرياء .



الضمير في العالم يخجل

يبكي آثام (دايان) القرصان

بصوت لا يسمع

لانه يخشى مخالب الصهاينة المسمومة

تنهشه بأنياب الصحافة الموسومة

تغتاله ، تدنس اخلاقه

او تشتري صمته بالمال وتساومه

وسيبقى رغم اساليب الغدر والارهاب

ضمير في العالم يخجل



القابعون وراء كواليس الامن

في مجمع الشعوب وانصار الشرف

المدافعون عن الحقوق في هيئة الامم

لم يسمعوا صوت الألم

لم يروا آثار اكباد الصغار في المعبد

لم يشهدوا الدموع تسقط كالشهب

وضاع الرجاء خلف اطماع الكبار

ومرت جنازة الحق على ايدي الحماة

وصارت هيئة الامم مقبرة الآمال

لآلاف المعذبين المدافعين عن الحق والشرف



سنحيي اجيال المستقبل

فـم بدفع متقالة الشعب دماً

سنرفع راية الشعب العربي الأكبر

فوق اشلاء الطغيان والنكسة

الزاحفون نحو حتوفهم من تل ابيب

لن يفرحوا بالكسب الحقير

لن يطول دعم البغي للبغي الذليل

نحن هنا على ارض الجدود

نحن هنا واحفادنا الى الابد

لنا كل ذرة من ارضنا وتراثنا

لنا الحق ، والحق قديم



يموت الشهيد بيننا ويحيا من جديد
لن يفنى ثوار ايمان عريق
الخالدون يقاتلون ويقتلون
ثم يقاتلون ويقتلون
وتعشش أرواحهم في بأسنا
لتطلق اطيار الفرح
في الجولة الاخرى يوم يجتاح الدخيل
جيشنا الباسل في القتال
جيش شعب لايموت
وسيبعث من جديد رتل الشهيد
يغني افراح الرجال والصغار
بعيد النصر ، عيد آمال شهيد
واحلام آلاف القلوب خلف الصدور
خلف الدروع يوم النفير .

معارض فنـيّة

مِن وَحي المعركة

غـازي الخـالدي


(صامدون) للفنان صلاح طاهر

في الجمهورية العربية المتحدة

المعركة مستمرة ... والفن يعيش المعركة بكل ابعادها ، ولقد كان لهذه الهزة القومية ردة فعل ايجابية رائعة في وجدان كل الفنانين العرب .

ففي الجمهورية العربيــــة المتحدة اقيم معرض متجول على غرار المعرض المكشوف الذي اقيم في ساحة يوسف العظمة في دمشق ،واشترك بهذا المعرض اساتذة وطلاب كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، و كذلك اعضاء اتحــاد خريجي الفنانين ، وجماعة الاتيليه ، وجمعية محبي الفنون الجميلة .



(فلسطين) للفنان زهران سلامة

وقد كان لهذا المعرض أبعد الاثر في نفوس المواطنين حيث كانوا يرون انفسهم وبطولاتهم من خلال خطوط والوان فنية كانت دائماً بعيدة عنهم ... تعيش على جدران الصالونات والمتاحف .

وكان مجموع اللوحات التي رسمت لهذه الغاية في حدود مئة لوحة ، وقد بدأت الصحافة والمجلات المصرية تنشر بعض هذه اللوحات في الصفحات الاولى من صحفها ومجلاتها تقديراً لهذا المجهود الفني الأصيل الذي رافق بصدق وبحرارة وبايمان المجهود الحربي . ونذكر هنا لوحات الفنانين : الحسين فوزي ، وحسين بيكار ، وصلاح طاهر ، ومأمون ، وزهران ، وعبدالعزيز درويش ، ويوسف فرنسيس ، وصلاح عبدالكريم ، وجميع رسامي مجلتي (روز اليوسف) و (صباح الخير) .



(صراع) للفنان صلاح طاهر

ان الفنان لايمكنه ان يقف مكتوف الايدي وهو يرى الحق يغتصب ، والأرض تسلب ، والوطن الغالي يعتدى عليه .ودوره في المعركة لايقل عن دور الجندي في المعركة . . ومسؤوليته في التوعية ورفع معنويات الشعب مسؤولية ايجابية وفعالة الى حد كبير ، خاصة وان لغة الفن لغة بسيطة مفهومة ومباشرة بالنسبة لجميع افراد الشعب .. فهي اللغة التي لاتحتاج الى شرح او تفسير .. لغة تشكيلية مباشرة تصدر من القلب لتصل الى القلب ! تعتمد على الصورة المفهومة .. الصورة التي ترسم الاحساس وتوضح الشعارات ، وتعكس آمال المواطن في التطلع الى النصر ... والصورة ابقى للذاكرة من الكلمة لانها اسهل للحفظ

وامتع في التذكر وايسر في عمليات التداعي . . من هذا المنطلق تبدو أهمية اللوحة في المعركة .

في لبنان :

وفي لبنان ايضاً قامت حركة فنية واسعة ترافق القضية وتشارك في المعركة بشكل ايجابي وفعال ... رغم ان الاتجاهات الفنية في لبنان كثيرة .. واكثرها شيوعاً هو الاتجاه التجريدي الحديث ..! لأن الفنان اللبناني تجاوز نفسه ، وفلسفته الفردية .. وانطلق من مفهوم قومي عام واحد .. هو الفن من اجل المعركة . وقد انعكس ذلك في الصحافة ، وفي معارض فردية ، وجماعية ، منها مااعتمد على الكاريكاتور او الرسم التعبيري الذي له صفة توضيحية ، وقد ركزت جميع الرسوم التي تم انجازها في هذه المرحلة في لبنان على توضيح دور الاستعمار الامريكي في العدوان المبيت على الوطن العربي ، والجدير بالذكر ان روح التهكم كانت مركزة على تمثال (الحرية) الذي يمثل التناقض الذي تعيشه الولايات المتحدة الأمريكية .. بين الشعارات التي تنادي بها وبين اعمالها الفعلية في الفيتنام وفي الوطن العربي ، اما الرسوم التعبيرية فقد تركزت على ابراز مقاومة الشعب العربي في صد العدوان وفي مقاومة التآمر .

وقد اقيمت هذه المعارض بعدة اماكن من المدينـــة الا ان الدور الايجابي الذي لعبته الصحافة في الرسوم اليومية التي كانت تنشر لترافق الاحداث يوماً بيوم ، كان اكثر فعالية بالنسبة للمواطنين ربما لانهـا كانت اكثر انتشاراً واسهل تناولاً بالنسبة للقارىء .

ان هذا النوع من الفن يعتمد على الفكرة المركزة وعلى اللقطة الذكية التي تعبر عن فهم دقيق ، ووعي سياسي جيد ، حيث يركز الفنـان على ناحية

معينة ؛ يبالغ في ابرازها على حساب النسب التقليدية للاشكال ، وهذا لايعني بالطبع ان الرسوم التعبيرية تشترط هذا التحوير ، وانما تبقى هذه الاجتهادات متروكة لطبيعة اساوب الفنان الذي عرف به . حتى التجريديين - كما رأينا في اعمال الفنانين في مصر مثل صلاح طاهر - استطاعوا ان ينقلوا تجربة الحس القومي الى اشكال ومعطيات تجريدية عبرت بشكل ما عن احد ابعاد المعركة ، وقد رأينا ذلك ايضاً في اعمال الفنان السوري (فاتح المدرس) حول المعركة ايضاً فاللون هو الذي قام مقام الشكل ، والبقعة حلت محل الموضوع .

ومن الفنانين اللبنانيين الذين لعبوا دوراً هاماً في هذه المرحلة سواء في في الصحافة اللبنانية او في المعارض : رفيق شرف وبول غراغوسيان اللذان قدما اعلانات ضد قنابل النابالم، رسمها الأول بأسلوب تعبيري باللونين الأبيض والاسود، والآخر بأسلوب قريب من الواقعية باللونين الأسود والأحمر .

في سورية :

أما في سورية العربية فلا تزال الحركة الفنية تعيش المعركة بكل احاسيسها، فقد تبلورت عدة ظواهر هامة نتيجة لهذه التجربة القومية العنيفة .

١ - وضعت اللبنة الأولى لتأسيس اول اتحاد للفنانين التشكيليين في القطر ، وانتخبت لجنة تحضيرية من أجل ذلك ، وقد كان من المعروف فيما مضى ان العمل الفني يتم في فردية مطلقة ، ويعيش الفنان على هامش هذه الفردية حتى في سلوكه الشخصي ، الا أن هذه الاعتبارات كلها ذابت في بوتقة المصلحة القومية والوعي الوطني .

٢ - طرحت عدة مشاريع للتنفيذ ، منها اصدار طوابع من وحي

المعركة ، واقامة معرض للتصوير والنحت في عواصم اوروبا ، ومعرض آخر للتصوير الضوئي الوثائقي الذي يبين بالصور الدامغة حقيقة وحشية العدوان ، وسترصد ريع اللوحات التي ستباع لصالح المجهود الحربي ، كما انه وضع مشروع اصدار كراسين ، كراس علمي يوضح تاريخ الحركة الصهيونية في العالم ، والثاني حضاري يمثل الجانب الجمالي والانساني في حضارة الامة العربية ، كما ان هناك مشروعاً اعد للتنفيذ وهو طبع بطاقات بريدية ملونة انيقة مأخوذة عن اللوحات الفنية التى ستعرض في عواصم اوروبة .

ان ابرز صفة في كل هذه الاعمال هي الروح التعاونية والاندفاع الصادق الذي تميز خلال هذه الفترة ، وهي بداية جيدة لعمل في جماعي منظم .

معرض ألمانيا الديموقراطية :

ان التأييد الذي ظهر من الدول الاشتراكية الصديقة لم يقتصر على النواحي السياسية والعسكرية وانما اخذ شكلاً ثقافياً وفنياً ايضاً ، فقد اقام المركز الثقافي لالمانيا الديمقراطية بدمشق معرضاً فنياً وثائقياً بعنوان (نحن نقف الى جانبكم بقوة وحزم) .

اعتمد المعرض على اربعة عناصر هامة :

اولاً ـ الصورة الفوتوغرافية المأخوذة من المعركة وهي تمثل وحشية العدوان في استعماله قنابل (النابالم) ، والطرق الفاشية الارهابية التي استعملها في ضرب الاماكن الآهلة بالسكان المدنيين . هذه الصور كانت كافية وحدها لتفضح الاستعمار الثلاثي وتوضح مدى الجريمة الانسانية التي ترتكب في قرن الحضارة والمدنيـــة باسم الدفاع عن حق مزعوم ، (حق اسرائيل) بالاعتداء على الشعب العربي هذا الحق الذي دعمته امريكا وبريطانيا . والصور بحد ذاتها تثير

كثيراً من النقمة والثورة والحقد المقدس ، خاصة وان الملامح التي تظهر بعد حرائق النابالم تكاد تمحو الانسان وتنقله الى صورة مشوهة لقطعة فحم سوداء ذات فقاعات صفراء كانت الى وقت قريب تسمى عيوناً ، فالانسان لم يعد انساناً على الاطلاق والصورة لم تعد صورة ، والمعرض لم يعد يسمى معرضاً بالمعنى الصحيح .

لقد كان صورة مصغرة عن تفسخ الحضارة وتشويه معنى الحرية في مفهوم المنطق الاستعماري .



(الى النصر) للفنان جمال كامل

ثانياً – الصور التي تبين المعونة الفعلية التي وصلت من المانيا الديمقراطية ايماناً منها بعدالة القضية . وهذه الصور تمثل الشحنات الطبية والاعانات العينية التي ارسلتها حكومة وشعب المانيا الديمقراطية .

ثالثاً – الوثائق الخطيرة التي نشرت في بعض صحف العالم الذي تآمر علينا ، والتي تدين اسرائيل وتؤكد تواطؤ بريطانيا وامريكا والمانيا الغربية وخاصة الوثيقة التي نشرت في الصحف الالمانية الغربية والتي تدعو صراحة الى اعانة اسرائيل .

رابعاً – قدم المعرض في ركن خاص مجموعة البرقيات والصور و كتب التأييد والرسائل المتبادلة بين شعب المانيا الديمقراطية والشعب العربي ، مع قصاصات من الصحف المؤيدة للحق العربي في فلسطين .

ان الاخراج الفني لهذه الصور والمخطوطات اضفى على المعرض جواً من المأساة المشوبة بالغضب ، المأساة التي ستفجر طاقات الامة العربية مرة واحدة لتدمر كل قواعد العدوان مرة واحدة ايضاً ، لقد لفت نظري طريقة تداخل الكتابة مع الصورة الفوتوغرافية بشكل فني دقيق .

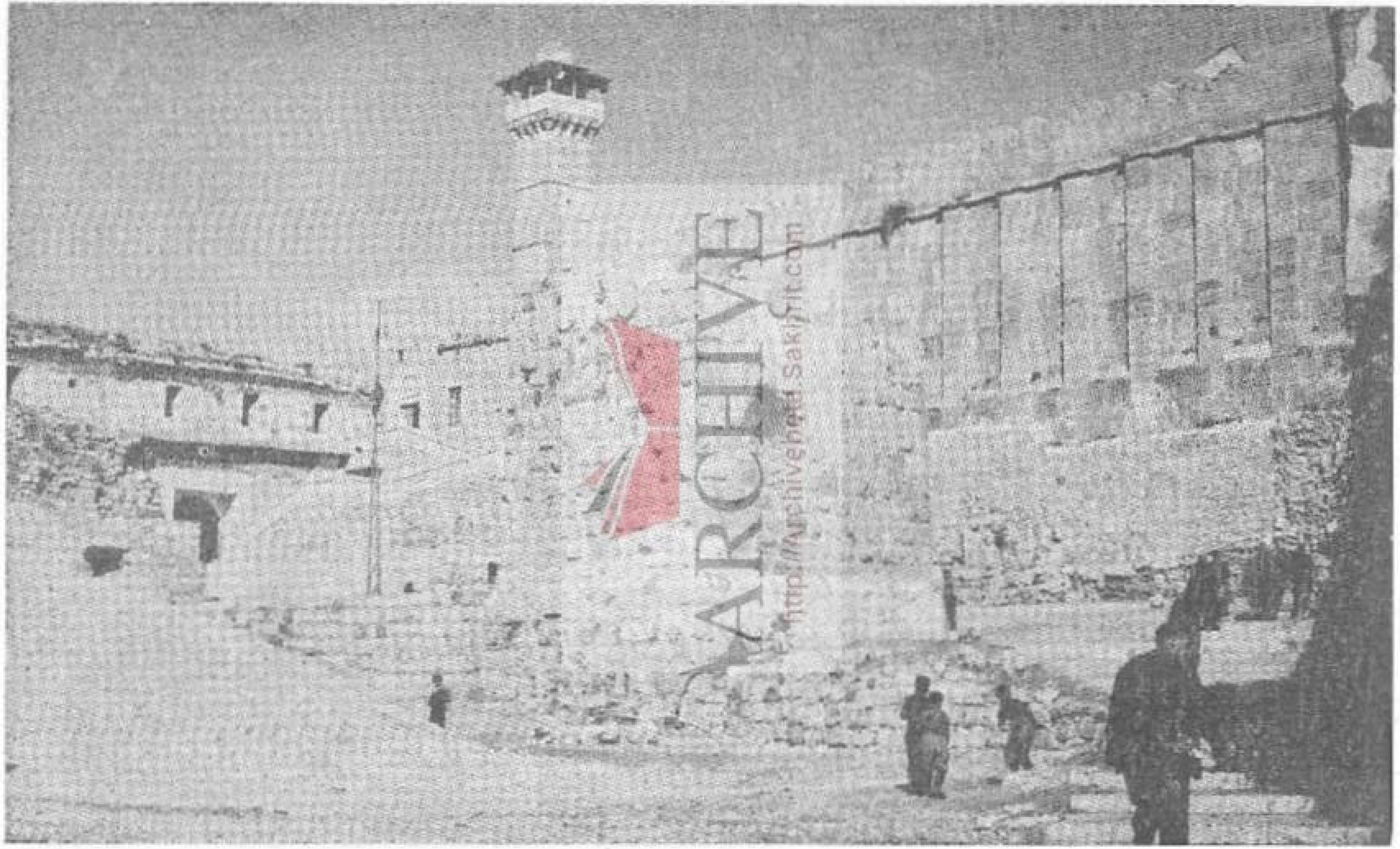
لقد كان معرضاً فنياً وثائقياً وسياسياً ناجحاً ، وكم نتمنى لو نقيم نحن مثل هذه المعارض الوثائقية في جميع انحاء العالم لاظهار الحق المشروع لكل انسان حر وشريف .

نتيجة للعدوان الصهيوني الغاشم على البلاد العربية سقطت مقدسات عزيزة على قلب كل مسلم ومسيحي في العالم في أيدي الغزاة الاسرائيليين .

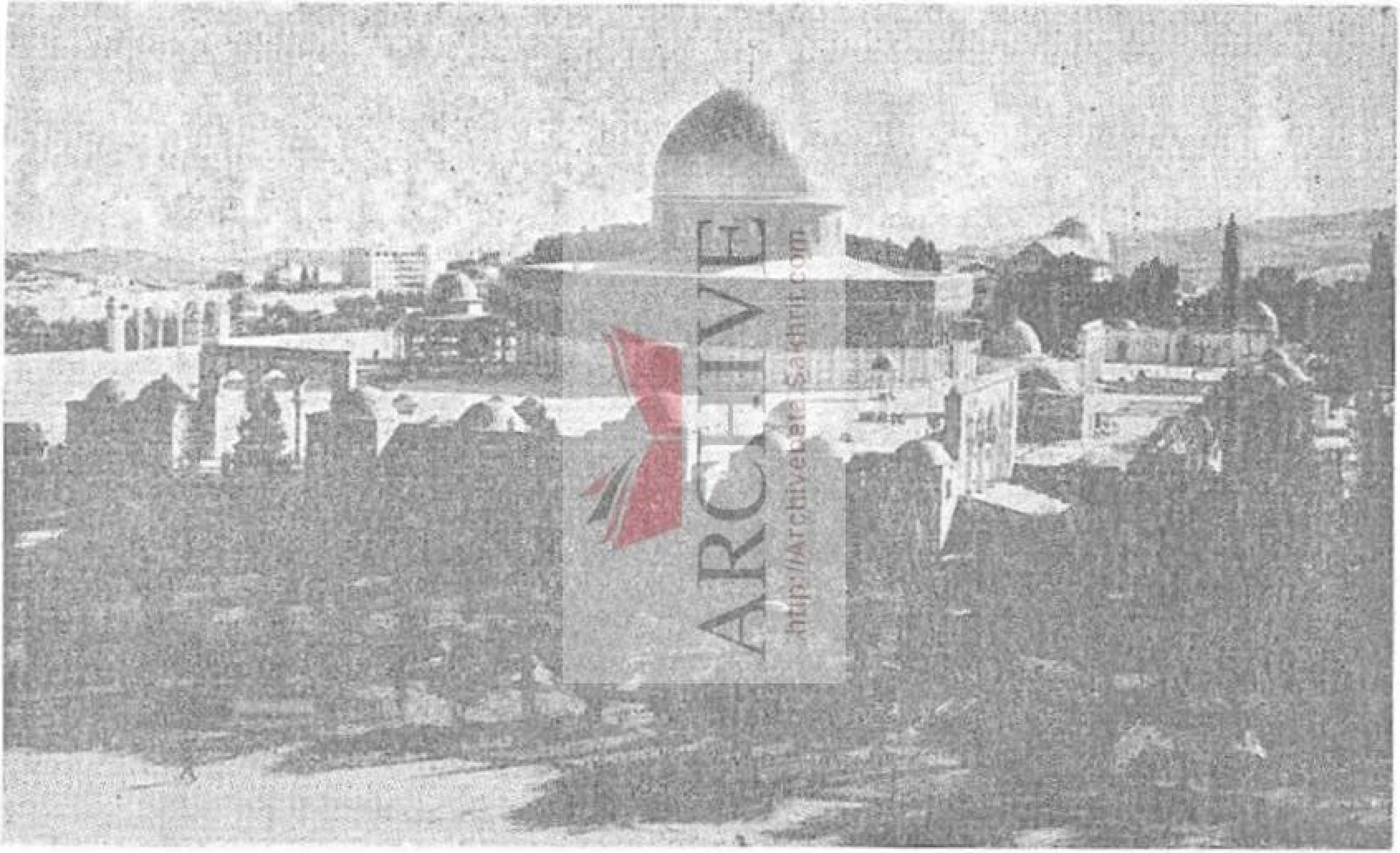
وهذه صور لبعض تلك المقدسات الاسلامية والمسيحية ، تنشرها المعرفة ، وهي تهيب بالضمير العالمي وبشعوب العالم التي تحرص على هذه المقدسات أن تنهض لحمايتها والدفاع عنها ، ومساعدة البلاد العربية على استردادها من أيدي الغاصبين المعتدين .



مدينة القدس – كنيسة القيامة
يقدسها جميع المسيحيين في العالم على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ، وتسمى أيضاً كنيسة القبر المقدس

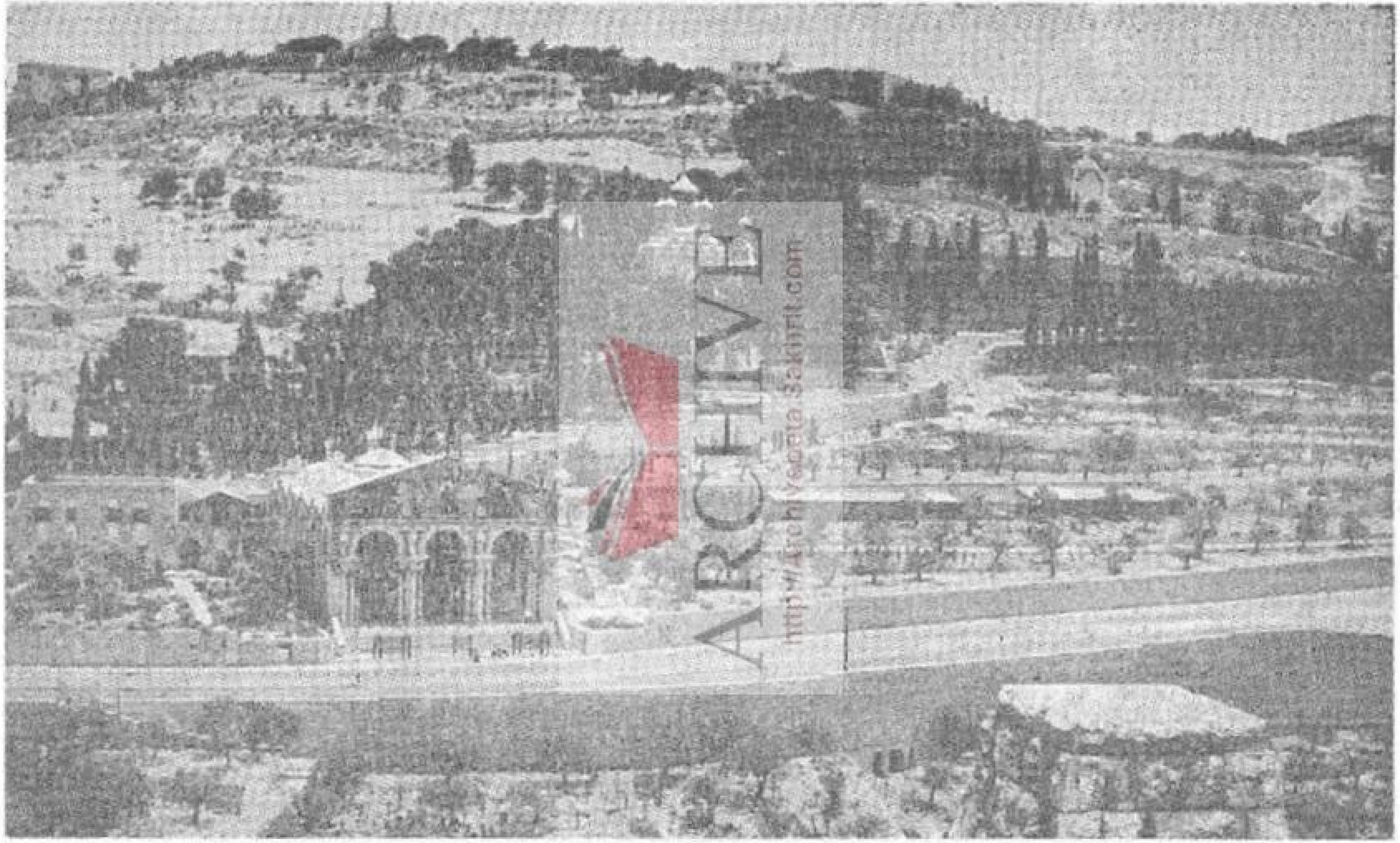


مدينة الخليل – الحرم الابراهيمي الشريف
يعتبر الحرم الابراهيمي الشريف من الآثار الاسلامية العظيمة وقد بني فوق مغارة تشتمل على قبور طائفة من الأنبياء



مدينة القدس – مسجد الصخرة المشرفة

جمال الهندسة العربية ورقي الذوق العربي الاصيل



مدينة القدس – كنيسة الجثمانية

أجل كنائس القدس ، وتقوم على سفح جبل الزيتون في المكان الذي قضى فيه السيد المسيح آخر لياليه

في المكتبة العربية

مجلة المجلات

محاولة استشراقية

هادي العلوي
- بغداد

تنازعت الدراسات الاستشراقية عوامل عديدة كان لها اثرها في تكييف مناهج الدارسين وفي تحديد مناهج البحث . . يمكننا باختصار أن نلم بهذه العوامل فنشاهد في طليعتها ظهور المستشرقين في بيئة يحكمها التعصب المتبادل بين الاسلام والمسيحية ، وقد رسخت روح التعصب وزادت من حدتـــه تلك المشاعر العدائية التي خلقتها النزعات الدامية بين اتباع العقيدتين ؛ الامر الذي أنتج في مجرى الاستشراق ما اسماه

بعض المستشرقين فيما بعـد : دعاية حرب War Propaganda . و إلى هذا العامل يرجع الكثير من الافكار التي روجها غلاة التعصب الديني من المستشرقين امثال الاب لامانس .

العامـل الثاني ان كتابات المستشرقين تنطلق من التفسير الرأسمالي للتاريخ . ويرجع ذلك الى المرحلة التاريخيـة التي نشأ فيها الاستشراق ، وهي مرحلة نمو البورجوازية وسيطرتها كنظام اقتصادي و فلسفة اجتماعية. ومنهج الرأسمالية في تفسير التاريخ خليط غير منسق من الافكار يتعايش فيـه التفكير العلمي مـع الدين و المثالية و النزعات الفردية، وهو على العموم أقرب الى المنطق المثالي منه الى المنطق العلمي . ومع ان تطور الرأسمالية اقترن بتطور العلم و الثورة الصناعية فان المجتمع الرأسمالي لم يألف سيادة الروح العلمي الا في ميادين العلوم التجريبيـة . اما في الدراسات الانسانية كعلوم الاقتصاد والسياسة والتاريخ والاخلاق فان تأثير الروح العلمي كان – ولا يزال – ضئيلاً . وهذا الازدواج من خصائص المجتمع الرأسمالي . فالرأسمالية التي تطلب ظهورها عـلى مسرح التاريخ درجة عالية من التطور التكنيكي لم تكن في حاجة الى تبدل جذري في الفكر الاجتماعي لكي تمارس دورها المرسوم في الحياة الانسانية. لقد كان بامكانها ان تعيش على التراث الفكري الذي خلفته النظم الاقتصادية السابقة . ولا يعبر مفكرو الرأسمالية – الا ضمن اعتبارات شكلية تتعلق في الغالب بلغة واسلوب البحث عن شعور بالتناقض مع الخطوط العريضة لهذه المخلفات . اما سر هذا التعايش بين الفكر القديم فيكمن في **اشتراك هـذه النظم في قاعـدة مادية واحدة هي الملكية الفردية لوسائل الانتاج ،** في حين يكاد الفرق بين الرأسمالية والنظم السالفة ينحصر في اتباعها اسلوباً جديداً في استخدام هذه القاعدة ، مستمداً من طبيعة الانتاج الرأسمالي .

لاغرابة اذن اذا عجز الاستشراق عن تقديم تفسير علمي لظواهر التاريخ الاسلامي اما وقد ارتبط – منذ نشأته وحتى الآن – بمنهج مناقض بطبيعته لهذا التفسير .

تأتي بعد هذا الى عقدة الشعور بالتفوق ونتاجها المباشر ، الفلسفة الفرقيـة ، التي سيطرت على الاوربيين منذ خرجوا للعالم بحضارتهم الحديثة . . ان الفتوحات الواسعة في العلم والصناعة واستعمار الجزء الاكبر من قارات الدنيا الهمت سكان القارة الاوربية الاعتقاد بتفوق الجنس الآري ، والذي كان من مضاعفاته احتقار الشعوب غير الاوربية – والشعوب المستعمرة على وجه الخصوص – والنظر بازدراء الى منجزات الحضارات العالمية السابقة . وقد تزاوجت هذه العقيدة مع خطط الاستعماريين الهادفة الى اغلاق

منافذ الوعي دون الشعوب المستعمرة وتأكيد خرافة النقص الطبيعي في تكوينها العقلي . وعلينا ان نعترف ان قادة الاستعمار الغربي قد احرزوا – بالتضافر مـــع مفكري البرجوازية– نجاحاً كبيراً في هذا المسعى(١). وهكذا سيطر على اوساط الرأي العام المثقف في أوربا والبلدان التابعة اعتقاد جازم بأن العقل الاوربي وحده قادر على إنتاج الحضارة ولقد وقف هذا الوهم بقوة في وجه أي عمل تاريخي يعتمد على افتراض مشاركة شعوب العالم في خلق الحضارة انطلاقاً من القول بحقيقة تماثل العقل البشري وعدم اختلاف مستوياته باختلاف الاجناس والأعراق .

ان هذه الظاهرة طغت – وتطغى إلى الآن – على دراسة التاريخ في اوربا . وقد صرح المؤرخ الامريكي المعاصر جورج سارتون ان الدراسات التاريخية لم تكتب حتى الآن بروح عالمية . ولاحظ بأسف ان التاريخ العالمي قد كرس حصراً لمنجزات الجنس الآري وان كل مافيه يدور حول تطور اوربا . وقد زيف سارتون هـــذا الاتجاه في كتابة التاريخ وقال ان تاريخ الجنس البشري يظل ناقصاً اذا هو لم يتضمن في مستوى مماثل لما يتضمنه من تجارب الغرب التجربة العالمية القيمة للشرق (٢) .

من الصعوبات التي واجهت المستشرقين انهم يدرسون تراثاً واسعاً مكتوباً بلغة غير لغتهم . ومع ان غالبية رجال الاستشراق يتكلمون العربية ويقرؤونها وربما توصل بعضهم الى الكتابة بها فان جانباً مهماً من جوانب اللغة يبقى عملهم بالذات ، وهو الجانب الاصطلاحي فيظل في اغلب الحالات مغلقاً

---

(١) كان لإفريقيا حصة الأسد من خطط مزيفي التاريخ ! وانقل للقارىء فقرة من مقال للكاتب السوفييتي أ . بوتخين تحدث فيه عن المعضلات التي تواجه كتابة التاريخ الافريقي . قال بوتخين : « ان الأدب الاوربي الغربي المعني بتاريخ افريقيا هو واسع جداً . ولكنه لم يعن بتـــاريخ الشعوب الافريقية بل بالاحرى بتاريخ الامبرياليين الاوربيين ، تاريخ النشاط الاستعماري . وباستثناءات قليلة جداً فان جميع البحوث والمؤلفات التي كتبهـــا الباحثون الاوربيون الغربيون توحي بأن تاريخ الشعوب الافريقية يبدأ من تلك اللحظة التاريخية التي وضع فيها اول اوربي قدمه على القارة . وتلبية لأوامر المستعمرين فان هؤلاء الباحثين يعلنون أن الشعب الافريقي لاتاريخ له ولا ثقافة . »

انظر : مسائل أساسية في تاريخ الشعوب الافريقية . مجلة المثقف البغدادية . العدد الصادر في شهر كانون الاول ١٩٦١ .

(٢) George Satton: The Life of Science N. Y. 1948 Part one p. 56

في وجوهم . ولا يتوصل الى هذا الجانب بالدراسة الاعتيادية للغة لأن المعاجم لاتتناول المعاني الاصطلاحية للمفردات الا في نطاق ضيق . ان اكتشاف هذه المعاني لايتأتى إلا من خلال معايشة طويلة للتراث المدون ، كثيراً مايعيا الاجنبي عنها لكونه غريباً عن التراث (١) . اضف الى ذلك ان الاتصال المباشر بالحياة الاسلامية المعاصرة وهو وسيلة مفيدة لمن يريد ان يتعمق روح اللغـة والتاريخ لم يتهيأ للأكثرية الساحقة من المستشرقين (٢). وتبدو مشكلة اللغة على أشدها في موضوعات تكتب غالباً باللغة الاصطلاحية كالفقه والفلسفة والادب . وقد عانى المستشرقون في تناولهم هذه الموضوعات كثيراً من الشعور بالغربة الأمر الذي وسم استنتاجاتهم بالسذاجة والسطحيـة ، المستشرقون عجزوا عن كشف أي جانب ايجابي في تاريخ الفقه الاسلامي ، ولم يتبينوا من الفكر الفلسفي في الاسلام إلا انه نقل للتراث اليوناني . وفي حقل الأدب ، فشل المستشرقون في تقديم التجارب الحية للشعر والنثر العربيين الى مواطنيهم. وكان الانطباع الذي خرج به الرأي العام الأدبي في اوربا بفضل جهود المستشرقين لايزيد على ان الادب العربي أدب عقيم . والعقم في اعمال النقلة وليس في ذات الأدب . فليس في الدنيا أدب عقيم . ان لكل شعب من شعوب الارض في أية مرحلة من مراحل تطوره القدرة على انتاج الأدب الحي . وقد خلفت الشعوب المتخلفة في كل مكان أدباً لايقل أصالة عن الأدب الذي أنتجته أرقى الأمم حضارة ، وليس العرب بدعا في الامم والشعوب ... هذا ملخص بأهم ما اعترض طريق المستشرقين من معضلات . ولعل من المفيد ان اروي الآن التجربة المثيرة التالية :

بحث المستشرق الهولندي يوليوس فلهوزن في تاريخ الضرائب الاسلامية . وأدى به البحث الى نظرية مفادها ان العرب لم يعرفوا الضريبة كنظام مقنن الا في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة أي بعد اتصالهم بالبيزنطيين واطلاعهم على نظمهم الضريبية .

(١) غريباً لا باعتبار المفارقة في الدين او الجنس وانمـا بالنظر الى التفاوت في البيئة التاريخية .

(٢) وحيثما توفر الاتصال كان بوسع المستشرق ان يحقق درجة اعلى من النضج في دراساته . وحسبنا ان نذكر مثلاً على ذلك ماوصل الينـا من تجارب المستشرق السوفييتي كراتشكوفسكي (١٩٥١ م) الذي قام برحلات طويلة لكل من لبنان ومصر وسوريا ودرس مخطوطات خزائنها واتصل برجال الدين والبحث والأدب . انظر كتابيه : مع المخطوطات العربية ، ودراسات في تاريخ الادب العربي – ط دار التقدم – موسكو .

اما قبل ذلك فلم يعرف العرب إلا الأتاوة . والأتاوة هي مبالغ معلومة من المال كان الفاتحون يفرضونها على المدن المفتوحة وتؤدى بشكل جماعي من قبل سكان المدينة. وعندما اصطدمت نظرية فلهوزن بالنظام الدقيق للضرائب الذي فصلته المصادر العربية اضطر الرجل الى تسخيف هذه المصادر واتهامها بتعمد الكذب ، مؤكداً انها نسبت الى عهد الخلفاء الراشدين نظاماً ضريبياً لم يظهر إلا في أواخر العهد الاموي. وبهذه النظرية توصل فلهوزن الى عدة نقاط تعتبر جوهرية في مجرى التيار العام للاستشراق ، وهي :

١ – تجريد العرب – كشعب لايمت بصلة الى الجنس الآري – من القدرة الذاتية على بناء النظم السياسية والاقتصادية للدول .

٢ – اثبات ان العرب تحضروا فقط عندما اتصلوا بالبيزنطيين . ويمثل هؤلاء الحضارة الاوربية في عهدهم .

٣ – نزع الثقة من المصادر العربية . وقد عني المستشرقون قبل فلهوزن وبعده بتركيز هذه النقطة . ولكنهم اختلفوا في مدى شمولها ، فنهم من تطرف وذهب الى الطعن في وثائقية القرآن بدعوى أنه تعرض للتحريف والاضافة . في حين قنع آخرون بالقرآن كمصدر وحيد يمكن الثقة به ، ورموا بقية المصادر بالزيف . ويتبوأ الطعن في المصادر اهمية كبرى في حقل الاستشراق لأنه يجعل الباحث حراً من أي قيد يحد استنتاجاته ، ويفتح الطريق واسعاً امام الافتراضات الموضوعة مسبقاً . وبهذه الوسيلة ايضاً يستطيع المستشرق ان يغلق الباب في وجه اي تزييف لنتائجه مادام قد عطل سلاحاً يمكن ان يشهره مخالفوه في وجهه .

وقد شاعت نظرية فلهوزن وحج اليها الباحثون من الشرق والغرب ، ووجدت من يتبناها من الكتاب العرب كاحدى المسلمات التاريخية الموحى بها من سماء الاستشراق (١) . ولم تصادف من يثير الغبار في وجهها حتى ظهر المستشرق الامريكي دانيال دينيت المتوفى عام ١٩٤٨ بدراسته

Converston And The Polltax In Earley Islam

والمترجمة الى العربية تحت عنوان : الجزية والاسلام (٢) .

---

(١) كعبد العزيز الدوري في كتابه : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري انظر ص ١٨١ من طبعة بغداد سنة ١٩٤٨ .

(٢) ترجم الكتاب فوزي فهيم جاد الله وراجعه احسان عباس وصدرت طبعته الاولى في بيروت عام ١٩٦٠ ...

كانت المادة الاولية لهذه الدراسة هي اوراق البردي المحررة باللغات اليونانية والقبطية والعربية . وفيها ثبتت معاملات الضريبة الجارية على عهد الخلفاء الراشدين . وعبر دراسة دقيقة لهذه المجموعة من الكتب الرسمية وضع دينيت يده على نظام متكامل للضريبة ميز فيه الفاتحون بين الاتاوة والجزية والخراج . وبمقارنة هذه النصوص بما ورد في المصادر العربية حول الموضوع نفسه وجد ان ثمة تطابقاً تاماً بين اوراق البردي وبين المصادر . وهكذا سدد المستشرق دينيت ضربة قاضية الى نظرية فلهوزن واعلن في الوقت نفسه ان المصادر العربية جديرة بالثقة وان الطعن في نزاهتها لا يستند الى اساس قويم .

ان تجربة فلهوزن ـ وهو من كبار المستشرقين ـ تعبر عن مدى التسرع الذي يصم اعمالهم . وهي تفرض على الباحثين ان يقفوا من كتابات المستشرقين موقف الناقد لا موقف المتلقي ، لاسيما وأن اوراق البردي لم تشمل الا طائفة محدودة من قضايا الدولة والمجتمع في الاسلام !

على ان الدراسات الاستشراقية لم تكن في موقف موحد من هذه القضايا . فثمة جهود صدرت عن رغبة في التحرر من أغلال المنهج الاوروبي بما ينطوي عليه من عوامل دينيه وعنصرية وطبقية . وفي الوقت الحاضر يتسع المجال الذي تتحرك فيه محاولات لكتابة التاريخ وفق المنهج الذي اقترحه جورج سارتون ؛ الكتابة بروح عالمية تهدف الى استلهام تجارب الشرق ، واعتبار أن التاريخ العالمي ليس تاريخ تطور اوربا وحدها . وتأتي هذه المحاولات مترادفة مع نمو وترسخ التفسير العلمي للتاريخ ؛ المستند الى فلسفة المادية التاريخية . وقد توسع استخدام التفسير المادي في دراسة التاريخ عندما بدأ يخرج من دائرة المعتنقين للماركسية ليفرض نفوذه على فريق من الباحثين لا صلة لهم بهذه العقيدة (١) . ومن الممثلين البارزين لهذا الاتجاه في الغرب المستشرق الانكليزي الدكتور مونتغمري وت ، الذي يشغل حالياً منصب استاذ الدراسات الاسلامية في جامعة ادنبره . ويطغى التفسير المادي على اكثر دراسات الدكتور وت ومع هذا فحين وصفت احدى كتبه بأنها (ماركسية) اجاب انه استخدم بعض الافكار الماركسية عن غير وعي . وهو صادق في ذلك ، فالرجل لا علاقة له بالماركسية . ولا يمكن تفسير هذا

---

(١) استطيع ان اعد من هؤلاء في عالمنا العربي : طه حسين في بعض كتاباته التاريخية ، احمد امين في آخر ما كتب (ظهر الاسلام) ، وعبد العزيز الدوري في كتابه (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) .

تعكس دراسات وت محاولة جديدة في عالم الاستشراق قوامها البحث في تاريخ الاسلام بعيداً عن اجواء العصبية الدينية او العنصرية . وبالاستفادة من المنهج المادي خطا الدكتور وت خطوة طيبة في تحرير نتائجه من أوهام المنهج الغربي . وهو يبدو على معرفة جيدة بالمصادر العربية ، مع ادراك عميق لشخصية النبي محمد والظروف التي احاطت بالدعوة الاسلامية في مختلف مراحلها وقد هاجم الافكار الشائعة في اوساط الرأي العام الاوروبي حول محمد وقدمها كمثال على التعصب الديني لدى شعوب الغرب .

على ان هذا الباحث القدير لم يستطع ، رغم اخلاصه ، ان يتخلص كلياً من التأثير القوي لتراث ضخم أقامته جهود جبارة لأجيال عديدة من المستشرقين . ان الدكتور وت مضطر ، كغيره من الباحثين الغربيين، الى الرجوع الى هذا التراث والتتلمذ عليه . وعن هذا الطريق كان لابد من ان تتسرب الى محاولته الأفكار التقليدية التي تداولها اسلافه . وهكذا سقط الرجل في التناقض وتأرجح بين التعسف والموضوعية . ويبدو تناقض الدكتور وت على اوضح صورة من المقارنة بين اثنين من كتبه هما : محمد نبياً ورجل دولة Mohammad prophet and statesman

وكتابه : (الاسلام وتكامل المجتمع) . (Islam and The Integration of Society).

يضم الكتاب الاول ملخصاً للافكار التي تضمنها مجلدان سابقان حول النبي محمد هما : Mohammad at Medina و Mohammad at Mecca وقد رسم وت في هذا الكتاب صورة دقيقة لشخصية محمد واعماله ، لعلها ادق واوفى ماخطته يد مستشرق .. هنا يبرز محمد واحداً من اعظم بناة التاريخ ؛ عبقرية متعددة المواهب : من (خيال مبدع) ، إلى استيعاب خلاق لأساليب العمل السياسي ، إلى البراعة في تخطيط واستخدام استراتيجية الحرب ، يحتضن ذلك كله الإيمان بصدق الرسالة التي اختارته السماء لتبليغها .

في هذا الكتاب ، وفق المستشرق الكبير الى اعادة تقييم اعمال محمد عبر دراسة موضوعية جاءت مبرأة من تعصب الغربيين وتزمت المسلمين . فاذا انتقلنا الى كتابه الأخير وجدنا تأثره بتراثه الاستشراقي يطغى على معظم فصول البحث . وقد اختفت الروح النقدية التي تميز بها كتابه السابق وحل محلها ترديد لأفكار أقرها المستشرقون فيما سبق . على ان الدكتور وت باطلاعه الواسع على التراث الاسلامي ، وبما يملك من قدرة عالية على التحليل ، لم يقف عند حد نسخ آراء اساتذته ، وانما اعاد عرضها من خلال تحقيق علمي يعبر عن علو مكانته في ميدان البحث . ومع ذلك فان هذا المستوى العالي من التحقيق لم يكن كافياً لتعزيز نتائج ربما بدت متناقضة

مع الظواهر السائدة في تاريخ الاسلام . ولا نجد لها تأييداً في المصادر الأساسية لهذا التاريخ . انها بالعكس لاتعدو ان تصدر في كثير من الأحوال عما يسوغ اعتباره اجتهاداً في موضع النص . وهي بالتالي نتيجة لاحقة لمبدأ الطعن في المصادر العربية ، المبدأ الذي فتح للمستشرقين باب الاجتهاد في التاريخ ومنحهم القدرة على تقرير النتائج بأقل مايمكن من القيود .

وسنتابع القضايا التي أثارها المؤلف لمناقشتها فيما بعد ، علماً بأن هذه القضايا لاترد في الغالب كرأي شخصي للمؤلف بمقدار ما تعبر عن التيارات الحاكمة في المدرسة الاستشراقية .

الاسلام والبداوة :

تناول الدكتور ... الاسلام الى اقامة مجتمع متكامل على ... المبادىء التي جاء بها محمد . وقد تابع أوليات هذه المبادىء فوجد جذورها في المجتمع البدوي . وخلص من هنا الى القول بأن المجتمع الاسلامي الاول هو قبيلة بحجم أكبر . وفيما يلي قائمة بالخصائص المشتركة لكل من القبيلة العربية والمجتمع الاسلامي كما استخلصناها من ملاحظات المؤلف :

١ – القبيلة لها شيخ يحكم بموجب الاعراف السائدة فيها . وهو لايملك سلطة مادية على افراد قبيلته . وفي الاسلام ، حل النبي والخليفة من بعده محل الشيخ ، وحل محل القبيلة مجتمع كبير يحمل خصائصها ، أي أن التغيير هنا كمي بحت . وكما هو الحال بالنسبة الى الشيخ ، لم يكن النبي او خليفته يتمتعان بأية سلطة مادية على افراد المجتمع الاسلامي . ونستنتج من هذا الكشف ان مفهوم الدولة لم يكن موضع تفكير المسلمين طوال عهد النبي والخلفاء الراشدين .

٢ – تجمع افراد القبيلة رابطة الاخوة المستندة الى النسب . وتجمع بين افراد المجتمع الاسلامي اخوة تستند ايضاً الى النسب ؛ والنسب هنا هو الدين .

٣ – قانون القبيلة في الحياة هو سنة الآباء (Beaten Path) وهي الاعراف التي سلكها آباء القبيلة والتزم بها ابناؤهم . وقانون المجتمع الاسلامي هو (سنة محمد) .

٤ – ان شيخ القبيلة مسؤول عن الضعفاء من افراد قبيلته . ومسؤوليته اجتماعية واقتصادية في آن واحد ، فهي تتناول حماية الفرد من العدوان كما تتناول مساعدته بالمال اذا كان فقيراً . وقد انتقلت مسؤولية الشيخ في الاسلام الى النبي وخليفته ، وتحققت اقتصادياً في الزكاة التي هي بموجب هذا التخريج التزام ادبي ليس غير . ومن متابعته لنشاطات محمد في مكة استنتج انها كانت موجهة ضد الانتهاك الفردي للنظام البدوي ، الذي كان يقوم به التجار الوثنيون باهمالهم الانفاق ومساعدة

الفقراء ، واتجاههم الى تجميع الثروات تجميعاً انانياً .

هذا ملخص ما سجله الدكتور (وت) من آرائه بشأن الاسلام الاول وعلاقته بالبداوة . وتتصل هذه الآراء بسوابق استشراقية دارت حول الجذور البدوية للاسلام وذهبت في ذلك مذاهب شتى ، الى ان برزت على يد المستشرق الانكليزي المعاصر على هذه الصورة التي لا تخلو من الغلو . واستطيع ان اقول ان الدكتور وت لم يكتشف من الجذور البدوية للاسلام سوى **العلاقات الشكلية** التي تربط بين تجارب اجتماعية ذات مضامين مختلفة . ولعل التدقيق في الخصائص المستخلصة آنفاً ، كفيل بالكشف عن الفروق الجوهرية التي تفصل بين هذه التجارب . ونبدأ في دراسة الصلة بين مركز النبي محمد في المدينة وبين مركز شيخ القبيلة فتطالعنا الامور التالية :

ـ لم تكن في مدينة يثرب وقت وصول محمد اليها سلطة تدير شؤونها . كانت المدينة مقسمة حينذاك الى قبيلتين كبيرتين تتبادل السيادة فيها مجموعة من الشيوخ . ويطلق على الشيخ اسم (السيد) كسيد الاوس وسيد الخزرج . وليس لسيد القبيلة صفة تخوله حق اصدار الاوامر ، فقد كان دوره قاصراً على ابداء الرأي والتوجيه . وكانت آراؤه وتوجيهاته تحظى باحترام القبيلة دون ان يتوفر فيها عنصر الالزام ، وهي على وجه التقريب ذات صفة استشارية . ويشبه الوضع في يثرب من هذه الناحية الوضع السائد في بقية المناطق الخاضعة للنظام البدوي في بلاد العرب .

ـ ولكن العرب في الجاهلية لم يكونوا في عزلة تامة عن المجتمعات المعاصرة لهم . لقد اتصلوا بالفرس والبيزنطيين والاحباش . وكان للنشاط التجاري عبر الجزيرة العربية دور فعال في تحقيق الاحتكاك بينهم وبين الاقوام الاخرى (١) . ونستخلص من واقع هذا

(١) هنا يتبادر سؤال : هل كان المجتمع البدوي قبل الاسلام همجياً ؟ واجيب بالنفي بالاستناد الى حقيقتين تاريخيتين : الاولى ان بداوة العصر الجاهلي ليست حلقة في سلسلة التطور من مرحلة ادنى الى مرحلة اعلى لأنها ـ على عكس ذلك ـ مسبوقة بمراحل حضارية مرت بها المنطقة وهي حضارات اليمن وبصرى وتدمر والحضر . الثانية كون المجتمع الجاهلي محاطاً بحضارتين كبيرتين هما حضارتا فارس وبيزنطة . وفي مثل هذه الحالة يكون تعرض المجتمع البدوي لتأثيرات آتية من تراث حضاري واسع من جهة ومن واقع حضاري يعيش في وسطه من جهة اخرى امراً محتملاً ، ومن الجدير بالذكر ان العصر الجاهلي لم يخل من انماط معينة من الثقافة ؛ منها : الشعر والخطابة ؛ وهما فنان تطورا كثيراً قبيل ظهور الاسلام ؛ ووجود تراث من الحكم والامثال ، بالاضافة الى ممارسة بعض المعالجات الطبية ـ غير تلك التي يستخدمها الكهان والسحرة ـ والمعرفة بالفلك والانواء .

الاتصال احتمال ان يكون العرب قد وقفوا على تجارب الامم المجاورة في الحكم . وهو احتمال قوي يعززه استعمال لفظ (الملك) في اللغة الجاهلية للدلالة على رؤساء الدول في مقابل كلمة (سيد) التي اطلقت على شيوخ القبائل .

٣ - اضف الى ما سبق ظهور تجارب حكم في صميم المجتمع البدوي قبل الاسلام . ومن هذه مملكة كندة وممالك اليمن ، ودولتا اللخميين في الحيرة والغسانيين في الشام .

٤ - كان الصراع الدموي بين قبيلتي الاوس والخزرج قد ولد حافزاً للبحث عن حلول تكفل إيقاف الصراع . ويبدو ان التفكير قد اتجه بسكان يثرب نحو ايجاد كيان موحد للقبيلتين يكون على رأسه حاكم مزود بصلاحيات تتجاوز السلطة الادبية لشيخ القبيلة . وثمة نص يشير الى ان مشروعاً كهذا كان على وشك التحقيق في نفس الفترة التي وصل فيها النبي محمد الى المدينة . وكان المرشح لرئاسة هذا الكيان عبد الله بن أبي بن سلول الذي اصبح فيما بعد زعيم المنافقين . ففي رواية لابن هشام ؛ قال أسيد بن حضير لمحمد يعتذر عن تصرفات ابن ابي : يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ؛ فانه ليرى انك قد استلبته ملكاً (١) .

واخرج البخاري كلاماً مماثلاً لسعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه ، فوالذي انزل عليك الكتاب ، لقد جاء الله بالحق الذي انزل عليك وقد اصطلح اهل هذه البحيرة على ان يتوجوه .. (٢) .

ونفهم من هذا ان تطورات الوضع العام في مجتمع يثرب قد أوصلته الى حالة اصبح فيها مستعداً لقبول نوع من التنظيم السياسي يشبع حاجته الملحة الى السلم والاستقرار .

في ضوء الملاحظات السابقة نستطيع ان نضع ايدينا على بيئة صالحة لأية محاولة تهدف الى اقامة سلطة مركزية في اي جزء من اجزاء الجزيرة ، وبصفة خاصة في مدينة يثرب . ان هذا ما بدأ النبي بتحقيقه من اليوم الذي وطئت قدماه فيه ارض المدينة .ولمواجهة التقاليدالبدوية التي ترفض الخضوع للسلطان السياسي ، انزلت الآيات التالية من سورة النساء لتعزز موقف النبي :

- وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله (٦٤)

- فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما . (٦٥)

- من يطع الرسول فقد اطاع الله (٨٠)

والآية (١٣٢) من سورة آل عمران :

---

(١) صفحة ٢٩٢ من القسم الثاني تحقيق مصطفى السقا وجماعته ١٩٥٥

(٢) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ج ٢ صفحة ١٠١

– واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون والآية :

– ما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

ثم يتعدى القرآن حد الأمر بطاعة الرسول الى طاعة اولي الأمر ، وهذا هو نص الآية (٥٩) من سورة النساء :

– يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم .

وفي الآية نص صريح على وجود (مسؤولين) في المجتمع الجديد يلون الرسول في المرتبة . وهو ما يدل عليه تعبير (اولي الأمر) . ولعل النص يرجع الى زمن متأخر لأن وجود ولاة الأمر يفترض اتساع النشاط السياسي والعسكري للنبي . ويقوي هذا الترجيح رواية وردت في بيان سبب نزول الآية تحدثت عن خلاف بين عمار بن ياسر وخالد بن الوليد الذي كان قائداً لجيش ارسله محمد الى حي من احياء العرب (١) وخالد لم يسلم الا بعد صلح الحديبية الذي وقع عام ٦ للهجرة والمقصود بولاة الامر هنا قادة الجيوش ، يضاف اليهم بعد فتح مكة عمال الصدقات ، والولاة على المدن والمقاطعات والقبائل .

على ان صفة النبي كحاكم تتضح اكثر في التشريع اللاحق للعقوبات على عهده ، والعقوبات التي نص عليها القرآن :

قطع يد السارق

جلد الزاني

معاقبة قطاع الطرق بالقطع او الصلب

القصاص اي قتل القاتل .

وتشريع العقوبات يقتضي وجود سلطة مخولة بتنفيذها .

ثم جاءت مرحلة جديدة بعد فتح مكة اكد النبي فيها صفته كرئيس دولة . فبعد ان تم الفتح وشرع بالعودة الى المدينة اصدر قراره بتعيين عتاب بن اسيد والياً عليها . وقد اجريت بعد هذا التعيين تعيينات اخرى منها تعيين ابي سفيان والياً على نجران – او على جرش في رواية اليعقوبي – وتعيين سفيان بن عوف والياً على قبائل هوازن . واذا حدث ان اسلم حاكم احدى المقاطعات ، أمره على ولايته بعد ان يرسل اليه صحابياً (يفقه) السكان بالدين ويضمن اتباع الحاكم تعاليم النبي . وقد طبق ذلك في اليمن والبحرين .. ومنذ السنة التاسعة للهجرة اخذ النبي بتعيين عمال على الصدقات .

(١) انظر : الواحدي النيسابوري : اسباب النزول صفحة ٩١ ط الحلبي ١٩٥٩ مصر . السيوطي : لباب النقول صفحة ٦٧ ط الحلبي الثانية ١٩٥٤ مصر .

من هذا العرض تتبين مايلي :

١ – ان النبي كان ينظر الى نفسه كحاكم لا كشيخ قبيلة . يعكس هذه النظرة سعيه الى تحقيق الطاعة التامة لأوامره ونواهيه ، وبالتالي : **اكسابها عنصر الالزام .**

٢ – انه مارس بالفعل صلاحيات حاكم وتتمثل هذه الصلاحيات في تشريع العقوبات وتنفيذها .

٣ – إقدامه على تصرفات تعتبر غالباً من اختصاص رئيس الدولة ، وهي : تعيين الولاة ، والعمال على الصدقات ، وقادة الجيوش .

وبعد وفاة محمد ، انتقلت صلاحياته الى اول خلفائه ، ابي بكر ، النبي قام بدوره كزعيم سياسي وديني للمجتمع الجديد ، وكقائد لأولى عمليات الفتح . وفي عهد عمر ابن الخطاب برزت بدرجة اكبر من ذي قبل ، السمات المميزة للدولة ، فظهر الجهاز الاداري ممثلاً في الديوان ، وانشئت السجون للعقوبات التأديبية ، وتحقق نمط عال من السلطة المركزية بظهور جهاز ضخم من الولاة والعمال خاضع مباشرة للخليفة . ثم يأتي تلقيب عمر بلقب (امير المؤمنين) متضمناً الاعتراف الرسمي به كحاكم . وقد اظهر عمر عند قيامه باعباء الخلافة قابليات تخوله ان يذكر في عداد اعاظم القادة السياسيين والعسكريين في التاريخ (١) .

والى هذا الحد ، ارجو ان تكون قد اتضحت للقارىء الشقة التي تفصل بين النبي وخلفائه في المجتمع الاسلامي ، وبين شيوخ القبائل في المجتمع البدوي .

٢ – ان وجه الشبه الذي يتصوره الدكتور وت جامعاً بين رابطة الاخوة المستندة الى النسب ورابطة الاخوة القائمة على الدين هو مسألة شكلية . ان الرابطتين تختلفان عن بعضهما اختلافاً جوهرياً . فبينما نرى النسب يستند الى قاعدة عرقية بحتة ، نرى ان جوهر الدين هو الروح او الفكر ، والمسافة شاسعة بين اخوة قوامها العرق والدم وبين اخوة اساسها العقيدة دينية كانت ام سياسية ام غير ذلك . وبمراعاة الفرق بين معنى الاخوتين يبدو لنا ان تفسير الدكتور وت لرابطة الدين في المجتمع الاسلامي معكوس تماماً . فهذه الرابطة ليست صدى للتقاليد البدوية بل هي انقلاب عليها ، لأنها مؤسسة على استبعاد اعتبارات النسب واحلال معيار جديد محله هو العقيدة الدينية.

---

(١) ارتاع رستم – قائد الفرس في القادسية – للطريقة التي تكلم بها امامه المندوبون العرب قبل بدء القتال فقال متأففاً : انما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! الطبري ج ٣ صفحة ٥٠ .

وبذلك يمكن – بل يجب – اعتبار (الاخوة الاسلامية) التي شرعها الاسلام رابطة بين ابنائه **خطوة تقدمية** بالقياس الى ماسبق . وكان على الدكتور وت ان يستخلص من هذه النقطة بالذات وجهاً من وجوه الخروج على قيم البداوة وليس استمراراً لها .

على ان الاسلام لم يتوصل الى حذف النسب نهائياً من قائمة العلاقات الاجتماعية . فهناك قاعدة (الولاء بين ذوي الارحام) التي انحدرت الى الاسلام من المجتمع البدوي، وفات الباحث الفاضل ان يلتفت اليها ليضع يده على اثر فعلي من آثار البـــداوة . وقد تأكدت القاعدة بقوة في تعاليم النبي واعتبرها الفقهاء والوعاظ جزءاً من القانون الديني للمجتمع الاسلامي . ولكنها لم تتبوأ مركزاً رئيسياً يجعلها تتقدم على المعيار الجديد للعلاقة بين المسلمين . ويفهم من النص القرآني الذي أقرها انها شرعت في نطاق هذه العلاقة . ففي الآيات الاربع الاخيرة من سورة الانفال تناول القرآن الولاء الديني فحصره بين المؤمنين والكافرين الذين يرتبطون ببعضهم برابطة الشرك . وحدد الذين يشملهم وصف المؤمنين فبين انهم المهاجرون والانصار ، واضاف اليهم في الآية الاخيرة «الذين هاجروا بعدهم وشاركوهم في الجهاد ثم عقب بعد ذكر هؤلاء بقوله : **واولو الارحام بعضهم اولى ببعض** . وبهذا المقطع من آخر آية من سورة الانفال اقرت رابطة النسب ؛ ولكن بين المسلمين . فبعد ان جعل المسلم ولياً المسلم بحكم انتمائهما الى دين واحد ، عاد فقرر للأقارب ولاء خاصاً يرتبطون به في نطاق الولاء العام الذي تقرر على مستوى الجماعة . ان هذا ماتؤكده آية اخرى اخضعت النسب لشرط الدين بنص صريح . وهي الآية (٦) من سورة الاحزاب :

« واولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » .

٣ – ماتحتويه سنة الآباء في القبيلة ، وما تحتويه سنة محمد :

سنة الآباء هي مجموعة التصرفات الــتي صدرت عن آباء القبيلة والتزم بها ابناؤهم من بعدهم فآلت الى ان تكون منهاجاً اجتماعياً تسير القبيلة بموجبه .

وسنة محمد هي مجموعة التصرفات والتعاليم التي صدرت عن مؤسس الاسلام ، وتعين على المسلمين الالتزام بها .

وبهذا الوصف تكتسب كلتا السنتين معنى مماثلا . ولكن التدقيق في الخصائص التي تمتاز بها الثانية عن الاولى يؤكد انه ليس اكثر من تماثل شكلي :

أ – ان في سنة محمد جانبين ، احدهما الزامي والآخر طوعي . يتناول الاول المحرمات والفرائض الدينية . وخرق السنة في هذه الامور يعرض المسلم **لعقاب ولي الامر** . ويختص الطوعي بالمندوب والمستحب والمكروه . وهنا يخير المسلم بين اتيان الفعل او تركه ، من غير ان يتعرض **للحساب العاجل** . ويعتبر هذا القطاع من السنة امراً من امور الآخرة يتمسك به الفرد طمعاً في زيادة الاجر والثواب يوم القيامة . وتتبين من هنا ان مفهوم السنة خضع في المجتمع الاسلامي لتطور جذري مقطوع الصلة بماضيه . محتوى هذا التطور وجود عنصر الالزام في مجموعة كبيرة من التعاليم . هذا العنصر الذي لانجده على الاطلاق في السنة القبلية بسبب انعدام السلطة هناك .

ب – ان الالتزام بالسنة في المجتمع الاسلامي يخضع لدوافع دينية مستمدة من صفة محمد كنبي . وكون محمد نبياً يعني ان اوامره ونواهيه وافعاله ذات مصدر الهي . وقد نص القرآن على ذلك في الآيتين ٢ ، ٣ من سورة النجم : « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى » وبالتالي فهي ملزمة لكل من يؤمن بنبوته والفعل الذي يصدر عن النبي غير الفعل الصادر عن آباء القبيلة ، لكون الاول محاطاً بقدسية تجعل الاقتداء به جزءاً من الايمان الديني . اضف الى ذلك ان اتباع السنة النبوية يقترن بقاعدة الثواب والعقاب الاخرويين ، فاذا تمسك المسلم بتعاليم محمد فانما يفعل ذلك طمعاً في الجنة او خوفاً من النار .

وهكذا يظهر واضحا ، الفرق بين صفة منشىء السنة الاسلامية كزعيم ديني وصفة مؤسسي السنة القبلية كآباء طبيعيين للقبيلة . وبين الاعتبارات الدينية التي تحدد الالتزام بسنة محمد ، والاعتبارات المستمدة من النسب التي تحكم الالتزام بسنة الآباء . ثم بين موقف المسلم من السنة المنبعث من ايمانه الديني وموقف ابناء القبيلة المحكوم بدوافع العصبية القبلية .

واخيراً فان مسألة السنة في الاسلام هي جزء من اتجاه تاريخي يكاد يؤلف قانوناً عاماً تخضع له المجتمعات البشرية في مختلف مراحل التاريخ ، فمن الملاحظ تاريخياً ان نشوء المجتمع يترادف مع ظهور زعامات تتولى قيادة البناء الاجتماعي . وتقوم الزعامة بدور اساسي في تحديد معالم واسس البناء طبقاً لظروف ومعطيات المرحلة التاريخية . وهي التي تتولى صياغة المعايير التي ينتظر أن يسير عليها المجتمع في مستقبل حياته .. ثم ان المركز الخاص الذي يتبوأه الزعيم في

قلوب اتباعه والمستند الى الدور القيادي الذي يلعبه في بناء الحياة الجديدة ينتهي عادة بتحوله الى (نموذج) يستلهمه خلفاؤه على القيادة في ادارة وتسيير شؤون المجتمع ، كما يستن به الجمهور في سلوكهم العام .. وقد وجد هذا النموذج في المسيحية ممثلاً في وصايا وتعاليم المسيح ، ومثلته في الاسلام سنة محمد ، في حين يعتز المجتمع الانكليزي المعاصر بتقاليده التي شرعها له مؤسسو البرجوازية الانكليزية . ويهتدي مجتمع الولايات المتحدة ، نظرياً ، بهدي جورج واشنطن وتوماس جفرسن وغيرهما من قادة الثورة الامريكية . كما تسير مجتمعات الاشتراكية العلمية المعاصرة وفقاً لتعاليم كارل ماركس خالق أول فلسفة علمية في التاريخ وفلاديمير لينين مؤسس أول دولة للعمال والفلاحين .

السنة – اذن – ليست سمة خاصة بالمجتمع الاسلامي . انها ظاهرة تاريخية عامة . ولم يكن أمام المسلمين الاوائل من خيار في التمسك بتعاليم نبيهم ، ولو ان محمداً لم يظهر في هذه البقعة البدوية لما اختلف الوضع . ترى ماذا سيكون موقف البيزنطيين أو الساسانيين لو أن هـذا النبي ظهر في القسطنطينية أو في طيسفون ؟ إن الاخلاص للعقيدة يقـاس – في كل وقت – بالاخلاص لتعاليم مؤسسها .. حقيقة لازمة لكل حركة اجتماعية مهما تكن الظروف التي تظهر فيها .

٤ – تنص التقـاليد البدوية على اغاثة الملهوفين والغرثى على طريقة التأسي في المعاش والقيام بحقوق الضعفاء من افراد القبيلة وغيرهم . وهي عندهم من مقومات المجد الشخصي والقبلي ، وقد ذهبوا الى وصم من يتساهل فيها بالعار . والى هذا الحد يكون الدكتور وت قد وفق في تشخيص طابع الدعوة وردهـا الى اصولها . ولكنـه للأسف لم يكن دقيقاً في استخلاص النتيجة النهائيـة التي [illegible] اليها .

ان الدكتور وت شأنه في ذلك شأن الكثير من [illegible] الاجلاء ، شديد الخضوع لسياق البحث .. وهو بالتالي محمول على اخضاع النتائج لمحور المنهج الذي يدور عليه مهما ضعفت او انعدمت بينها فرص الاتفاق ، غير ملتفت – في الوقت نفسه – الى ما في الظواهر التاريخية من طبيعة متناقضة لا تجعل من السهل معاملتها كظواهر منسجمة بحيث يكفي لكي تفهم احداها ان تفهم الاخرى . ان هذا ما يكشف عنه استنتاجه بشأن الزكاة ؛ فاذا كانت الدعوة الى اسعاف الفقراء عودة الى التقاليد البدوية ، فان الزكاة هي الاخرى وجه من وجوه الالتزام التي كان يتحملها شيخ القبيلة نحو افراد عشيرته . فهي اذن

شريعة بدوية ، وقد انتقلت الى الاسلام من غير ان تتعرض لتغيير اساسي يقطعها عن الاصل .

ولاختبار درجة الدقة في هذا الرأي ، ينبغي البحث في تاريخ الزكاة . ولما كان ذلك غير ميسور في نطاق هـــذه المقالة ، سأتقدم بخلاصة موجزة بالتطورات التي مر بها تشريع الزكاة مع الكشف عن مميزاته الاساسية .

بدأ النبي محمد وهو في مكة يحث على انفاق المال ومساعدة الفقراء ، وقد تزامنت هذه المبادرة مع الدعوة الى الايمان بالله ومحاربة الوثنية . وربما اتصلت بفجر الدعوة لأننا نجـــدها في سور ترجع المؤرخين مبكرة من الفترة المكية . وبعد الهجرة الى المدينة لم يتوقف الحث على الانفاق في هذا الوجه وفي فترة ما من حكم النبي في المدينة صدر تشريع قصد به تحديد معنى الانفاق على اثر سؤال من الصحابة عن مقداره وحدوده . وكان التشريع يقضي بوجوب انفاق المال الزائد عن الحاجة . وقد نصت على ذلك الآية (٢١٩) من سورة البقرة :

يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو .

ثم جاءت الآية (٣٥) من سورة التوبة لتحرم كنز الاموال ؛ اي تجميعها واقتناءها. وتميل الاكثرية الساحقة من المفسرين الى تحميل الآيتين هذا المعنى ، والى القول انه طبق فعلاً من غير ان تفصح عن ملابسات التطبيق وكيفيته . ويبدو أن التشريع اهمل بعد فترة وجيزة من اعلانه ، وذلك بسبب استثقال الصحابة له ... ثم بعث مجدداً بمبادرة من أبي ذر الغفاري على عهد الخليفة الثالث . ويؤخذ من تفاصيل حركة أبي ذر ان الحكم المذكور يستهدف الاغنياء ، بأخذ مازاد عن حاجتهم من الاموال وردها على الفقراء . وكان ابو ذر يجادل حول هذا الشعار : **مـــا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالاً** (١) .

ويبين الصراع الذي دار حول هذه القضية قوة الجذور الطبقية التي تستند اليها (٢) .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٣٥ .

(٢) سبق للدكتور وت ان صنف في كتابه موضوع البحث طبقات المسلمين الاولين ، وتطرق الى وجود بعض الضعفاء فيهم . ولكنه استدرك فحمل الضعف معنى قبلياً ، وجرده بذلك من دلالته على الفقر . ولاحظ في الوقت نفسه ان عـــدد افراد هذه الطبقة كان قليلا . وخلص من هنا الى القول ان ثورة الاسلام لم تكن بحال من الاحوال (ثورة بروليتارية) . والاستنتاج سليم في خطوطه العريضة . ولكن اعادة النظر في اصناف المسلمين الاولين قد تكشفت عن نفوذ مارسته الطبقة الفقيرة في مسيرة الدعوة . وسأعود الى مناقشة هذه المسألة في دراسة لاحقة .

في العام التاسع للهجرة شرعت الزكاة . وآية الزكاة هي **«خذ من اموالهم صدقة»** ١٠٣ من سورة التوبـــة . . ويستخلص المفسرون من صيغة الآية انه لم يعد مأموراً بأخذ جميع اموالهم لأن (من) من حروف التبعيض . ويتضمن تشريع الزكاة على هذه الصورة نسخاً ضمنياً لتحريم الكنز . . ولم ينص القرآن على النسب التي تجبى الزكاة بموجبها ، غير انه نص على الفئات التي تستحقها ، وذلك في الآية (٦٢) من سورة التوبة : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله ..... اما نسب الجباية فبينها النبي . وكان قد شرع في السنة نفسها بارسال (عمال الصدقات) لجبايتها وفق النسب المقررة ثم لتوزيعها على الفئات المذكورة في الآية . واستقر الامر على ذلك حتى وفاة الرسول.

نستخلص من الوقائع السابقة مايلي :

١ – كانت الدعوة الى الانفاق توجه على سبيل التطوع طبقاً للتقاليد البـدوية التي تربط مساعدة الفقراء بالمروءة والشهامة . وعلى هذا الاساس يجب ان تفهم الآيات المكية وطائفة من المدنية المشتملة على مصطلحات (الصدقة والانفاق) (١) ؛ وان كان الفقهاء قد اختلفوا في تفسيرها ، فقال بعضهم انها تشمل (صدقة التطوع) وقال فريق انها تعني ان في المال حقاً سوى الزكاة في حين اكد آخرون ان هذه الآيات منسوخة كلها بآية الزكاة . والارجح انها لم تنسخ لأن صدقة التطوع لاتتعارض مع الزكاة المفروضة .

٢ – تلا هـــذه الخطوة تحديد الانفاق بشموله بحمل المال الزائد عن الحاجة . وقد اصطدم القرار عند التطبيق بصعوبات دفعت الى اهماله ثم الغائه كلياً بآية الزكاة .

٣ – شرعت الزكاة لتكون من جهة عاملاً على تطمين الاغنياء بان اموالهم ستبقى لهم اذا ما دفعوا النصيب المقرر للفقراء فيها . ولتقدم من جهة نوعاً من الضمان ضد الحاجة لتسكين المطامح الملحة للطبقات المحرومة .

٤ – تتميز الزكاة عن «صدقة التطوع» التي نصت عليها آيات الانفاق بانها عمل من اعمال السلطة . وتبرز هذه الصفة من خلال ثلاثة امور اولها اعتبار الزكاة من الفروض لا النوافل تبعاً للعبارة الواردة في آخر آية الصدقات رقم (٦٢) وهي قوله بعد تعداد المستحقين للصدقة : (فريضة من الله) . ثانيها التصريح بوجود الجبـاة العاملين على تحصيلها والنص على اعطائهم اجورهم من اموال الزكاة . ثالثها ان الرسول تولى تطبيق الآية بنفسه فحدد انصبة الزكاة وارسل العمال لجبايتها وتوزيعها . واستناداً الى اجتهاد ابي بكر فان الزكاة ركن من أركان الاسلام من

---

(١) في الفترة المدنية لم يعد الغرض من الانفاق قاصراً على اسعاف المحرومين . فبسبب النشاط العسكري للمسلمين كانت هناك حاجة الى الانفاق على الجيوش . فصار للانفاق في المدينة وجهان اجتماعي وتعبوي .

من منعها وجب قتاله واستحل دمه شأنه في ذلك شأن المرتد (١) .

وبهذا تتوفر في الزكاة صفة الالزام . وهو ما يميزها عن صدقة التطوع ذات الأصل البدوي . وقد فهمت الزكاة منـــذ صدر الاسلام على أنها ضمان من الاسلام للطبقات الفقيرة يتولاه الخليفة . وكان هذا الفهم من أسباب الثورة على الخلفاء الامويين والعباسيين الذين اهملوا تطبيق هذا المبدأ فحرموا الفقراء من الحد الأدنى للعيش الذي ضمنه لهم . ولعل مما يعزز الصفة الرسمية للزكاة اعطاء المؤلفة قلوبهم منها . والمؤلفة قلوبهم جماعة من زعماء العرب وجبابرتهم ليس فيها من لا تأنف نفسه من الصدقة التي يعتبرونها ضرباً من الاحسان في حين رأيناهم يقبلون على اخذ حصصهم من الزكاة ويتنافسون عليها . وفي القرآن آية تشير الى التنافس على اموال الزكاة :

(ومنهم من يلمزك في الصدقات . فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) . (٦٠) من سورة التوبة .

وسر هذا الموقف ان اموال الزكاة تدفعها السلطة ـ التي تقوم بجبايتها من المكلفين قسراً ـ ولو أن احد الاغنياء تقدم بما عليه من زكاة الى احد هؤلاء لرفضها . هذا ان كانت عجرفته تسمح له أن يكتفي بمجرد الرفض !

الزكاة — اذن — نظـــام له خصائصه الاقتصادية والاجتماعية المتميزة ، وقد عهد امر تطبيقه الى السلطة وفق اسس للجباية واسس للتوزيع ، مقروناً بعقوبات رادعة ضد المكلفين بالدفع وصلت في عهد ابي بكر الى حد اعلان الحرب على المتخلفين عن دفعها . لم تكن بين الزكاة في هذه المرحلة وبين الاحسان الى الفقراء في التقاليد البدوية من مسافة ... نعم قد تكون الزكاة في الاصل من وحي هذه التقاليد ولكنها خضعت لتطورات نأت بها عن جذورها . وانه لاسراف في التعميم ان توضع على صعيد واحد مع ذلك الأصل البدائي الساذج .

مواقف ضد البداوة :

ربما ظهرت الدعوة الاسلامية من بعض الوجوه كما لو كانت عودة الى البساطة التي هي من خصائص الحياة البدوية . وهي من هذا الوجه تقدم مثلاً على « رد الفعل البدوي » ضد طريقة الحياة التي تحياها الجماعات المستقرة ، كالفلاحين والتجار . وهذا مالاحظه كل من كارل ماركس وانجلز في محاولتهما الاوليـــة لتفسير ظهور الاسلام (٢) .

ولكن (الاسلام الاول) يسجل — في مقابل ذلك — عدداً من المواقف خرج فيها

(١) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٧٤ و ٤٨٧ ط القاهرة ١٩٣٩ الأمانة والسياسة : ج ١ ص ١٦ و ١٧ ط المكتبة التجارية في مصر .

(٢) انظر The Selected Correspondence of Karl Marx and Frederick Engels . N . Y 1942

على القيم البدوية بشكل قاطع . واشير فيما يلي الى بعض هذه المواقف :
- الغاء العصبية القبلية .
- الغاء الثأر وتشريع القصاص بدلاًمنه .
- تحريم الغزو .
- احلال المسؤولية الفردية محل المسؤولية الجماعية . وقد ثبت ذلك في الآية : « لاتزر وازرة وزر أخرى »(١) . وهي قاعدة جديدة جاء بها القرآن لتحديد المسؤولية الجنائية عن الاعمال ذات الطبيعة الجرمية . وهذه القاعدة لاوجود لها عند البدو ؛ لان مسؤولية الخطأ في المجتمع البدوي تتحدد على مستوى القبيلة(٢) . **وبشكل نقل المسؤولية الجنائية من الجماعة الى الفرد خطوة مهمة في طريق الانتقال من المجتمع البدوي الى المجتمع التجاري .**

إدخال تطويرات على نظام العائلة منها :

تحديد الحد الاعلى لعدد الزوجات بأربع ولم يكن العدد محدوداً لدى البدو . تحريم بعض الصور البدائية للزواج مثل : زواج الرهط وزواج البدل والاستبضاع(٣) ، تخفيف قيود العدة . محاولة القضاء على روح الكراهية ضد الانثى . تحريم وأد البنات . توريث المرأة ، والميراث عند البدو في الجاهلية من حق الذكور فقط . تحريم بعض صور استغلالها من قبل الرجل مثل : الاعضال (٤) ، الزواج بها على سبيل الارث (٥) ، استيلاء الاب على حصيلة المهر .

التنديد بالبدو في القرآن :

نسبت الآية (٧٩) من سورة التوبة الى البدو عدم فهم اهداف الاسلام . ونص الآية :

« الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ان لايعلموا حدود ما انزل الله على رسوله » .

وأكدت الآية (١٤) من سورة الحجرات

---

(١) الاسراء ١٥ ، النجم ٣٨ .

(٢) انظر : علي الوردي ، دراسات في طبيعة المجتمع العراقي ص ٧٢ ط بغداد ١٩٦٦ .

(٣) الرهط : اشتراك عدة رجال بامرأة واحدة

البدل : ان يتبادل رجلان امرأتيهما .

الاستبضاع : ان يفرض الرجل على امرأته ان تضاجع احد الفرسان او المشهورين بالخصال البدوية ليحصل منه على ولد يحمل صفاته .

(٤) الاعضال : الامتناع عن مباشرة الزوجة للضغط عليها حتى تتنازل عن حقها في المهر .

(٥) كان الرجل اذا مات له قريب من اخ او اب وترك زوجة ألقى ثوبه عليها ، فان شاء تزوجها بغير صداق ، وان شاء زوجها من آخر وأخذ صداقها .

ذلك بنفيها ان يكون الاعراب الذين دخلوا في الاسلام قد آمنوا به عن وعي وادراك لأهدافه :

« قالت الاعراب آمنا قـل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

وللفخر الرازي تخريج للعلة الـتي من اجلها وصف الاعراب بهذا الوصف اعتمد فيه على الخصائص الجغرافية للبداوة ،يراجع في الجزء ١٦ من تفسيره .

الاتجاه نحو الكتابة والتعليم :

وقد تبنته الدعوة الاسلامية منذ البدء . وتحتل عبارات مثل (العلماء) و(الذين أوتوا العلم) و(الراسخون في العلم) مكاناً بارزاً بين آيات القرآن . ويعبر القسم بالقلم في الآية (١) من سورة القلم عن الاعتزاز بهذا الرمز . ثم ان القرآن قد وفر بذاته اداة تحول فعالة في هذا المجال ، لأن القرآن كتاب ، وتعلمه – الذي هو من الشروط التي يحسن بها اسلام المرء – يقترن ، ضرورة ، بالمعرفة التامة للقراءة والكتابة . وعن هذا الطريق لعب القرآن دوراً مرموقاً في مكافحة الامية في المجتمع الاسلامي القديم . يضاف الى ذلك ان وجود كتاب تستند اليه الدعوة الاسلامية **يعني انها لن تقوم على محتوى شفوي .**

ويعتز القرآن بشكل خاص بـ (الكتاب والحكمة) اللذين أنزلا على بني اسرائيل ، واللذين أنزلا – الآن – على العرب الاميين لتعليمهم (١) . وتعطينا هذه الخاصة احد الفروق الاساسية التي تفصل الاسلام الاول عن البداوة ؛ فالثقافة البدوية هي ثقافة شفوية – ومن هنا اطلق القرآن على العرب اسم الاميين – **والانتقال من المشافهة الى التدوين من الخطوات التي تلازم عادة عملية التحول الحضاري .**

وجود تعاليم بشأن نظافة الفرد والبيئة الصحية واللباس ،واخرى تخص الآداب الاجتماعية وقواعد السلوك الشخصي :

ويفترض صدور هـذه التعاليم توفر مستوى من الوعي الحضاري لدى مؤسسي الاسلام مع الرغبة في ترويض البداوة لمواجهة متطلبات الانتقال الى الحياة الحضرية .

الهجرة والتحضير :

صحبت انتصار الدعوة الاسلامية حركة انتقال جماعيـة من البوادي الى الحواضر . وتعرف هذه الحركة باسم الهجرة . وهي غير الهجرة من مكة الى المدينة التي توقفت بعد فتح مكة . ومن المرجح ان تكون اوليات الحركة متصلة ببداية عصر الفتوحات ، التي يمكن تحديدها بانتهاء حروب الردة في السنة

---

(١) (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهـم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . الآية (٢) من سورة الجمعة . ويتكرر المعنى نفسه في مواضع اخرى عند الحديث عن بني اسرائيل او عند مخاطبة العرب وحثهم على متابعة محمد .

الثانية من خلافة ابي بكر . فقد تطلبت عمليات الفتح تجهيز جيوش كبيرة لاقبل لسكان المدن بها ، مما اضطر مخططي سياسة الفتح الى الاستعانة بالاعراب . والظاهر ان خطة التعبئة لحروب الفتح اقتضت ان لايستعان بالاعراب مع الاحتفاظ بصفتهم السابقة ، فاشترط لذلك ان يتحول الاعرابي من « دار إعرابيته الى دار الهجرة » ويقيم فيها على سبيل الثبات والاستقرار . ودار الهجرة هي المدن والأمصار ، ويسمى الاعرابي الذي تتوفر فيه هذه الصفة (مهاجراً). ويدل نص أورده ابن عبد الحكم (٢١٤ هـ) لعمر بن عبدالعزيز على ان الغرض من الهجرة هو غرض مزدوج يشمل الالتحاق بالمقاتلين والاقامة الدائمة في المدن . فقد جاء في وصايا عمر لعماله مايلي : « واما الهجرة فانا نفتحها لمن هاجر من اعرابي فباع ماشيته وانتقل من دار اعرابيته الى دار الهجرة والى قتال عدونا » (١) . وثمة مايدل على ان المهاجر يتبوأ في دار الهجرة مركزاً اسمى من مركزه السابق في البادية . ان هذا ماتعنيه ارجوزة للحجاج الثقفي قرأها على منبر الكوفة في اول ولايته عليها (٢) :

قد لفها الليل بعصلبي
اروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي

وواضحة لهجة المباهاة في هذه الارجوزة .

على ان شيوع الاصطلاح ربما تجاوز عصر الحجاج بأمد بعيد . وهناك نصوص تشير الى عهد الخلفاء الراشدين . ومنها قول عمر بن الخطاب في آخر ايام خلافته (٣) : (لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت فضول اموال الاغنياء ورددتها على فقراء المهاجرين .) والمقصود بقول عمر مهاجرو الاعراب لا المهاجرون الاولون من مكة الى المدينة ، فهؤلاء لم يبق بينهم فقير بفضل سياسة عمر في توزيع العطاء ، والتي راعى فيها شرطي السبق الى الاسلام والقرابة مع النبي ، وبالاستفادة من الشرط الاول حصل مهاجرو المدينة على اموال طائلة نقلت من تبقى من فقرائهم الى مصاف الاغنياء .

ما الذي نستخلصه من هذه الحركة؟ النتيجة معلومة وهي امتصاص المدن والامصار سكان البوادي . ويترتب على ذلك اتساع نطاق الحواضر في المجتمع الاسلامي مقابل تقليص القطاع الذي كانت تغطيه البداوة في العصر الجاهلي . واستجابة لهذا التوسع ، لجأ الفاتحون الى تمصير المدن لاستيعاب المهاجرين . وترجع حركة التمصير الى زمن مبكر ؛ ففي عام ١٦ للهجرة اسست البصرة وتلاها في عام ١٧ تأسيس الكوفة . وقد استمرت الحركة طوال عصور الخلافة.. واذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٩ ط ٢ تحقيق احمد عبيد — القاهرة .
(٢) ابن الاثير ج ٤ . ص ٤٣
(٣) الطبري ج ٣ . ص ٢٩١ القاهرة ١٩٣٩ .

لاحظنا انبثاق هاتين الحركتين — الهجرة وتمصير المدن — مع فجر الفتوحات فاننا نضع ايدينا على **قيمة جوهرية من قيم الحضارة** تتصدر نشاطات الفاتحين الاولين وتضع (الاسلام الاول) في عداد الحركات ذات البنية الحضارية . ولئن كانت الدعوة الاسلامية تتبنى في بعض اتجاهاتها متطلبات العودة الى حياة البساطة والبداوة ، فهي من هذا الجانب - والجوانب الاخرى التي اختزلنا الحديث عنها - تؤدي عملاً من نوع آخر ، عملاً تمدينياً صرفاً . ولعل مما يضيء لنا الطريق الى فهم هذا الدور ان نجد من بين العناصر البارزة التي الفت نواة الدعوة مجموعة من الشباب ذوي التطلعات الجديدة (١) وان نجد الى جانب هؤلاء طبقة من صغار التجار ؛ ومن شأن التركيب الاجتماعي لكلتا ان يجعلها عرضة للتأثر بروح الحضارة . وتدل الاحداث اللاحقة على ان هاتين الفئتين كانتا في مقدمة المستفيدين من الرخاء الاقتصادي الذي جلبته الفتوحات الى العرب وكانوا م نواة الطبقة الجديدة من اغنياء المسلمين التي بادرت الى استيعاب معطيات الحضارة مستفيدة من امكاناتها المادية . واذا كانت مبادراتهم قد انطلقت من مواقع استغلالية تمخضت عن الاستئثار بالخيرات الجديدة وحرمان الاكثرية الساحقة منها ، فهي بذلك تحرج عن الطابع العام للحضارات القديمة القائمة بجملتها على الاستغلال . وليس من المنتظر ان يعمل غير هذا الطابع تحول حضاري يقع في مثل تلك المرحلة

(١) اعتبر الدكتور وت الدعوة الاسلامية من بعض جوانبها حركة شباب « Movement of Young men » انظر Mohammed Prophet and Statesman P. 39

حول العمر المتوقع

للإنسان المعاصر

د. جورج ج. ستولنتس
د. انسلي ج. كول
ترجمة محمد جديد

عندما نقارن النظام الاجتماعي الماضي والحاضر لسكان العالم أو نقارن مراحل عمليات التطور ينبغي لنا أن نميز تمييزاً دقيقاً بين مناطق جغرافية مختلفة وأوضاع اقتصادية مختلفة ، ومن المفيد الذي يحسن بنا عمله عند وصف الحركات السكانية العالمية تقسيم السكان الى ثلاث مجموعات.

فالمجموعة الأولى تشمل شعوب شمال أوربا وغربها ووسطها كما تشمل أنسالها الذين هاجروا في القرن التاسع عشر الى ماوراء البحار ، وبصورة رئيسية الى الولايات المتحدة و كندا واوستراليا ونيوزلندا ، ونقترح توخياً للبساطة وبدون أي معنى سياسي ، أن نسمي هذه المجموعة « الغرب » .

والمجموعة الثانية تتألف من بلدان شرق أوربا وجنوبها ، أي من المناطق التي تقف في مرحلة متوسطة من مراحل التطور .

وينتمي الى المجموعة الثالثة أمريكا

اللاتينية وآسيا وسكان أفريقيا الأصليون . ولا ريب أننا نهمل كثيراً من الحقائق عندما نحشر الهند الغاصة بالسكان والشرق الأوسط قليل السكان أو أمم وسط افريقيا الناشئة وبلدان أمريكا اللاتينية في مجموعة واحدة ، ومع ذلك فلهذا التقسيم مايبرره باعتباره منطلقاً لما يليه من الدراسة ، ففي كل أجزاء هذه القارات الثلاث تقريباً تقف حركة التجديد الاقتصادي في مرحلة البداية بينما بقيت نسبة الولادات في كل مكان تقريباً ثابتة عند المرحلة التقليدية قبل الصناعية ، أما الحالات الشاذة — اليابان والارجنتين وبعض الدول الأخرى — فينبغي أن تعامل منفصلة عما عداها وألا تشكل أساساً لتصنيفات أخرى ، ونحن لا نملك بالاضافة الى ذلك الا مادة احصائية متفرقة غير كاملة لهذه القارات حتى السنوات التي تسبق الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وحتى اليوم توجد ثغرات كبيرة . والاستنتاجات العامة التي يمكن استخلاصها بصورة يقينية لابد أن تبقى من أجل ذلك استنتاجات أولية الى حد بعيد . غير أن من حسن الحظ أن هذه الاستنتاجات يمكن تطبيقها تطبيقاً صحيحاً الى حد بعيد على كل البلدان التي نسميها بالبلدان النامية .

فلنراقب المجموعات الثلاث عن كثب . لاريب أن الغرب كان مركز عملية الحركات السكانية ومنطلقها ، فقد كانت أمم الغرب هي الأولى التي أمسكت بزمام التجديد الاقتصادي واستطاعت أن ترفع الطاقة الانتاجية والدخل الفردي أكثر من سائر الأمم ، وكانت أكثر الأمم تعرضاً للتأثيرات المتبادلة بين التطور السكاني والتحول الاقتصادي السريع الذي استغرق زمناً طويلاً . ولما كان تطور الاقتصاد والاحصاء يسيران جنباً الى جنب فان لدى الغرب أيضاً أكثر المواد الاحصائية تفصيلاً فيما يتعلق بهذه التأثيرات المتبادلة .

غير أن مايدعو الى الأسف أن

الاحصائيات – حتى هنا أيضاً – لاترجع الى زمن بعيد بعـــداً كافياً . فنحن لانستطيع الا أن نقدم تكهنات بصورة غير مباشرة وبشيء من التحفظ مؤدّاها أن معدلات الوفيات والولادات لابدّ أنها هبطت خلال قرن أو قرنين قبل الثورة الصناعية . وهذا الهبوط بتاوبتبار غير ثابت تبدو لنا فيه ذبذبات كبيرة ، أما سير معدل الولادات فاعادة تركيبه أمر أكثر صعوبة ، فالأعداد الأولى التي يمكن الحصول عليها حول معدل الولادات هي أقل بكثير من تلك الأعـــداد الموجودة اليوم في أمريكا اللاتينية وآسيا للسكان الذين يفتقرون الى تحديد النسل.

ثم هبت العاصفة في ربع القرن الأخير ، فبدأت معدلات الولادات والوفيات بالهبوط في بلد بعد آخر بمقدار لم يك معروفاً من قبل ، وقد تجلى جانب من أكثر جوانب هذه العملية جدارة بالملاحظة في أنها ظهرت في عدد كبير جداً من البلدان في وقت واحد تقريباً على الرغم من الفروق الجوهرية في البنية السياسية والاجتماعيـــة وفي المعطيات الاقتصادية وفي السياق التاريخي لهذه البلدان . لقد نشأت عملية انتشار هائلة لم يشهد الانسان لها مثيلاً على نحو مفاجيء واستمرت حتى اليوم في الغرب .

وكانت معدلات الولادات تهبط هبوطاً مستمراً منذ عـــام ١٨٧٠ ، ولم يكن من الممكن التأثير على هذا الاتجاه حتى بالحربين العالميتين ، وقد يكون من الصعب – مثلاً – أن نفرق في هذاالصدد بين الدول المحايدة والدول المحاربة لأن كل شعوب الغرب تطورت في اتجاه اعمار متوقعة متزايدة يزداد الشبه فيما بينهـــا باطراد . فقبل قرن كان متوسط العمر المتوقع في البلدان الغربية يبلغ حوالي (٤٠) عاماً ، واليوم يبلغ سبعين عاماً أو اكثر ، ويبدو أنه يزداد ارتفاعاً على الرغم من امكان هبوطه . لقد أدى هبوط نسبة الوفيات في السنوات الأولى من العمر في الماضي بصورة رئيسية الى ارتفاع

العمر المتوقع . اما اليوم فان نسبة الوفيات للذين هم دون الخمسين ضئيلة مع ذلك الى درجة ان التغلب الكامل عليها لايعود الا بكسب ضئيل على متوسط العمر المتوقع. أما اذا تحققت انتصارات كبيرة ضد امراض الشيخوخة — وبصورة خاصة امراض القلب والسرطان — فان الحدود ستتسع اتساعاً يبلغ من المدى مابلغه في الماضي التغلب على الأمراض السارية .

أما نسبة الولادات في الغرب فيجب ان يقال في صددها ان المستوى الذي تم الوصول اليه عام (١٨٧٥) بقي ثابتاً عدة عقود من الزمن ، وقبل الحرب العالمية الثانية بلغت معدلات الولادات (١٥ — ٢٠) بالألف ، ويعادل هذا حوالي نصف النسبة عام ١٨٥٠ ، ويمثل الارتفاع في معدلات الولادات في كثير من البلدان الغربية بعد الحرب العالمية الثانية نقطة الانقطاع الأولى في تطور استغرق حوالي قرن من الزمان ، كما أنه يعني القضاء على الرتابة التي تميز بها تطور الولادات حتى ذلك الوقت ، ولكن يبدو أن من المؤكد أن نسبة الولادات في البلدان الغربية في المستقبل لن تجعل التطور ذا الأمد الطويل الذي حدث في الماضي قابلاً لأن يعيد نفسه .

ان فترات حركة التطور التي عرضناها هنا كانت مجالات زمنية يتم فيها نمو سكاني سريع مرتبطاً مع تغيرات في البنية العمرية للسكان ، فبين الشعوب الغربية المستقرة منذ القديم ازدادت النرويج والدانمارك وانكلترا وويلز والسويد وهولندا من ١٨٥٠ الى ١٩٥٠ بمقدار ضعفين الى ثلاثة أضعاف ، وقد حدث هذا على الرغم من النسب العالية للمهاجرين. ومن الطبيعي ان بلدان الغرب التي نشأت فيما بعد قد ازدادت بسرعة أكبر بكثير على أساس اعداد المهاجرين من جهة ، وبسبب زيادة معدلات الولادات على معدلات الوفيات .

ولا يشذ عن ذلك الا فرنسا التي لم

بنم سكانهـــا الا ببطء نتيجة لمعدلات الولادات التي ظلت تتناقص زمناً طويلاً، وارلندا التي هبط عدد سكانها هبوطاً شديداً بالهجرة وسن الزواج المتأخرة بعد المجاعة الكبرى في عام ١٨٤٠ . وبصورة عامة كانت نسبة الذين هم دون الخامسة عشرة الى السكان في البلدان الغربية عام ١٨٥٠ تبلغ حوالي (٣٥ ٪) ، وفي عام ١٩٥٠ بلغت هذه النسبة (٢٥ ٪) . وعلى الرغم من أن النسبة المئوية لمن هم فوق الخامسة والستين قد ارتفعت أيضاً ، فقد أصاب الجزء الأكبر من التوسع أولئك الذين هم بين الخامسة عشرة والخامسة والستين ، أي السكان الذين هم في سن القدرة على العمل .

ويعرض لنا شرق أوربا وجنوبهـــا تاريخاً اقصر للحركة السكانية الحديثة ، وهما المجموعة الثانية في تقسيمنا . وقد حدثت هنا عملية تحول اجتماعي واضحة وان تم هذا تحت شروط ثقافية واجتماعية واقتصادية مختلفة كل الاختلاف. ويضاف الى ذلك ان هذه العملية لم تك تقليداً للخبرات الغربية بل سارت في وقتها الخاص وعلى طريقتها الخاصة . فاتجاه الوفيات الى الانخفاض ليس مفاجئاً ازاء المنجزات الطبية وازاء الحق العام في حياه أطول في في القرن العشرين . والامر الأجـــدر بالملاحظة هو أن المناداة بنسبة للمواليد أقل ويمكن السيطرة عليها ، هي مناداة لاترتبط بزمان او مكان ، ويدل شرق أوربا وجنوبها على ان هذا المطلب يتجاوز حدود الثقافة الغربية بمعناها الضيق .

ففي عام ١٩٠٠ – وفي هذا الوقت وجدت المعلومات الاحصائية الشاملة للمرة الأولى – كان كل من معدلات الوفيات والمواليد في هذه البلدان يزيد على المتوسط الغربي في عـام ١٨٥٠ ، فالخروج على التقاليد كان اذن – خلافاً لما كان في الغرب – في معظم بلدان شرق أوربا وجنوبها حدثاً من أحداث هذا القرن ، وبعد أن بدأت هذه الحركة سارت بسرعة أكبر بكثير ، فبـين

الحربين العالميتين نقصت نسبة المواليد في بلدان شرق أوربا وجنوبها خلال عقد واحد نقصاناً كان الغرب يحتاج من أجل تحقيقه في حركته السكانية الى أكثر من جيل – حوالي (٣٠) الى (٦٠) عاماً – وفي الوقت الحاضر لاتزال معدلات الوفيات والمواليد في هذه البلدان تزيد على المتوسط الغربي ، غير ان الفرق قد أصبح أقل بكثير من ذي قبل ، فنسبة الولادات في كثير من أجزاء شرق أوربا وجنوبها تبلغ أقل من ٢٠ بالألف وهي ليست أكبر من ذلك بكثير في سائر الأجزاء . أما متوسط العمر المتوقع فيبلغ أكثر من ستين عاماً ، وهذا مستوى لم يبلغه الغرب الا منذ (١٠ – ٢٠) عاماً .

اما البلدان النامية ، وهي المجموعة الثالثة في تقسيمنا، فقد ظلت نسبة المواليد فيها في كل مكان تقريباً ثابتة في المرحلة التقليدية ، بل ان من الممكن ان ترتفع نتيجة لانخفاض معدلات الوفيات في بعض المناطق ، غير ان البيانات الاحصائية لايمكن الوثوق بها في اغلب الأحيان ثقة كافية تسمح لنا باصدار حكم ، فمن الجائز ان يكون قد حدث هبوط خفيف في نسبة المواليد دون ان نعلم به ، ومع ذلك فنحن نستطيع ان نقول ونحن على يقين ان ليس ثمة دلائل تشير الى انخفاض قوي في معدلات المواليد .

وفي هذه الاثناء هبطت نسبة الوفيات في كثير من البلدان بسرعة ليس لها مثيل في تاريخ الحركة السكانية . ففي كل البلاد النامية ، التي يوجد لدينا احصائيات عنها يمكن الاعتماد عليها الى حد ما ، يفوق المعدل الذي امكن به تخفيض نسبة الوفيات في الأعوام العشرة الى العشرين الاخيرة اعلى معدل للتخفيض نعرفه في تاريخ الحركة السكانية في الغرب ، ومن المؤكد ان معدلات الوفيات في بلدان اخرى متخلفة تهبط مجدداً بسرعة اقل على الرغم من ان هذا الهبوط لايزال كبيراً . وفي مناطق نامية اخرى – كافريقيا الوسطى والشرق الاوسط – نستطيع ان نتوقع في المستقبل

انخفاضاً في معدل الوفيات لأن الحكومات المعنية تقوم الآن بتعبئة اسلحة الطب الحديث ، ونتيجة هذا التطور زيادة في السكان في كثير من البلدان النامية ، فمعدلات الزيادة التي تزيد على ٢٫٥ بالمئة سنوياً عادية ومعدلات الزيادة التي تزيد على ثلاثة بالمئة سنوياً ليست بالنادرة .

ان معدل الولادات المرتفع ارتفاعاً ثابتاً في البلدان النامية سيؤدي الى بنية عمرية سيصبح بها حوالي ٤٠ ٪ من السكان دون الخامسة عشرة مقابل (٢٥) او (٣٠) بالمئــة في البلدان الأخرى . وستكون وسائل الانتاج الموجود تحت تصرف العــامل المتوسط محدودة ، وسيكون هناك رأس مال اقل ومقدار اقل من المصادر الطبيعية المساعــدة وأساليب اداوية اقل فعالية ، ولكن سيكون من الواجب تغذية المزيد من البشر ، والأمر نفسه يصح على مستوى الحكومات ، فجهاز التمويل المتخلف سيواجه مطالب المجتمع الكبيرة وبصورة خاصة فيما يتعلق بتربية الشباب .

وعلى اساس النسبة المئوية المرتفعة للأحداث في المجتمعات قبل الصناعية لابد للبالغين ان ينهضوا بأنفسهم من اجــل مجموعة من السكان بالغة التضخم دون ان تبلغ سن القدرة على العمل . ان مسؤولية السكان القادرين على العمل في سن (١٥- ٦٠) ازاء من هم اصغر سناً تعادل ضعفي تلك المسؤولية في الأمم الصناعية ، وهذا عبء قلما تستطيع هذه البلدان ذات الاقتصاد الضعيف ان تنهض به . فمع مثل هذه النسبة المرتفعة من الاطفال ومثل هذا الدخل الذي يبلغ غاية الانخفاض يغدو تأمين المأوى والغذاء والتربيــة للاعضاء الضعفاء في المجموعة السكانية من الأمور الصعبة جداً .

ومن الطبيعي ان من الممكن ان يسير انخفاض معدل المواليد في البلدان النامية - عندما يحدث ذلك - بسرعة اكبر بكثير من السرعة التي سار بها في الماضي في الغرب . وتدل على ذلك سرعة هذه العملية في البلدان التي بدأت فيها في

وقت متأخر كألمانيا وبلدان شرق وجنوب اوربا واليابان . ومن المؤسف اننا لانعرف الا قليلا جداً عن السنوات الهامة للتطور السكاني في اليابان بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩٣٠ ، غير اننا نعرف ان معدل المواليد اخذ يتناقص منذ عام ١٩٢٠ وانه استمر في التناقص بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالميـــة الثانية وانه تناقص بسرعة اكبر بعد الحرب العالمية الأخيرة ، وقد اصبح معدل مواليد اليابان اليوم دون هذا المعدل في البلدان الغربية كما ان معدل وفاته لايفوق كثيراً هذا المعدل في تلك البلدان .

وثمة شيء واحد نستطيع ان نقوله في الختام ونحن على يقين منه : عندما تبدأ حركة سكانية في البلدان النامية نتيجة لانخفاض المواليد فستكون البداية والسرعة التي تسير بها هذه العملية عاملين حاسمين فيما يتعلق بالرخاء المقبل والأمن للجزء الاكبر من سكان العالم .

مجلة الدراسات الشرقية

عرض: عبد المعين ملوحي

اصدر المعهد الفرنسي في دمشق المجلد التاسع عشر من مجلة الدراسات الشرقية لعامي ١٩٦٥ — ١٩٦٦ .

وقد تضمن العدد :

١ — ديوان ابي عيينة بن محمد بن ابي عيينة من ٨٥-١١٥

٢ — ديوان أخيه عبد الله بن محمد بن أبي عيينة من ١١٦-١٣١ .

٣ — كتاب «تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر» من ١٣٢ — ٣٤٥ .

اما الديوان الأول والثاني فقد جمعها وحققها الأستاذ محمد عامر غديرة في جامعة ليون ، واستطاع أن يجمع من شعر الأول ٢٠٦ أبيات تقع في ٢٦ مقطوعة ، ومن شعر الثاني ٣٢٥ بيتاً تقع في ٤١ مقطوعة . مع أنّ . ابن النديم في الفهرست (ص : ٢٣٣) قدر ديوان كل من هذين الأخوين الشاعرين بـ ٤٠٠٠ بيت .

لقد عرف العهد العباسي في القرن الثاني ثلاثة أخوة شعراء :

الأول هو – كما حقق الأستاذ غدير – عبد الله بن محمد بن أبي عيينة .

والثاني هو أبو عيينة بن محمد بن ابي عيينة .

والثالث هو داوود ومات صغيراً واختلط شعره بشعر أخويه .

ولاحظ المحقق ان بين شعري الشاعرين فروقاً ، فالأول ، وهو عبد الله اكثر نضجاً ومراساً ، والثاني وهو ابو عيينة أكثر عاطفة وحماسة ورقة . وعلاقات الأول سياسية بالدرجة الأولى ، وخاصة بطاهر بن الحسين وإسماعيل بن جعفر ومحمد بن يحيى بن خالد البرمكي .

اما مشاغل الثاني فكانت بالدرجة الأولى مشاغل حب لقريبة له تسمى فاطمة ، وعد بزواجها ثم تزوجت آخر ، فجعل يتشوق اليها ويحلم بها ، ويهجو في الوقت نفسه خالد بن يزيد المهلبي وهو له نسيب .

وذكر المحقق عدداً كبيراً من المصادر التي اعتمد عليها في جمع هذين الديوانين ، ونعتقد ان هنالك مصادر اخرى كثيرة لم يرجع اليها ، ولعلها تمده بجزء آخر من شعر هذين الشاعرين ، وقد مددت يدي الى الجزء الثالث (ص : ٨٤) من نهاية الأرب فوجدت ثلاثة أسطر من ثلاثة ابيات تذهب مذهب المثل لأحد هذين الشاعرين . منها شطران فقط (مثبتان في الديوان) اما الشطر الثالث وهو :

« وكيف جحود القلب والعين تشهد » .

فلم أجده في الديوانين معاً .

كما ان هنالك بيتاً في الصفحة نفسها نسبه لعبد الله بن ابي عتبة (وأظنه عيينة) المهلبي هو :

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الأعداء

ولم أجد البيت في الديوانين معاً .

وقد وجدت في الديوانين ملاحظات غير قليلة تتعلق بالطباعة رغم أناقتها وما فيها من عناية ، وبالاملاء ، وبالنحو والضبط وبالتحقيق ، وبالعروض .

ففي الديوانين أكثر من عشرة ابيات مكسورة ، وكان من الممكن ان تصحح في سهولة ويسر ؛ ولا اريد ان أعددها جميعاً واكتفي منها ببعضها:

ص ١٠ من الديوان س ٥ :

ولكنْ شهابٌ فان تَرُمْ بِهِ
مُهِمّاً تجد كوكبي مستنيرا

والصحيح : بي

ص ٢٣ س ٥ :

ودعاكَ عامل عسقلا
نَ الى وليمة فطرنا

والصحيح : الى وليمته

ص ٣٢ س ٥

سرقوا نصف آسمها
فهي دنيا وآخرة

والصحيح : إسمها بجعل همزة الوصل همزة قطع .

ص ٣٩ س ٢٣ :

فقالت :

فقد استوجَبْتَ منا عقوبة
ولكن سنرعى فيك روح بن حاتم

والصحيح : قد

ص ٤٣ س ١١ :

لاتلحقنْ إذا سألتَ ففي الإل
حاف إجحافٌ بهم وَعَنّا

وهو مكسور مرتين والصحيح :

لاتُلحفَنْ اذا سألتَ ففي الـ
إلحافِ إجحافٌ بهم وعنا

أما الاغلاط المطبعية والاملائية فأضرب عنها صفحاً ، وأنتقل الى بعض الأغلاط النحوية الصريحة التي لاتحتمل أن تكون مطبعية وهي كثيرة اسجل منها خمساً :

ص ٤ سطر ١٠ ومن قحطان كُلٌ
والصحيح كُلُّ

ص ٢١ سطر ٧ ما بقلبي أرقٌ
والصحيح أرقُّ

ص ٢١ سطر ٧ ولحبي أشدٌ
والصحيح اشدُّ .

ص ٢٧ سطر ١٦ ثعلبٌ مقردِ
والصحيح مقردُ

ص ٣٣ سطر ٢ فيه مشابهَ
والصحيح مشابهُ

كما سأغض النظر عن هفوات في التحقيق ليس لها وجه في اعتقادي ولكن الاستاذ المحقق وجد لها وجهاً منها تفضيله في ص ٩ رواية الشطر الآتي :

« يستأخر السابقُ الذكيُّ »

على طبعة بيروت : .... المُذَكّي

على أن روايته التي فضلها لا يستقيم بها الوزن .

واما البحث الثالث فهو نشر كتاب « تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر » للفقيه التلمساني محمد بن احمد بن قاسم العقباني ت ٨٧١ هـ — ١٤٦٧ م . وقد قام بتحقيقه الاستاذ علي الشنوفي من اخواننا في المغرب العربي .

وقد قدم الاستاذ الشنوفي للكتاب بمقدمة تناولت حياة المؤلف وعصره ووصف النسخة التي حققها من الكتاب ، كما نقد الكتاب ومحتواه وبين موضوعه بين الكتب التي تتناول الحسبة ، رغم ان اكثر الكتاب في الفقه ، والحسبة ناحية من نواحيه اهتم بها المستشرقون اهتماماً كبيراً .

وصاحب الكتاب من اسرة معروفة في تاريخ الفقه الاسلامي على المذهب المالكي ، ومن اكابر علمائها ابراهيم بن قاسم وسعيد بن محمد وقاسم بن سعيد .

ولاشك ان هذا الكتاب يستحق وقفة طويلة لاتتيسر لنا في هذه العجالة ، ولكننا لانجد بداً من الاشارة الى خطأ مطبعي في آية من آيات القرآن الكريم وردت في ص ٢٩ السطر ٩ وهي « والكاظمين الغيظ » لا للغيظ كما وردت في الكتاب .

لقد قضى المعهد الفرنسي في دمشق حقبة طويلة من الزمن وهو يقدم للغة العربية والحضارة الاسلامية خدمات جلى ، ويقوم بدور مشكور تعجز عن مثله مؤسسات كبرى . وكان آخر هذه الخدمات نشره للمجلد التاسع عشر من مجلته الراقية في ورق صقيل وطبعة أنيقة وتشكيل كامل .

انما نشكر كل الشكر ونعترف أطيب الاعتراف بما يقوم به المعهد من جهد ودأب وعمل ، ولكننا نرجو في الوقت نفسه ان تقوم المجلة بتعريب المقدمات التي يكتبها الاساتذة المحققون والناشرون لكتبهم وابحاثهم مع بقاء الاصل الفرنسي للمقدمات والملاحظات ، فلعل في ذلك مايعين من لايعرف اللغة الفرنسية على تتبع جهود المعهد والانتفاع بمقدمات الكتاب .

المنصفات

– جمع وتحقيق : عبد المعين الملوحي
– نشر : وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٧
عرض وتقديم : عدنان ابن ذريل

كانت العرب تطلق على نوع من القول الشعري ، المفرد ، أي الذي الأبيات المفردة، أو القصيدي ، أي الذي للقصائد الطوال ، اسم الشعر المنصف، أو القصائد المنصفة ، حين تجده يتسم بالصدق ، والمكاشفة ، والتعادل، في الجهر بالاعتراف بخصال الخصم المحارب ، في هزيمته ، أو انتصاره ، أو في إمحاض الاخاء ، والود، وتبريرهما ..

وهذا الاعتراف المنصف ، في القول الشعري ، كانت تجود به القرائح العربية بين الفترة والفترة ، وفي مناسبات عربية واجتماعية مختلفة ، في حالات العداوة والتطاحن والمشاكسة والانتصار او الاخاء والود .. وكان يلفت أنظار الرواة ، ونقاد الأدب والشعر ، فيتسقطونه ويتسقطون اخباره ؛ حتى اعتبروه شرطاً للرواية الكفية . والراوية المتتبع ،مثله مثل اشعار العشق، ونسيب الاعراب ، والارجاز القصار ، والتي لابد ايضاً من معرفتها وحفظها ..

ويقول الجاحظ البصري في البيان والتبين : « أدركت رواة المسجديين والمربديين ، ومن لم يَرْوِ اشعار المجانين العشاق ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار والأشعار المنصفة فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة»تحقيق هارون ، ج ٤ ص٢٣ .

ويشرح الطبرسي ، في خزانة الأدب الإنصاف ، فيقول : ـ للعرب قصائد قد أنصف قائلوها اعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطاوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أقوالهم في إمحاض الاخاء، قد سموها :المنصفات ـ ج ٣ ص ٥١٧ وما بعدها ..

وهناك إشارات متفرقة في كتب النقد والأدب الى الانصاف في القصائد والأشعار ؛ كما أن هناك شواهد متنوعة في الانصاف ، ظلت مع ذلك غفلة لم ينوّه بها الدارسون والرواة ؛ وكان من أريحية الباحث الأستاذ (عبد المعين الملوحي) أن جمعها ، وحققها ، وشرحها في مؤلفه الجديد والقيم : ـ المنصفات ـ من منشورات وزارة الثقافة بدمشق .

المبادرة ، إذن،الى جمع هذه الاشعار المنصفة ، وتحقيقها وشرحها ، عمل أدبي جليل وهام وشيق ؛ ويكشف النقاب عن جانب طريف من جوانب الحياة الأدبية الشعرية العربية وما استهدفته من موضوعات القول الشعري الاجتماعي والنفسي . . إنها إحياء لتراث قديم ؛ كما انها في الوقت نفسه ، إحياء لعرف ادبي نقدي ، اولمصطلح أدبي نقدي ، هو الانصاف ..

وقد تميزت الدراسة بالمنهجية العلمية ، الأدبية ، في الجمع والتحقيق والشرح على السواء : ان كل موضوع في الكتاب، وكل قصيدة ، وكل بيت من الشعر فيه محقق تحقيقاً علمياً ، ومشروح شرحاً أدبياً وافياً ..

ذلك انه يلاحظ على كتب النقد والأدب القديمة التفاوت في رواية القصيدة الواحدة ، او البيت الواحد من الشعر واخبارهما ومناسباتها . فالمهلهل ابن ربيعة يلتقي بأهله وبني عمه في معركة

عنيزة ؛ فاذا هو وهم من التعادل في القوة والبأس وحيا مدبر ، على رواية الأصمعيات :

كأنا غدوة وبني أبينا

بجنب عنيزة رحيا مدير

او ركنا تبير ، في رواية أخرى :

غداة كأننا وبني أبينا

بجنب عنيزة ركنا تبير

وهذا البيت المنصف ، الذي كما نرى اختلفت روايته من راوٍ الى آخر ، من أجله سمي (المهلهل بن ربيعة) عند بعضهم ، اول من انصف في شعره ، في حين أن هنالك شعراء منصفون آخرون تقدموه . وقد تسقط المحقق أخبارهم واشعارهم تسقطاً على مظانها ، فجمعها ، وحققها ، وشرحها :

مثل ذلك ، ان المنصفة الأولى :

ألم تر أن جيرتنا استقلوا

فنيتنا ونيتهم فريق ..

وهي للمفضل النكري ، يذكر (الأصمعي) في أصمعياته أنها للمفضل بن معشر بن اسحم ؛ في حين يذكر (الخالديان) في الأشباه والنظائر ، أنها لعم المفضل ، واسمه عامر ؛ كما ذكرت كتب اخرى نحو ذلك ..

أما عدة أشعار هذه المنصفة ، فهي في الأصمعيات تسعة وثلاثون بيتاً ، في حين هي في (حماسة البحتري) ثلاثة عشر بيتاً ، وفي الأشباه والنظائر ثمانية عشر بيتاً ..

والحال شبيهة بالنسبة للمنصفة الثانية :

ألا حييت عنا يا ردينا

نحييها وإن كرمت علينا

فهي في (حماسة أبي تمام) لعبدالشارق ابن عبد العزى الجهني ؛ وفي (حماسة البحتري) هي لسلمة بن الحجاج الجهني ، وفي (الاشباه والنظائر) هي لعبدالشارق ابن عبدالعزيز الجهني .

وعدة اشعارها في الحماستين خمسة عشر بيتاً ، وفي الاشباه والنظائر هي ستة عشر بيتاً ، بزيادة بيت واحد هو :

فمن يرنا يقل ليلٌ أتيٌ

نكرُ عليهم ، وهم علينا

وقد اتبع المحقق في جمعه وتحقيقه

خطوتين، أولاهما: أنه عدد مانعته العرب اشعاراً منصفة، وثانيتهما أنه عرض مقطوعات شعرية فيها انصاف حربي أو اجتماعي حققه وشرحه.

واستطاع المحقق ان يجمع في كتب الأدب، كالخزانة وحماسة ابي تمام وغيرهما، قصائد نعتت بالانصاف، مثل قول المهلهل بن ربيعة، ومنصفة الفضل بن العباس اللهبي، ومنصفة ابي الأخيل العجلي، فذكر ان المنصفات الطوال التي استطاع الوقوف عليها ست، في حين جمع مقطوعات عديدة في الإنصاف أفردها بقسم من كتابه، وحققها، وشرحها..

لنلاحظ ان هذه القصائد المنصفة الطوال، لاتقتصر على شعر الحماسة او شعر القتال أو شعر الإنصاف، وانما كثير منها قصيد عمودي تقليدي يجري على العرف الأدبي التقليدي في افتتاح القصيدة ونظمها. فيفتتح بالنسيب، ثم يميل الى الوصف، او الحماسة، او التعادل، او الفخر، او اظهار البغضاء، او امحاض الإخاء..

ان منصفة (العباس بن مرداس السلمي) تفتتح على النحو التالي:

لأسماء رسم أصبح اليوم دارساً
وأقفر منها رحرحان فراكسا

ثم يميل الشاعر الى اغراض مختلفة منها الانصاف..

في حين تعالج منصفة (الفضل بن العباس) موضوعها مباشرة:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا
لاتنبشوا بيننا ماكان مدفونا
لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم
وأن نرد الأذى عنكم وتؤذونا

كما تعالج منصفة (ابي عروبة المدني) موضوعها مباشرة:

إني وإن كان ابن عمي غائباً
لمزاحم من دونه وورائه
ومفيده نصري، وان كان امرأ
متزحزحاً في أرضه وسمائه

الجهد العلمي والأدبي، للكشف عن أرث شيق وهام من أدبنا العربي القديم، في هذا الكتاب، جليل وقيم.

مجلة المجلات

نحن.. والمعركة

عرض وتقديم : هشام الدجاني

نحن في المعركة.. والصحف والمجلات العربية كلها في المعركة. وقد اخترنا من المجلات العربية مقالات عالجت بعض موضوعات المعركة ونتائج العدوان الاسرائيلي على الامة العربية.

« الحرب النفسية والعدوان » هو عنوان بحث نشرته مجلة الكاتب (١) واشترك فيه خمسة من الدارسين هم : الاستاذ عبد الجليل حسن والاستاذ أحمد نبيل الهلالي والدكتور مختار التهامي والدكتور رؤوف نظمي والاستاذ أديب ديمتري . وهو بحث مسهب يتناول نواحي عدة .

الحرب النفسية والفكرية عن طريق الاشاعات جزء من الحرب الشاملة ، بل لعلها اخطر واهم من الحرب العسكرية . وبالتالي فان التصدي لهذه الحرب ومقاومتها جزء من الانتصار في المعركة مع الاستعمار وقاعدته اسرائيل . وقد كانت هذه الحرب النفسية التي يمارسها الاستعمار ضدنا بخبث ترمي الى اغراض محدودة على المستويين الدولي والمحلي العربي . فعلى المستوى الدولي تستهدف الحرب النفسية ضدنا هدفين احدهما :

(١) الكاتب عدد تموز (يوليو) ١٩٦٧ - القاهرة .

تضليل الرأي العام العالمي وذلك عن طريق تشويه اهداف الامة العربية ، وتصوير الحرب التحررية على انها حرب شوفينية عنصرية تستهدف إبادة اليهود كجنس ، والقضاء على اليهودية كدين . وقد نجحت حملة التضليل هـــذه – وخاصة قبل العدوان الاسرائيلي السافر – في التأثير على قطاعات هامة من الرأي العام العالمي بدرجة او بأخرى ، وفي اخفاء الوجه الحقيقي الكريه للصهيونية .

والهدف الثاني الذي استهدفته هذه الحرب النفسية هو : **عزل العرب عن اصدقائهم .** اذ اتجهت الحرب النفسيـــة بكل ثقلها الى محاولة تشكيك العرب في اصدقائهم بالمعسكر الاشتراكي ، وخاصة الاتحاد السوفيتي . ورددت الدعاية الاستعمارية في هـــذا السبيل نغمات متنوعة ومتفاوتة . منها اتهام الاتحاد السوفيتي بالتخلي عن العرب وخذلانهم في معركة المصير ، ومنها اتهامه باستغلال الموقف لفرض شروط غير مقبولة على العرب . وما أن توقف اطلاق النار حتى اتخذت هذه الدعاية طابعاً جديداً . اذ راجت الشائعات حول استغلال الاتحـــاد السوفيتي لقطع البترول العربي عن الغرب لبيــع البترول السوفيتي للدول الغربية .

وهدف الحرب النفسية بالنتيجة هو عزل العرب عن اصدقائهم . وايهام العرب انهم يقفون وحدهم في معركة غير متكافئة ، مما يسهل تحطيم معنوياتهم ، ويحقق إمكانية تقبل العرب للأمر الواقع الذي يحاول الاستعمار فرضه علينا .

اما على الصعيد المحلي العربي فقـــد استهدفت الحرب النفسية افتعال الأزمات بين الدول العربية قبيل العدوان لشغل العرب في معارك جانبية عن مجابهة العدو الذي يتأهب لعدوان غادر . من ذلك محاولة افتعال ازمة حدود بين مصر والسودان ، ومحاولة دس بين العراق والكويت ، وحـــادث التخريب الاجرامي الذي حدث في الأردن قبل العدوان بأيام قلائل .

وأخطر ما اتجهت اليه الحرب النفسية من اساليب هو محاولة هدم ثقة الشعب في قواته المسلحـــة . واستغلت الدوائر الاستعمارية ماتوهمت انه تقصير او اخطاء لتطلق سيلاً من الشائعات التـــي ترمي الى تشويه سمعة الجيش المصري وانكار نضاليته العالية واخفاء البسالة الفائقـــة لأفراده رغم كل النواقص والأخطاء .

ونشـــطت الحرب النفسية في ترويج الاساطير المختلفة حول انسانية العدو في معاملة الأسرى والجنود العرب ، في محاولة خبيثة . لتهيئة الاذهان لقبول التعايش مع العدو الغادر ، ولاخفاء معالم جرائم الحرب البربرية البشعة التي ارتكبها اثناء الحرب (استخدام قنابل النابالم – القتل الجماعي – ترحيل الشباب الى داخل الاراضي المحتلة) والـــتي لاتزال يرتكبها بعد وقف القتال على الاراضي العربية المحتلة .

وفي نهاية هذا الجانب الهام من البحث وضح الاستاذ احمد نبيل الهلالي ما حاولته هذه الحرب النفسية من استغلال النكسة وعواقبها لاثارة ونشر روح الانهزامية والاستسلام بين الجماهير ، ولتصوير النكسة العسكرية المؤقتة على انها هزيمة نهائية للعرب على يد عدو لايغلب .. وذلك لارغام العرب على قبول شروط المعتدين .

وهذه الحرب النفسية استخدمها نازيون جدد(١) . من هذه الزاوية تحدث الاستاذ اديب ديمتري ضمن الاطـار الواسع الذي اخترناه للبحث وهو « الحرب النفسيـة والعدوان » .

يقول كاتب المقال : « والطريقة التي كان يباغت بها هتلر ضحاياه .. من النمسا الى تشيكوسلوفاكيا ومن بولندة الى فرنسا .. هي نفس الطريقة التي تبني عليها الاستراتيجية الامريكية اليوم . والهدف القريب في المرحلة الراهنة أن تتساقط البلدان العربية من تلقاء نفسها تحت وطأة سيكولوجية الرعب .. وتتسـاقط من بعدها الدول الافريقية المتحررة .. وبأقل الجهود والتكاليف .. ليس على الثعبان الا ان يفغر فاه » .

ومن هذا المنطلق راحت اجهزة دعاية العدو تروج الاشاعات عن اسلحة فتاكة ، ومؤثرات عسـكرية لاترد . وهي نفس الأحاديث التي طالما ترددت عن مخزن ١٣ واسلحة الالمان السرية الجهنمية . والكل يصب في هدف واحد هو اثارة القلق العميق والاحساس بالقوة المطلقة للعدو .

ولكن الدعـاية المستنـدة الى القوة والعنف لاتظل خالصة ، بل لابد ان تمزج بالاغراء والوعد .. لابد ان يتمزق الكائن بين الرغبة والرهبة .. بين الخوف والامل .. بين القلق ونشدان الأمن . والدعاية الامريكية لاتكف عن التلويح بالسلام في نفس الوقت الذي تصعّد فيه الحرب . وتمديدها بالمعونة في نفس الوقت الذي تهدد فيه من يقف في وجه أطماعها .

ولكن الى اين تسير سياسة العنف والارهاب؟ ألا يقف في وجهها شيء ؟!

أجل .. في مواجهة الحرب الخاطفة تقوم حرب الشعوب .. في مواجهة العسكرية الغاشمة يقوم قتال الشوارع والمدن والقرى ، وكل أساليب حرب التحرير بأبعادها الروحية والنفسية والعسكرية . واذا كانت الحرب الخاطفة تعتمد على اشـاعة الرعب وروح الاستسلام والهزيمة .. فهذه اسلحة تعبر عن النفس القصير .. وفي مواجهتها تقدم الشعوب سياسة النفس الطويل .. حرب التحرير التي لاتعرف سوى التضحية في مواجهـة الاستسلام .. والروح العـالية في مواجهة الهزيمة والشجاعة بديلاً عن الرعب . وهذا الدرس ليس جديداً ، فقد قدمته كل شعوب

---

(١) صفحة ٣١ من المجلة .

اوربا وآسيا في مواجهة البربرية النازية واليابانية في الحرب الثانية .. وقدمته الجزائر، وتقدمه الآن فيتنام والجنوب العربي. ان الحرب الخاطفة وهم لا يخدع به الامريكيون الا انفسهم لأن الشعوب تملك السلاح الاقوى .. النفس الطويل .. والروح العالية .

والحرب النفسية التي تشنها دول العدوان علينا اليوم مستخدمة الأساليب كافة ليست وليدة يومها . ان لها قواعد ثابتة عملت سنين طوالاً عـلى تأسيسها في بلادنا عن طريق التسلل الى ثقافتنا وفكرنا العربي أو قل الغزو الحضاري بجوانبه العلمية والثقافية والتقنية كافـة . فالعدوان اذن كان له احتياطي ثقافي (١) ، وفكري طويل المدى في بلادنا . **فمنذ الحرب العالمية الثانية — والغزو الحضاري والفكري كانا قد بدءا من الغرب على عالمنا العربي والاسلامي قبل ذلك بوقت طويل — عكفت امريكا على وضع مخطط واسع وبعيد المدى لتكوين احتياطي ثقافي تربوي لها حتى يكون أداة لتحقيق أهداف السياسة الامريكية في البلاد العربية** . وانهمكت امريكا في انشاء وتدعيم وسائل الدعاية على شكل ثقافة وعلم. **ويمكن ان ندرج كل الوان النشاط الثقافي الامريكي في بلادنا تحت ما سماه فيليب كومز** - المسؤول عن العلاقات الثقـافية مع الدول الاجنبية في وزارة الخارجية الامريكية - **بالبعد الرابع للسياسة الخـارجية الامريكية .**

وقد اعترف كومز نفسه بأن هذه البرامج الثقافية والتعليمية « كان لها اثر أكبر بكثير من حجمها » .

وبرامج فولبرايت للتبادل الثقافي ، ومنح فورد وغيرها من المنح التي تمنحهـا المؤسسات الامريكية ، وبرامج الابحاث الاجتماعية والنفسية التي تقوم بها هيئات « علمية » امريكية في البلاد العربية ، ومشروعات النقطة الرابعة ، ووسائل التبشير (كنيسة ، مدرسة ، مستشفى) ، ومؤسسات النشر (فرانكلين) التي تقوم على ترويج الثقافة الامريكية عن طريق نشر المطبوعات والكتب والمجلات المختلفة زاهية الألوان ، وأخيراً وليس آخراً الافـلام الامريكية السينمائية والتلفزيونية ، كلها أدوات تستخدمها الجهزة المختصة للاستعمار فكرنا والتأثير على عقولنا . كل هذه الوسائل « الثقافية » المتنوعة التي تبدو بريئة المظهر تستخدم لتحديد خط سيرنا الثقافي ضمن الخطط الذي يرسمون ويريدون .

وهـذا التسلل الثقافي والفكري المدروس الى اجهزتنا التعليمية والثقافية يعتمد على التعامل مع الشخصيات المؤثرة ذات المراكز « المرموقة » في المجتمع . لذا لم يكن غريباً مثلا ان يتولى الاشراف والمراجعة والتقديم لكتب مؤسسة فرانكلين

---

(١) صفحة ١٦ المصدر السابق - الاستاذ عبد الجليل حسن .

مثلاً اشخاص من مستوى وكلاء الوزارة وأساتذة الجامعات .

ان الغزو الثقافي والفكري هما امضى اسلحة الاستعمار ، وهما اخطر بكثير من الغزو العسكري او الاقتصادي . وليس أدل على ذلك من أن مؤسسات الاستعمار الغربي وأجهزته « الثقافية » في بلادنا قامت خلال فترة طويلة «بمسح» عقولنا و«تسميم» أفكارنا ، أي أنها قامت بالتمهيد لهذه الحرب النفسية فكانت « أرضية » صالحة لما تطلق منها أجهزة الحرب النفسية المعادية ما تريد من اشاعات وافكار .

وبعد يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً صريحاً وقوياً : **ماذا فعلنا نحن لمواجهة الحرب النفسية المدروسة القائمة على أسس علمية وفنية ، وعلى رصيد طويل من الخبرة والاعداد الهائلين ؟** ألا يجب علينا أن نقف برهة لنقوم بنقد ذاتي بناء لأساليبنا الاعلامية والنفسية التي استخدمناها في المعركة ، والتي مازلنا نستخدمها في مواجهة هذه الحرب النفسية التي مهدنا لها بالدراسة ، وشرحنا أساليبها ومقاصدها وأبعادها ؟

وقد أوضح الدكتور مختار التهامي بعض أوجه القصور والأخطاء لدى صحافتنا العربية وإذاعاتنا أثناء المعركة في مقاله « صحافتنا .. والمعركة .. والحرب النفسية » (١) . لقد ألغت الاذاعة أثناء المعركة دور الصحافة الاخباري ، وأصبحت أخبار الصحف جميعها قديمة ومتخلفة عن الأحداث وخاصة مع سرعة سير الأحداث في الأيام الثلاثة الأولى . وقد كان واجب الصحف اليومية أن تهتم في المقام الاول بالتحليل والشرح والتعليق على الأحداث بأسلوب يحفظ ثقة الجماهير بنفسها وبقيادتها وبالنصر النهائي ، رغم تطور الأحداث الحربية لغير صالح العرب في الجولة الأولى . ولكن اهتمام صحفنا اليومية تركز مع الأسف على الأخبار التي لم تعد جديدة في الوقت الذي كان الناس فيه متعطشين للتحليل السياسي الذي يرفع معنوياتهم وخاصة بعد افتضاح تدخل أمريكا السافر في المعركة الى جانب اسرائيل .

ويركز بعد ذلك الدكتور تهامي هجومه على دار الأخبار فيقول : « والأمر الذي يسترعي النظر ويلفت الانتباه حقاً هو أن معظم هذه الأخطاء كانت نتاج دار صحفية واحدة هي دار الأخبار . ففي الوقت الذي كانت تقوم فيه الأهرام والجمهورية عن طريق سلسلة من المقالات والتحقيقات بتمهيد الرأي العام للمعركة بأبعادها المختلفة واحتمالاتها المتوقعة .. كانت جريدة الأخبار ، فيما كانت تنشره يومياً عن تفاصيل استعدادات تل أبيب ، تكاد تسهم في الحرب النفسية ضدنا » (٢) .

---

(١) المصدر السابق — ص ٢٣

(٢) ص ٢٣ و ٢٤ المصدر السابق

وإذا انتقلنا للحديث عن الاذاعة ودورها في المعركة ، فلا بد أن نقول – رغم جهدها الكبير – ان أحداً ممن خططوا لدور الاذاعة ، وخاصة في الايام الأولى للمعركة ، لم يقرأ كتاباً واحداً عن الاسلوب الذي ينبغي أن يراعى في مخاطبة الجماهير خلال معركة حربية ونفسية مشتعلة الأوار .

ان مواجهتنا لهذه الحرب النفسية يجب أن تبنى – بعد كل هذا الاستعراض لوسائل العدو وأساليبه – على أسس علمية سليمة تكفل صلابة مقاومة المواطن ، وتسمو بمعنوياته وتطلعاته ، وتدعم من ثقافته . وأساس العمل الاعلامي في المعركة هو الصدق ، فالكذب يؤدي الى فقدان الثقة ، وفقدان الثقة معناه الضياع .

• • •

نحن في المعركة .. والمعركة مستمرة والعرب في هذه الفترة الخطيرة الحرجة من تاريخهم ، مطالبون بأن يستعرضوا إمكاناتهم كافة ، وأن يستخدموا كل أسلحتهم ووسائلهم في المعركة في سبيل النصر . وفي أيدي العرب في المعركة سلاح فعال أو قل أسلحة فعالة يستطيعون استخدامها ضد العدو . تلك هي « الحرب الاقتصادية ضد الاستعمار » .

ويلخص الدكتور عبد الرزاق حسن في مقالته التي تحمل هذا العنوان في مجلة الطليعة هذه الأسلحة الاقتصادية [1] ، بما يلي :

- **الأرصدة السائلة (الودائع)**
- **قناة السويس**
- **الاستثمارات الثابتة**
- **التجارة الخارجية**
- **النفط**

ولا بد من أجل دراسة واعية وتقويم شامل لجدية هذه الحرب الاقتصادية وفعاليتها من دراسة كل هذه الأسلحة أو الوسائل على حدة .

الأرصدة السائلة :

تقسم الارصدة الحسابية في البلاد المعتدية الى ارصدة دائنة وارصدة مدينة . فيوجد لبعض البلدان العربية ارصدة ضخمة في بريطانيا ، كما تحتفظ السعودية بقدر طيب من ارصدتها في الولايات المتحدة . وعلى العكس من ذلك تحتفظ الولايات المتحدة

(١) مجلة الطليعة – القاهرة العدد السابع (تموز – يوليو) ١٩٦٧ ص ٢١

بأرصدة لها في الجمهورية العربية المتحدة نتيجة للقروض المختلفة المقدمة في السنوات العشر الاخيرة . وتقدر الارصدة الدائنة للبلاد العربية في كل من بريطانيا وامريكا بحوالي ١٠٠٠ مليون جنيه ، والارصدة المدينـــة بحوالي ٥٠٠ مليون جنيه . ويمكن للبلاد الدائنة ان تسحب ارصدتها النقدية . وقد سبقت السودان الى هذا الاجراء فسحبت حوالي ١٦ مليون جنيه كانت تحتفظ بها في مصارف بريطانيا .

ويؤدي هذا الاجراء ـ سحب الودائع من بريطانيا خاصة ـ الى استنزاف جزء كبير من النقد الاجنبي في بريطانيا فيختل ميزان مدفوعاتها ، وترتفع الاسعار .

واذا اخذنا بالارقام ، التي نشرتها احدى الهيئات الرسمية في انجلترا عن الارصدة نجد ان ارصدة (ودائع) بلدين عربيين علاوة على شياخات الخليج العربي قدرت في ديسمبر ١٩٦٦ بمبلغ ٣٩٠ مليون جنيه ، هذا في الوقت الذي لم تكن بريطانيا تملك فيه اكثر من ٤١٤ مليون جنيه عملات قابلة للتحويل . فلو سحبت هذه البلاد هذا المبلغ لكان معناه خفضاً في العملات الاجنبية ، وعجزاً في ميزان المدفوعات بهذا القدر مما يجعل بريطانيا في مركز اقتصادي ضعيف ..

وسحب الارصدة النقدية اجراء اساسي لضمان فاعلية منع تدفق البترول حتى لا تقوم الدول المعتدية بتجميد هذه الارصدة كاجراء انتقامي .

اما بالنسبة للبلاد المدينة فيمكنها ان تجمد الارصدة الانجليزية والامريكية في بلادها . وهـــذا يعني حرمانها من استخدام هذه الارصدة . ويمكن بعد ذلك دراسة حسابها لمواجهة التعويضات الناشئة عن العدوان الغاشم .

قناة السويس :

وهي احد الشرايين الاساسية للحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اي بين مصادر المواد الخام واسواق الاستهلاك من ناحية وبين البلدان الصناعية من ناحية اخرى . وقد مر في قناة السويس سنة ١٩٦٦ ما

زنته ٢٤٢ مليون طن من السلع، وهو ما يمثل ١٤٪ من التجارة العالمية . ومن هذا القدر مر بالقناة ١٧٦ مليون طن من البترول بنسبة ١٨٪ من تجارة العالم النفطية .

وتختصر الملاحة بالقناة المسافة التي تعبرها السلع بنسبة ٣٦٪ للمسافة من هونغ كونغ الى لندن، وبنسبة ٥٤٪ للمسافة من الخليج العربي الى لندن . ويؤدي هذا الى زيادة عدد الرحلات التي تقوم بها السفن بنسب تتراوح بين ١٦٪ و ٦٤٪ .

وقد ادى اغلاق القناة الى زيادة الطلب على ناقلات البترول وسفن شحن البضائع ، وارتفاع اسعار النقل والتأمين . وقد انعكس اثر ذلك على اسواق الاوراق المالية في الغرب ، فانخفضت اسعار الاوراق وبالذات بالنسبة لشركات البترول ومعامل التكرير .

ولا شك ان رديف اغلاق القناة في التأثير على اقتصاديات الغرب هو اغلاق انابيب النفط . فمجموع انتاج البترول العربي الذي ينقل عن طريق قناة السويس والأنابيب معاً هو ٢٢٥ مليون اي ان حاصل طرح ماينقل بالقناة (١٧٦م طن عام ١٩٦٦) من هذا الرقم الاجمالي ينقل بالأنابيب عبر سوريا والاردن ولبنان (التابلاين) . ولا شك ان نقل البترول العربي (في حالة استمرار ضخه) عن طريق رأس الرجاء الصالح سيزيد من أعباء الشركات الغربية .

الاستثمارات الثابتة :

تقدر الاستثمارات الثابتة الانغلو امريكية في البلاد العربية بمبلغ ٧٠٠٠ مليون دولار، ٩٠٪ منها ممثلة في مشروعات بترولية أو متصلة بالبترول . والباقي في مشروعات تعدين وبنوك وشركات تأمين . ومقدار هذه الاستثمارات يتراوح بين ٤٠٠٠ — ٤٢٠٠ مليون دولار .

ويمكن للبلاد العربية ان تؤمم هذه الاستثمارات أو تملكها لشركات وطنية كما فعلت مصر بعد العدوان الثلاثي

عام ١٩٥٦ بالنسبة للاستثمارات الانجليزية والفرنسية . وقد بادرت الجزائر في الحرب الحالية الى فرض سيطرة الدولة على المشروعات الانجليزية والامريكية ، كما اتخذ السودان نفس الاجراء بالنسبة للاستثمارات البريطانية ، وهي الغالبة فيها . وهذا الاجراء يزيد من فعالية الدول العربيــة ويمنحها الكثير من الامكانات التي تعينها على تطوير حياتها وتنميتها .

التجارة الخارجية :

هناك نسبة كبيرة من تجارة البلاد العربية تتم مع الغرب وبالذات مع أمريكا وبريطانيا . فتستورد من الاولى ماقيمته ٢١٢ مليون جنيه سنوياً ومن الثانية ماقيمته ١٣٠ م جنيه سنوياً . وما زالت بعض البلدان العربية تربط نقدها بانجلترا كالعراق والاردن وليبيا . واذا كانت معظم البلدان العربية قد قطعت علاقاتها السياسية مع امريكا وبريطانيا ، وسارت بعضها شوطاً أبعد بمقاطعة التجارة مع الدولتين المعتديتين كسوريا والجزائر و ج.ع.م والسودان واليمن ، فان الأمر يقتضي من الدول العربية إعادة تقويم علاقاتها التجارية مع هاتين الدولتين . وسلاح المقاطعة ، وحرمان اساطيل هذه البلاد البحرية والجوية من استخدام الموانىء والأجواء العربية يؤدي الى متاعب هائلة للبلاد المعتدية في مجالات التجارة ، وفي الناحية الستراتيجية .

وليس هناك شك في أن الظروف الحاضرة هي انسب الظروف لاعادة البلاد العربية لتنسيق علاقاتها التجارية الخارجية وفقاً لمصالحها المادية ومستقبلها.

* * *

البترول هو أمضى أسلحة العرب في المعركة اذا أحسن استخدامه . وقد ملأ الحديث عن البترول صفحات طوالاً من المجلات والصحف العربية والاجنبية على السواء . كما شغلت اذاعات العالم بالتعليق على قطع البترول العربي ، واثر هذا القطع

وجدوله . ومن بين الابحاث الكثيرة التي نشرت حول هذا الموضوع اخترنا دراسة رصينة اشترك فيها كل من الاستاذ عبد الله الطريقي والدكتور نقولا سركيس والعنوان المشترك لهذه الدراسة التي نشرت في مجلة « البترول والغاز العربي [1] » هو : سلاح البترول والمعركة .

يقول الاستاذ عبد الله الطريقي :

« في الوطن العربي ثلاث مناطق رئيسية تحتوي رواسب ضخمة من البترول هي :

١ ـ منطقة الخليج العربي .

٢ ـ منطقة خليج السويس والصحراء الغربية المصرية .

٣ ـ منطقة شمال أفريقيا .

وتحتوي هذه المناطق الثلاث على مالا يقل عن ٥٨،٥٪ من احتياطي النفط الموجود في العالم . فان احتياطي العالم يبلغ ٥٢ بليون طن ، ويبلغ احتياطي الوطن العربي ٢٩،١ بليون طن . وكانت الزيادة في احتياطي العالم ١٠،٥ بالمئة في عام ١٩٦٦ ، بينما كانت الزيادة في الاحتياطي العربي ١٥٪ منها ٥،٥٪ في السعودية وحدها [2] » .

والى ذلك فان رواسب البترول العربي توجد في أراض صحراوية لاتبعد كثيراً عن البحار ، مما يعطي لهذه الرواسب ميزة ايصالها الى الاسواق بأقل كلفة ، فضلاً عن ميزة سهولة استخراج النفط من الحقول العربية نظراً لوجود ضغط طبيعي كبير في جوف الأرض يدفع البترول دفعاً ذاتياً الى السطح مما يخفض من مصاريف الانتاج ويزيد بالتالي من ارباح الشركات العاملة في هذه الصناعة .

والآن ماذا يعني سلاح البترول بالنسبة لنا ؟ وكيف ومتى وبأية شروط

---

(١) عدد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .
(٢) ص ٤ من المصدر المذكور .

يمكننا استعمال هذا السلاح للدفاع عن كياننا ولتحقيق مصالحنا ؟

وللإجابة على هذه الاسئلة سنبحث أولاً مدى فعالية التدابير التي اتخذت مؤخراً ، ثم ننتقل بعد ذلك الى بحث جوهر القضية البترولية من خلال شروط استثماره الراهنة في العالم العربي.

الجزء الاول : التدابير الأخيرة وآثارها على الغرب

اشتملت هذه التدابير الأخيرة التي اتخذتها الدول العربية المنتجة والمصدرة للنفط على اجراءين ، الاول : منع تصدير البترول العربي الى امريكا وبريطانيا . والثاني ايقاف عمليات الانتاج في بعض الدول العربية .

ولا بد من بحث كل اجراء على حدة لادراك مدى أهميته وفعاليته كسلاح في الحرب الاقتصادية .

اتخذ الاجراء الأول باجماع الدول العربية ، فما هي نتائج هذا الاجراء؟

يبدو لأول وهلة ان هذا الاجراء أشد وطأة على بريطانيا . اذ ان ماتستورده من البترول العربي يزيد عن ثلثي وارداتها وحاجاتها الاستهلاكية كما يدل على ذلك الجدول الآتي:

مصادر استيراد النفط الخام لبريطانيا عام ١٩٦٦

المصدر	الكمية المستوردة مقدرة بالبرميل اليومي	النسبة المئوية
السعودية	١٣٤٫٨٠٠	٩٫٦
الكويت	٣٢٥٫٠٠٠	٢٣٫١
العراق	٢١٥٫٤٠٠	١٥٫٣
قطر	٥٥٫٥٠٠	٣٫٩
أبوظبي	٣٦٫١٠٠	٢٫٦
الجزائر	٣٢٫٣٠٠	٢٫٣
ليبيا	٢٠٨٫٣٠٠	١٤٫٨
ايران	٨٩٫٢٠٠	٦٫٣

فنزويلا	١٢٣٫٧٠٠	٨٫٨
نيجيريا	١٤٤٫٦٠٠	١٠٫٣
كولومبيا	٢٣٫٠٠٠	١٫٦
ماليزيا	٢٫٦٠٠	٠٫٢
هولندة	١٣٫٧٠٠	٠٫٩
تركيا	٢٠٠	—
جزر الأنتيل	١٠٠	—
الولايات المتحدة	١٫٣٠٠	٠٫١
البيرو	٢٫٩٠٠	٠٫٢
	١٫٤٠٨٫٧٠٠	١٠٠

يستدل من الجدول السابق ان كميات البترول الخام التي استوردتها بريطانيا من الدول العربية عام ١٩٦٦ بلغت ١٠١٫٥ مليون طن وتشكل هذه الكميات ٧١٫٦٪ من مجموع واردات بريطانيا عام ١٩٦٦ و ٦٤٪ من مجموع حاجتها الاستهلاكية (٧٩ مليون طن).

اما بالنسبة للولايات المتحدة فاعتمادها على البترول العربي اقل بكثير من اعتماد بريطانيا، اذ ان مجموع ما استوردته من البلاد العربية عام ١٩٦٦ لم يتجاوز ١٥٫٥م طن . وتشكل هذه الكمية ٢٥٪ من مجموع واردات الولايات المتحدة (٦٢٫٣١م طن) و٢٫٧٪ من حاجات استهلاك السوق الامريكي (٥٨٠م طن).

يمكن القول اذن ان منع تصدير البترول العربي الى بريطانيا والولايات المتحدة يمكنه ان يؤثر «مبدئياً» على هذين البلدين، وخاصة بريطانيا. نقول «مبدئيا» لان بامكان بريطانيا وامريكا ان تستعيضا عن البترول العربي بزيادة الاستيراد من مصادر اخرى . اذ لما

كانت الشركات البريطانية والامريكية هي المسيطرة على معظم مرافق تجارة النفط في العالم ، فان هـذه الشركات بامكانها مواجهة قرار حظر التصدير العربي للنفط الى بريطانيا وامريكا بمجرد تعديل توزيع الصادرات الى مختلف بلدان العالم. ويكفي لذلك ان تحول كميات البترول العربي التي كانت مخصصة للسوقين البريطاني والامريكي الى بلدان اخرى كاليابان وبلدان اوروبا الغربية الاخرى، ويعوض عن هـذه الكميات بتحويل البترول الايراني والفنزويلي والنيجيري وغيره الى بريطانيا والولايات المتحدة . وهكذا تكون الشركات قد ابطلت مفعول التدابير العربية بالرغم من تقيدها الشكلي بها . ولا يمكن شل تدبير الشركات المضاد في الواقع الا بالمحافظة على نسبة النفط المصدر من الدول العربية الى دول العالم الاخرى (باستثناء بريطانيا وامريكا بالطبع) . ومالم يتخذ هذا الاجراء فان النتيجة العملية الوحيدة التي يمكن ان تؤدي اليها التدابير العربية حالياً هي اضطرار بريطانيا لشراء جزء من وارداتها النفطية بالدولار عوضاً عن الاسترليني، بما يشكل استنزافاً جزئيا لرصيدها من الدولار .

بناء على هذه الحقائق يمكننا القول بأن الاكتفاء بمنع تصدير النفط العربي الى كل من بريطانيا وامريكا ليس الا اجراءاً محدود الفعالية ودون المستوى المطلوب .

والاجراء الثاني الذي اتخذته بعض الدول العربية هو وقف الانتاج النفطي . وهذا الاجراء ذو نتائج فعالة في الواقع . ذلك ان استهلاك اوروبا الغربية واليابان من البترول العـربي يبلغ ٨٦٪ من استهلاك هـذه الدول للنفط . وايقاف انتاج البترول العربي يعني شل الاقتصاد الاوربي ، ويشكل وسيلة ضغط حاسمة في ايدي العرب . ولكن هـذا الاجراء هو اجراء موقت اتخذته بعض الدول العربيـة (السعودية والكويت

والعراق وليبيا) . وهو لايمكن ان يستمر طويلاً لأنه يلحق باقتصاديات هذه الدول ضرراً بالغاً .

الجزء الثاني: الحلول الجذرية

من العجيب حقاً ان نجابه الموقف العدائي الذي تقفه منا كل من بريطانيا والولايات المتحدة باتخاذ تدابير ذات مفعول عملي محدود : وان نترك الشركات البريطانية والامريكية الاحتكارية تسرح وتمرح في بلادنا، وتتحكم في ثرواتنا.

وسلاح البترول ليس مجرد تدابير مؤقتة نطبقها لفترة معينة ثم نلغيها بعد ذلك . ان « سلاح البترول » يعني اكثر من ذلك بكثير . ان الثروات البترولية الضخمة التي تملكها الأمة العربية والتي كانت حتى الآن عامل تجزئة واستعبادلنا يمكن ان تحول الى عامل وحدة وانماء . وهذه الثروة النفطية الهائلة يمكن ان تصبح كذلك وسيلة كبيرة للمساومة . اما البترول العربي بوضعه الحالي فهو عامل انماء لثروات الدول الغربية وازدهارها الاقتصادي . فعدا عن كونه مصدراً رخيصاً للطاقة فانه مادة اولية تقوم على اساسه بشكل مباشر او غير مباشر صناعات كثيرة كالتكرير والبتروكيماويات ، عدا الخدمات الاخرى .

والحقيقة الجوهرية التي لايمكننا ان نتجاهلها هو انه لايمكن اتخاذ اجراء ايجابي وفعال مالم نبادر الى تغيير نظام استثمار البترول العربي الحالي . وذلك لأننا في ظل الامتيازات التي فرضت علينا لسنا أسياد ثرواتنا البترولية ، ونظام الاحتكار البترولي لن يمكننا بشكل من الاشكال من بناء وتثبيت قواعد قوتنا الاقتصادية .

ان قضية البترول العربي لا تحل جذرياً إلا بتصفية نظام الامتيازات ، أي بتأميم صناعة البترول في البلاد العربية . فالتأميم هو السبيل الوحيد لتصفية السيطرة الأجنبية على مقدراتنا .

والقول بأن التأميم هو سلاح ذو حدين لانه قد يؤدي لتوقف الانتاج

ويعرض للكارثة بلداناً تعتمد بشكل شبه كلي على دخلها من البترول هو قول واه اذا نظرنا الى الحقائق التالية :

١ - في حالة التأميم يمكن للدول العربية الاحتفاظ بمستوى دخلها الكلي اذا باعت نصف الانتاج الحالي فقط (اي ٢٣٢ م طن عوضاً عن الانتاج الحالي ٤٦٤ م طن) . وذلك لان الارباح كلها تعود اليها في هذه الحالة وليس نصف الارباح .

٢ - حتى في حالة انخفاض الانتاج الى ما دون النصف ، وانخفاض الدخل العام الى ما دون مستواه الحالي (٢و٥ مليار دولار في السنة) فان ذلك لن يشكل كارثة كما يتصور بعضهم ، لان قسما كبيراً من دخل الحكومات العربية البترولي يفيض عن حاجاتها المالية ، وتصح هـذه الملاحظة بشكل خاص بالنسبة للكويت وابي ظبي وقطر والسعودية .

هذا هو الحل السليم لقضيتنا البترولية . ان التأميم هو السلاح الماضي حقاً الذي نستطيع ان نشهره بقوة في وجه الدول المعتدية والدول التي تساند اسرائيل .

العدوان
والرأي العام العالمي

تقدم « المعرفة » في هذا العدد والاعداد التالية، نماذج من مواقف الرأي العام العالمي تجاه عدوان اسرائيل العسكري على البلاد العربية، وتستهدف «المعرفة» من ذلك اطلاع القارىء العربي على هذه المواقف التي قد تساعده على فهم الاتجاهات المختلفة والمتباينة للرأي العام العالمي بشأن الحق العربي في فلسطين .

عملية قناة السويس (1)

بقلم ي. بريماكوف

تحاول اسرائيل تنفيذ عملية « قناة السويس » . ففي السابع عشر من شهر تموز (يوليو) الماضي عرض راديو وتلفزيون القاهرة تصريحا ادلى بـه ضابطان من البحرية الاسرائيلية ، كانا قد وقعا في الاسر قبل بضعة ايام ، بينما كانا يحاولان الابحار في قارب مطاطي « عبر قناة السويس » . وقال هذان الاسيران انهما قد تلقيا الامر « باظهار العلم الاسرائيلي على القناة » . وقد ابتعدا مسافة كيلو متر الى منتصف القناة . وقالا انهما قد كلفا بانجاز مهمتها يوم وصول مراقبي هيئة الامم المتحدة ، وان مهمتهما هذه « ذات طابع سياسي ، اكثر مما هو عسكري » .

ومنذ بضعة ايام اصرت القيادة الاسرائيلية اثناء حديثها مع ممثلي هيئة الامم المتحدة على اعتبار منتصف قناة

(1) المصدر : وكالة أنباء نوفوستي – العدد ٤٣ – ١٩٦٧/٧/٢٥ .

السويس بمثابة خط لوقف اطلاق النار . ولاشك ان لهـذه النوايا علاقة وثيقة بالمحاولة الحالية « لاظهار العلم الاسرائيلي على القناة » .

ماذا تخفي هذه الاعمال التي تقوم بها اسرائيل والتي ترافقها هجمات دورية ضد القوات المسلحة التابعة للجمهورية العربية المتحدة في منطقة قناة السويس؟ يبدو ان تل ابيب وحماتها ينطلقون من اعتبارين : فالمعتدون يحاولون قبل كل شيء « الضغط على الجمهورية العربية المتحدة » واعادة فتح القناة رغم ان القوات الاسرائيلية لاتزال تعسكر على ضفتها الشرقية . لقد كان لاغلاق القناة اثر كبير على الاحتكاريين الغربيين ، وهم يحثون اليوم باي ثمن عن حل يناسبهم ، ويقترحون فصل اغلاق القناة عـن العدوان الاسرائيلي ، واظهار الامور كما لو ان القناة يمكن ان تعمل في الظروف الحالية ، بينما تحتل القوات الاسرائيلية احدى ضفتيها .

والاعتبار الثاني هو محاولة تأكيد « حق » اسرائيل بتسوية القضايا المتعلقة بقناة السويس . فنحن نعلم ان السفن الاسرائيلية لم تجتز مطلقاً هذا الممر المائي الذي يمر عبر الاراضي المصرية . واليوم تريد اسرائيل ان تؤكد « انتسابها » الى « نادي مستخدمي قناة السويس » . أليست هذه محـاولة لتطوير مايسمى « بالنجاحات العسكرية » التي احرزها المعتدون ، ومد هذه النجاحات بأسرع وقت ممكن الى النطاق السيـاسي ؟ فبعد ان وضعت اسرائيل يدهـا على مساحات من الاراضي العربية اعلنت القيادة الاسرائيلية ضم مدينة القدس . وكان هذا القرار غبياً الى درجة ان سادة اسرائيل انفسهم ، كالولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ، قد رفضتا مساندة هذا القرار مساندة مكشوفة . فقد اجبرت هاتان الدولتان على ان تأخذا بعين الاعتبار رد الفعل السلبي لدى العديد من البلدان بالنسبة للسياسة التوسعية التي لاضابط

لها، والتي تنتهجها تل ابيب . وبالتالي لا يمكن للولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ان تتصرفا كما « يروق » لهما وان تتجاهلا كلياً الحالة النفسية السائدة في العالم العربي حيث لا تزال لهاتين الدولتين الامبرياليتين مصالح هامة فيه حتى يومنا هذا . ومهما يكن الوضع فقد وجدت الطغمة الحاكمة في اسرائيل نفسها في حالة عزلة تامة فيما يتعلق بقضية القدس، إذ تتزايد موجة الاستنكار نتيجة لهذه السياسة التي تنتهجها اسرائيل .

الا تقصد اسرائيل، في هذه الظروف، وبواسطة « عملية قناة السويس » ، صرف الانتباه عن القدس الى قطاعات اخرى ؟ ان الطغمة الحاكمة في تل ابيب لا تتورع عن المزاودة على مصالح اي بلد في سبيل فتح قناة السويس ، وهي تعتقد ان الضغط الاسرائيلي على هــذا القطاع سيجري في ظروف تناسب اسرائيل اكثر مما لو جرى في القسم المحتل من الاردن .

ولكن هذه الآمال ليس لها اي مستند اطلاقاً . لقد كانت مصر وستبقى السيد الشرعي لقناة السويس . ولن يتمكن احد من اضفاء طابع الخير على المعتدين والسادة الامبرياليين .

مناسبة نداء روتشيلد الى التضامن اليهودي[1]

في السادس عشر من حزيران (يونيو) الفائت ، اذاع ادمون دي روتشيلد ، رئيس اللجنة المالية للمجلس الوطني لتنسيق المنظمات اليهودية في فرنسا ، اذاع باسم صندوق التضامن مع اسرائيل ، نداء وجهه في رسائل فردية ، بعث بها على نطاق واسع الى يهود فرنسا .

وبعد أن أشار روتشيلد في هذه الرسالة الى « اعتزازه الكبير » بانتصار « اسرائيل العسكري » ، وعدد المهمات الأخرى الملقاة على عاتقها ، قال :

« ان النصر العسكري هو انتصار للشعب اليهودي المعزول وسط عالم معاد له أو غير مبال به . وقد كلف هذا النصر

(١) المصدر : صحيفة لوموند الفرنسية ، عدد ٩ — ١٠ تموز (يوليو) ١٩٦٧ .

ثمناً باهظاً جداً في الأرواح البشرية .
فيجب تعزيزه إذن ، ولا يستطيع تعزيزه إلا الشعب اليهودي وحده ، أعني كل واحد منا . ان الاسهام المطلوب من كل منا ، ليس عملاً من اعمال الإحسان ، بل هو ضريبة . انه ثمن كرامتنا ، وإبائنا ، وتضامننا ...

« فعلى كل يهودي ان يسهم . وينبغي ان يتناسب اسهامه مع الوسائل التي يملكها كدفع راتب شهر كامل ، أو نسبة كبيرة من دخله السنوي ، أو نسبة من رأسماله . وقد جاء في كتاب الشريعة اليهودية انه على كل واحد أن يقدم ١٠ ٪ على الاقل من دخله .

« واني لأرجو بحرارة أن تكون هذه الحرب هي الأخيرة ، وأن تساعد جهودنا في اعادة تعمير اسرائيل في جو من السلام المنشود . »

وقد كتب الى صحيفة لوموند الفرنسية عدد كبير من الذين أرسلت اليهم هذه الرسالة يعلنون عن عدم موافقتهم على مضمونها ، وكانت تلك حال الآنسة جاكلين هادامار Jacqueline Hadamard التي كتبت تقول :

« انني أنحدر من أسر يهودية ، تركت كلها اللورين سنة ١٨٧٠ لتظل فرنسية . جدي كان مدير المدرسة الديانة الاسرائيلية في باريس . والدي هو جاك هادامار ، أحد مؤسسي رابطة الدفاع عن حقوق الانسان . نشأت في جو المعركة في قضية دريفوس ، أي في جو النضال ضد الظلم وضد العنصرية . كان أبي معنياً كثيراً بانقاذ المضطهدين ، فناضل طوال حياته لإنقاذ اليهود المضطهدين ، ولإنقاذ جميع المضطهدين دون تمييز ، ولا تفاوت .

انني وانا مشبعة بهذه الروح ، أرى من واجبي أن أرفع صوتي . إن السيد روتشيلد يطلب الي أن أشعر « بالاعتزاز الكبير » للانتصار العسكري

الذي لايدل الا على قوة متفوقة ، ولا يحل شيئاً . وليس في هذا مايدعو الى الاعتزاز .

ثم انـــني ارفض بعض التأكيدات الاخرى التي قدمها . فهو يتحدث عن « شعب » يهودي ، ومثل هذا الشعب غير موجود . يوجد في عدد كبير من البلاد أناس يدينون بالديانة اليهودية ، ولا يشتركون فيما بينهم بشيء آخر ، ويوجد أناس قد يكونون من أصول متشابهة ، الا ان افكارهم وفلسفاتهم تختلف كلياً عن بعضها ، لأنهم يعيشون مندمجين في شعوب ، وسخت جذورهم في داخلها . تلك هي حالتي أنا .

كلا ، انني لا أنتمي الى « الشعب » اليهودي . انني كأكثر يهود فرنسا ، أنتمي الى الشعب الفرنسي ، الذي قدم للعالم « اعلان حقوق الانسان والمواطن » ، وتحرير العبيد ، كما قدم نظام المواطنة لليهود في ١٧٩١ ، ونداء « اني اتهم » لأميل زولا . في هذا كله كرامتي .

كلا ، انني لن « أدفع » أية « ضريبة » ثمناً لتضامني . فتضامني يتجه الى المضطهدين ، الى الضحايا الاسرائيلية ، والى الضحايا العديدة من العرب ، كما يتجه الى ضحايا فيتنام ، والى السود ضحايا العنصرية في افريقيا الجنوبية والولايات المتحدة ، والى جميع ضحايا العنصرية بوجه عام .

ثم ان رسالة السيد روتشيلد تستدعي ملاحظة أخرى : ألم يفكر هو بأن الرجل السامي الذي يعتبر نفسه منتمياً الى « الشعب المختار » هو عنصري مثلما ان اللاسامي عنصري ؟

ان موقف السيد روتشيلد ، بدلاً من ان يخدم الشعب الاسرائيلي ، ويهود العالم اجمع ، يقدم سلاحاً جديداً لمناهضي السامية . وبذلك تقع على عاتقه مسؤولية خطيرة .

إنني احتج على هذا ، وأتوجه الى مواطنيّ اليهود ، داعية اياهم الى رفض ندائـــه والى التدليل بذلك على انهم فرنسيون ، لا يهود « من فرنسا » كما يقول .

●

● دعت أسرة تحرير (المعرفة) بعض المفكرين للتداول في إعداد بعض الموضوعات والدراسات عن العدوان الإسرائيلي والحق العربي في فلسطين ، ليصار الى طبعها باللغات الاجنبية لاطلاع الرأي العام العالمي على حقيقة النوايا الاسرائيلية التوسعية ، والجرائم التي ارتكبتها اسرائيل في عدوانها الأخير . وتقرر وضع مكتبة (المعرفة) ، بما فيها من مراجع عربية وأجنبية وفكرية ووثائقية حول هذه الموضوعات ، تحت تصرف المفكرين والباحثين لاعداد هذه الدراسات .

● اشترك الفنانون التشكيليون في الجمهورية العربية السورية في الدفاع عن الوطن ضد العدوان الصهيوني الأمبريالي ، فتنادوا الى اقامة معرض ، يضم لوحاتهم التي تعبر عن النضال وفضح اسرائيل والاستعمار وعزم الشعب العربي على استعادة حقوقه . وتبرع الفنانون التاليه اسماؤهم بلوحاتهم لجهود الدفاع القومي : فاتح المدرس ، نعيم اسماعيل ، لؤي كيالي ، الياس زيات ، نصير شورى ، غازي الخالدي ، برهان كركوتلي ، نذير نبعة ، أسماء فيومي ، خزيمة علواني ، صخر فرزت ، رضا زريق ، رضا حسحس ، أدهم قوطرش ، هدى الايوبي ، ممتاز البحرة ، مصطفى ارناؤوط . كما تقرر ان ينظم فنانو القطر العربي السوري معرضاً لبعض آثارهم يطوف في بعض عواصم العالم ، وتباع لوحاته وتخصص قيمتها للعمل القومي .

● في ١٨ تموز الماضي مرت ١٠ سنوات على تفجر ثورة عمان في شبه جزيرة العرب .

● توفي الكاتب الأديب المهجري المرحوم نظير زيتون يوم ٢٢ تموز (يوليو) الماضي في مدينة حمص مسقط رأسه . ويعتبر نظير زيتون من كبار أدباء المدرسة التقليدية ، اذ كان يعتمد في اسلوبه على البيان المشرق ، وعلى السجع ، والاكثار من المترادفات . اهتم بالمقالة بالدرجة الأولى . ومن اهم بحوثه المنشورة كتاب « الشهيدان الزهراوي وسلوم » . وكانت « المعرفة » قد نشرت للأديب الفقيد مقالة في العدد / ٥٤ / يعلق فيها على مقالة الاديب المهجري جورج صيدح المنشورة في العدد / ٥٠ / من « المعرفة » .

● في العدد الرابع (ربيع الثاني ١٣٨٦ غشت « آب » ١٩٦٦) من مجلة (اللسان العربي) التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية في الرباط ، بحث عن حضارة العرب في العلوم للأستاذ جمال الدين الرمادي .

● صدر عن دار الفكر الحديث - لبنان كتاب الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ الحركات القومية - الجزء الاول ؛ وقد خصصه المؤلف لموضوع يقظة القوميات الأوروبية . وسيواصل الدكتور حاطوم إتمام موضوعه الكبير في الاجزاء الستة الاخرى .

● صدر عن دار الكاتب العربي - لبنان كتاب (عصر المنصور الأندلسي) للدكتور خالد الصوفي ، وكان الدكتور صوفي قد الف في سلسلة (تاريخ العرب في اسبانيا) كتابان هما (جمهورية بني جهور) و (نهاية الخلافة الأموية في الأندلس) ، وسيخصص الكتاب الرابع الكلام عن فتح العرب لإسبانيا وعهد الولاة ثم يتبعه بأبحاث اخرى تلي هذا البحث حتى تتصل المواضيع ببعضها وتغطي فترة الخلافة الأموية بعدد من الأبحاث .

● في كتاب (مراكز المسلمين التعليمية والثقافية والدينية في الهند) ذكر عبد الحليم الندوي استاذ الادب العربي بالجامعة الملية الاسلامية في دلهي

الجديدة نبذة من مختلف اوجه النشاط التي تؤديها المعاهد القديمة والحديثة من أجل تثقيف الجيل الناشىء ثقافة مثالية ، مطبعة نوري المحدودة – مدراس ١٣ – (الهند) .

● صدر كتاب (الشرق الأحمر) الذي يعرض فيه الاستاذ سلامة عبيد انطباعاته عن زيارته للصين الشعبية ، مطبعة الإنشاء – دمشق .

● كتاب (رقائق الشعر في الأدب والزهد والوعظ) جمع فيه الأديبان محمود مهدي الاستانبولي وخير الدين وانلي أرق الشعر في الزهد بعيداً عما لا يليق بالحضرة الإلهية ، مطبوعات التمدن الاسلامي – دمشق .

● صدرت مجموعة من الشعر الحديث لممدوح عدوان .